كتب عسكرية قديمة ونادرة

حروب التاريخ الحاسمة

(دراسة في فن الاستراتيجية)

ب. هـ. ليدل هارت

الطبعة الأولى ١٩٣١

وزارة الحربية والبحرية

الجيش المصرى

حروب التاريخ الحاسمة

دراسة فى فن الاستراتيجية

لمؤلفـــه

ب . ه . ليدل هارت

تعريب

اليوزباشى أحمد حموده

عرّب بأمر وزارة الحربية والبحرية

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣١

المقـــدمة

الباب الأول من هذا الكتاب هو، بمعنى عام، عبارة عن المقدمة التى تعبر عما يرمى اليه، وما يتناوله من البحث، وما يحتويه من الموضوعات. وهذه كلها برزت بطريقة أكثر تدرجا وأقل مراعاة للترتيب مما يتبع عادة فى وضع الكتب. و بما أن الفكرة الرئيسية هى محاولة استخراج خلاصة ما قرأه الانسان وأجال فيه النظر فى عدة من السنين ، فان البيان التاريخى المستخرج منها هو ملخص محصول المذكرات المأخوذة أثناء دراسة كل حرب من الحروب، موضوعا فى قالب مقتضب . ولقد كان الأسهل وضع هـذه المذكرات فى نسيج من البيان أكثر اسهابا مما فى هـذا الكتاب ، غير أنه لما كان القصد ألا تحول كثافة "الأشجار" دون رؤية "الغابة" فقد اقتضى الحال شذب الوقائع غير الجوهرية شذبا دقيقا . فاذا ظهر أن الأغصان قد تجردت من الأوراق لدرجة لا يسوغ مذاقها لدى بعض القراء فانى أطلب منهم العفو لأن هذا الكتاب وضع بنية أن يكون للطالب المتخصص دليل الدراسة التاريخية أكثر منه مختصرا تاريخيا .

وانى أنتهز ، أيضا ، فرصة هذه المقدمة "الأولية" لأجعلها موضع اعترافى بما أسداه لى من الجميل الذين تفضلوا بقراءة التجربة الأولى فى أطوارها المتعددة ونقدها قبل الطبع . ثم أؤدى ماعلى من واجب الشكر لأصدقائى قادة اللواءات (البريجادير ية) : I. G. Dill و B. D. Fisher و I. F. C. Fuller و H. Karlake والكلونيل The Viscount Gort والمستر G. E. Hawke و T. E. S نظير ما أبدوه من الملاحظات والاقتراحات المفيدة .

(المؤلف)

فهرس

الجـــزء الأول

الجزء الثـانى

الحرب العالمية من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨

كشف الخرائط

الجزء الأول

الباب الأول

التاريخ بصفته تجارب عملية

" يقول الحمق من النـاس انهم يتعلمون بالتجاريب . أما أنا فافضل أن أتعلم من تجاريب غيرى " . هذا القول المشهور المعزو الى "بسمارك" وان لم يكن هو مبتكره ، له أثر خاص فى المسائل الحربية . فلقد قيل وأعيد القول ان الجندى ، بخلاف أرباب المهن الأخرى ، ليس لديه من الفرص التى تمكنه من ممـارسة مهنته الا ما ندر . بل وقد يزاد على ذلك قولهم ان مهنة الجندى ، اذا روعى المعنى المفهوم من كلمة مهنة ، ليست مهنة مطلقا بل هى مجرد " استخدام عرضى " . ومن الألغاز أنها بطلت أن تكون مهنة فى الوقت الذى حل فيه " الجندى المحترف " محل الجندى المغامر — حينما استعيض عن الجنود الذين كانوا يستخدمون بأجر مدة الحرب ، بجيوش مستديمة تتقاضى رواتبها حتى فى غير أيام الحرب .

وهذا الجدل المنطق وان كان فيه شيء من التطرف ، يعيد الى الذاكرة العذر الذى كانوا يحتجون به مرارا فى الأيام السالفة فى اعطاء الضباط مرتبات لا تفى بحاجاتهم . كما كان يحتج به بعض الضباط فى تأدية عملهم اليومى ناقصا عن المعتاد — بحجة أن مرتب الضابط ليس أجرا لعمل انمـا هو أجر " ارتباط " حتى ينتفع بخدمته فى حالة الحرب .

واذا كان الزعم — بأن " مهنة الجندية " لا وجود لهـا بالمعنى الصحيح — لا يجـد ما يؤيده فى أيامنا هـذه من وجهة الأعمال الا أنه من وجهة الممـارسة يجد تأييدا قويا لا مفر منه ، فى ندورة الحروب . وعلى ذلك فهل نستنتج منه أن الجيوش صائرة تدريجيا الى أن تصبح جيوش " هواة " بالمعنى الدارج البغيض لهذه الكلمة التى أسيء استعمالهـا ؟ لأن المشاهد ان تدريب زمن السلم حتى أحسنه لا يخرج عن كونه " نظريا " أكثر منه ممـارسة " عملية " .

على أن القول الحكيم الذى قاله " بسمارك " يلقى على هذه المسألة ضوءا مغايرا لذلك فيه تشجيع . اذ يساعدنا على ادراك أن هناك صورتين للمارسة العملية احداهما مباشرة والأخرى غير مباشرة . وأن الممارسة العملية غير المبـاشرة قد تكون أعظم قيمة من الأخرى لاتساع نطاقها اتساعا لا حد له . لأن فى الحياة العملية حتى أكثرها نشاطا ، وعلى الخصوص حياة

الجندى، تكون دائرة الممارسة المباشرة وما يتخللها من الاحتمالات محدودة الى درجة متناهية. وعلى نقيض مهنة الجندية مهنة الطب فان هذه لديها من الممارسة ما لا ينقطع سيله، ومع ذلك فان جلائل الأعمال كان الفضل فى ظهورها يرجع عادة الى من يعملون فى البحث والاستقصاء لا الى الأطباء الممارسين الذين يتعاطون مهنتهم بوجه عام .

ثم ان الممارسة المباشرة محدودة بطبيعتها الى درجة يتعذر معها تكوين أساس ثابت تبنى عليه النظريات أو يقوم عليه تطبيقها . فهى فى أحسن حالاتها توجد جوا صالحا له قيمته فى ترسيخ بناء أفكارنا وتقويته . أما قيمة الممارسة غير المباشرة ، التى هى أعظم من تلك ، فهى فيما تتناوله من التغير واتساع النطاق اذ هما فى هذه أعظم مما فى تلك . " والتاريخ هو تجارب عامة " — أى تجارب الغير الكثيرين فى ظروف متنوعة ، لا تجارب فرد واحد .

وهنا نجد مبررا معقولا للتاريخ الحربى من حيث قيمته التى لا تعادلها قيمة أخرى فى تدريب الجندى وتوسيع مداركه . على أن الاستفادة تتوقف ، كما فى كل أنواع التجارب ، على درجة اتساعها ، وقربها من التعريف المار بيانه ، وعلى طريقة الدراسة .

ثم ان رجال الجندية يسلمون بالاجماع بما فى القول المأثور عن نابليون من الحقيقة وهو أن فى الحروب " نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد " . فالنسبة الحسابية قد تكون عديمة القيمة لان القوة المعنوية عرضة للتدهور اذا كانت الأسلحة ليست على ما يرام . كما أن قوة الارادة مهما سمت لا تجدى نفعا وهى فى جثة هامدة . غير أنه ولو أن العاملين الأدبى والمادى متلازمان لا ينفصلان فان هذا القول المأثور تبقى له قيمته الأبدية لأنه يعبر عن فكرة تفوق العوامل الأدبية فى كل القرارات الحربية . لأن العوامل الأدبية هى المحور الذى تدور عليه نتيجة الحرب بأجمعها ونتيجة المعركة . والعوامل الأدبية فى التاريخ هى العوامل الثابتة دون غيرها ، ولا تتغير الا فى درجتها . فى حين أن العوامل المادية تختلف اختلافا أساسيا فى كل حرب وفى كل موقف بوجه التقريب .

وادارك ذلك يؤثر على المسألة بأجمعها الخاصة بدراسة التاريخ الحربى للانتفاع به عمليا . وقد كانت طريقة الدراسة فى بضع الأجيال الماضية تنطوى على اختيار حملة حربية أو حملتين ودراستهما دراسة متعمقة كوسيلة لترقية مداركنا والتوسع فى نظرية الحرب . على أن التغير المستمر الذى طرأ على وسائل الحروب من حرب الى أخرى فيه خطر جسيم بل محقق يفضى الى تضييق دائرة آمالنا ويجعل ما نتلقاه من الدروس قائما على قياس باطل . فالعامل الوحيد الثابت فى دائرة الماديات هو أن الوسائل والظروف لا ثبات لها بل تتغير دائما .

وعلى العكس من ذلك فان الطبيعة البشرية لا تتغير الا شيئا يسيرا من وقع الأخطار عليها . فقد يكون بعض الناس أقل احساسا من غيرهم بطبيعة أجناسهم ، أو بفعل المحيط الذى يعيشون فيه ، أو بما يتلقونه من التعليم والتدريب . على أن الفرق بينهم ان هو الا فى الدرجة

وليس فرقا أساسيا. وكلما انحصرت دائرة الموقف ودائرة دراستنا زادت حيرة العقل وأصبحت درجة الفرق لا تقاس. وقد تحول دون حساب مقدار المقاومة التى تبديها الجنود فى أى موقف، ولكنها لا تؤثر على الحكم بأنهم يبدون مقاومة فى حالة مفاجأتهم أقل من المقاومة التى يبدونها وهم متيقظون — ويقاومون وهم متعبون وجياع أقل مما يقاومون وهم مستريحون ولا ينقصهم الغذاء الجيد. فكلما اتسعت دائرة دراسة علم النفس حسن أساس الاستنتاج .

وتفوق النفسية على الطبيعة الجثمانية وكون الأولى أكثر ثباتا من الثانية يؤديان الى استنتاج ان أساس أية نظرية عن الحرب يستلزم أن يكون متسعا ما أمكن . فدراسة حملة حربية واحدة دراسة عميقة ، ما لم تكن مؤسسة على علم واسع بكل تاريخ الحرب، قد تؤدى بنا الى مواطن الزلل ، كما أنها قد تؤدى الى ذروة المغانم الحربية . ولكن اذا شوهد أن نتيجة بعينها تتبع سببا بعينه فى عشرينات من الحالات فى أزمنة مختلفة فى ظروف شتى ، اذن لكان هناك مبرر يبرر اعتبار أن ذلك السبب هو جزء متمم لأية نظرية فى الحرب .

فهذا الكتاب، كالموضوع الذى يبحث فيه، عبارة عن محصول ذلك التنقيب "الواسع" ويصح تسميته النتيجة المركبة لأسباب معينة — وهذه الأسباب لها صلة بعملى كمحرر حربى فى "دائرة المعارف البريطانية" . فمع أنى قد بحثت ونقبت فيما مضى فى مختلف عصور التاريخ ، وكثيرا ما كان ذلك رغم ميولى . ثم ان المساح الذى يمسح الأراضى ويشرف عليها، بل والسائح الذى يجوب البلاد يكون بطبيعة الحال ملما بصورتها المنظورة أكثر من غيره وفى استطاعته أن يعرف أوضاعها العامة على أقل تقدير فى حين أن مهندس المناجم لا يعرف الا الطبقة الأرضية التى يبحث عنها .

ففى أثناء هذا الاطلاع العام تكونت فكرة أخذت تزداد ثبوتا على مدى البحث — تلك هى أنه فى كل العصور لم يتوصل الى النتائج الحاسمة فى الحروب الا متى كان الاقتراب الاستراتيجى اقترابا غير مباشر . وبعبارة أخرى انه فيما يختص بالاستراتيجية كلما كان الطريق طويلا ملتويا كان الوصول الى الغرض أقرب .

وقد أثبت الواقع المرة بعد المرة أن الاقتراب المباشر سواء أكان من غرض عقلى يقصده الانسان بتفكيره ، أم من غرض مادى بأن يحصل الاقتراب على طول "خط الانتظار الطبيعى" من وجهة نظر الخصم (أى الخط الذى يتوقع الخصم أن يتبعه المقترب). كان من شأنه أن يؤدى ، بل وقد أدى فعلا ، الى نتائج سلبية . والسبب فى ذلك قد عبر عنه نابليون بصورة واضحة فى قوله المأثور "ان نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد" . وقد يعبر عنه بطريقة علمية بأن يقال بينما ان قوة أى بلاد معادية تنحصر مظاهرها

فى عدد سكان هذه البلاد وفى مواردها الا أن عدد السكان والموارد يتوقفان بصفة أساسية على درجة استقرار أى "توازن" السيطرة ، والقوة الأدبية ، وكفاية المؤن واللوازم . فسكان البلاد ، والموارد ليست الا بمثابة اللحم الذى يكسو الهيكل العظمى والأعصاب .

فان التحرك على طول الخط المنتظر بطبيعة الحال ، أى على طول خط الانتظار الطبيعى معناه توطيد توازن الخصم ، واعطاء هذا التوازن صلابة معناه زيادة قوة مقاومته . ففى الحرب ، كما فى المصارعة ، محاولة المرء القاء خصمه على الأرض قبل زحزحة مواطئ قدميه واخلال توازنه لا تؤدى الا الى انهاك قوة المرء بنسبة عكسية لما يحدثه على الخصم من التأثير . واحراز النصر بمثل هذه الطريقة لا يتيسر الا اذا كان المرء متفوقا فى القوة بدرجة كبيرة جدا فى أى صورة من صورها (أى القوة) . وحتى حينذاك يبقى النصر عرضة لئلا يكون حاسما . وعلى العكس من ذلك فان مراجعة التاريخ الحربى ، لا فى فترة واحدة من فتراته بل مراجعته بأجمعه تدل على أن الواقع هو أن فى كل حملة من الحملات الحربية الحاسمة كانت زحزحة توازن العدو من الوجهتين النفسية والمادية هى المقدمة الحيوية للمحاولة الناجحة فى التغلب عليه . وأن هذه الزحزحة قد حصلت كنتيجة لاقتراب استراتيجى غير مباشر ، مقصودا كان أو عرضيا . وهى قد تكون على أشكال متنوعة كما يظهر من تحليلاتنا . لأن استراتيجية الاقتراب غير المباشر تشمل — ولكنها أوسع من " المناورة على المؤخرة " Manœuvre sur les derrière التى دلت الأبحاث المستفيضة التى قام بها الجنرال " كامون " على أنها كانت مطمح أنظار نابليون دائما ومفتاح طريقته فى ادارة العمليات . ففى حين أن أبحاث "كامون" قامت على مبادئ التحركات اللوجستيكية (نسبة الى طريقة حسابية خاصة تسمى طريقة القياس الستينى) — عواملها الزمان ، والمسافة ، والمواصلات — فان تحليلاتنا ترمى الى التعمق فى البحث وراء الأسس التى يقوم عليها علم النفس . وهى بذلك تجد علاقة أساسية بين كثير من العمليات الاستراتيجية التى لا تشبه فى ظواهرها " المناورة على المؤخرة " فى شىء . ولكنها بالرغم من ذلك أمثلة حيوية قطعية " لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر " .

واستقصاء هذه العلاقة وتحديد نوع العمليات لا يستلزم ، بل ولا يدخل فى موضوعه وضع جداول تبين القوى العددية ، وتفصيلات التموين باللوازم ووسائل النقل . فان كل ما يهمنا انما هو بيان النتائج التاريخية فى سلسلة شاملة من الحالات . ومعها التحركات التى أدت اليها سواء منها القائم على الحساب (القياس اللوجستيكى) أو على دراسة علم النفس .

فاذا تبين أن النتائج المتشابهة تأتى على أثر التحركات المتشابهة فى ظروف وأحوال تختلف اختلافا كبيرا فى نوعها ونطاقها وتاريخها . فمن الجلى اذ ذاك أن هناك اتصالا أساسيا بينها نستطيع منه بحكم المنطق أن نستنتج سببا مشتركا بينها . وكلما زادت الظروف اختلافا كلما تأكد الاستنتاج .

على أن قيمة الغرض المقصود من سعة الاطلاع على شؤون الحرب لا تنتهى عند البحث عن عقيـدة حقيقية جديدة . واذا كانت سعة الاطلاع أساسا جوهريا لكل نظرية تتعلق بالحرب ، فهى ضرورية أيضا للطالب الحربى العادى الذى يبحث عن توسيع دائرة آماله ومقدرته على الحكم فى الأمور . وبخلاف ذلك فان معرفته تكون أشبه بهرم منعكس قائم على قمته الدقيقة فيبقى متزعزع التوازن . فالطالب فى جامعة لا يصل الى أبحاث الطالب المتخرج الا بعد أن يلم الماما عاما بعلم التاريخ بصفته طالبا فى مدرسة ابتدائية ، وبعد ذلك يتوسع فى معلوماته بصفته طالبا تحت التخرج بدراسة المظاهر الدستورية والاقتصادية ، ثم دراسة تواريخ أزمان خاصة . ومع ذلك فان الطالب الحربى الذى يأتى عادة الى موضوع دراسته متأخرا بعد أن يصبح عقله أقل مرونة مما كان فى عهد الشباب ينتظر منه أن يبدأ الدراسة فى نقطة تعادل أبحاث خريج الجامعة . فهذا الموقف الغريب ونتائجه فى بعض الأحيان مما يعيدان الى الذاكرة تلك الأسطر الشعرية الواردة فى قصة "أليس فى أرض العجائب".

وهاك تعريبها على وجه التقريب :

" صاح الشاب قائلا : أيها الأب " ولم " لقد صرت شيخا وشعرك قد أضاءه المشيب فصار ناصع البياض ومع ذلك فانك تقف دائما على رأسك فهل تظن أنك مصيب فى ذلك وأنت فى هذه السن ؟ " .

الباب الثانى

حروب الاغريق

ايبامينونداس ، وفيليب ، والاسكندر

النقطة التى تصلح أكثر من غيرها بطبيعة الحال لبدء البحث والتنقيب هى أول "حرب عظمى" فى التاريخ الأوربى ، وهى "الحرب الفارسية العظمى" . وليس لنا أن نتوقع كثيرا من الارشاد فى عصر كانت فيه الاستراتيجية فى طفولتها ولكن اسم "ماراثون" قد نقش على أذهان ومخيلات قراء التاريخ نقشا عميقا لا يتسنى معه اغفال هذا الاسم . وكان نقشه على مخيلة الاغريق أعمق ومن ثم تغالوا فى أهميتها . وعنهم أخذ الأوربيون وتداولوها فى الأعصر اللاحقة . ومع ذلك فان انقاص أهميتها الى درجة أقرب الى الانصاف يزيد من قيمتها الاستراتيجية . فان غزو الفرس فى سنة ٤٩٠ ق.م كان عبارة عن تجريدة صغيرة نسبيا وكان القصد منها القاء درس على كل من "ايرتريا" و"أثينا" ، وهما ولايتان صغيرتان فى نظر "داريوس" (دارا ملك الفرس) وفى الحقيقة . وهذا الدرس هو ألا يتداخلا فيما لا يعنيهما وأن يكفا عن تشجيع العصيان بين رعية الفرس من اغريق آسيا الصغرى .

فدمرت "ايرتريا" على الوجه المرغوب وأبعد سكانها للتوطن على الخليج الفارسى . وبعد ذلك جاء دور "أثينا" حيث كان معلوما أن الحزب الديمقراطى المتطرف يتريث ليساعد تدخل الفرس ضد حزب المحافظين ثم ان الفرس بدلا من أن يزحفوا رأسا على "أثينا" أنزلوا جنودهم الى البر فى "ماراثون" التى تقع على مسافة ٢٤ ميلا شمالى شرقى "أثينا" . ومن ثم كان فى استطاعتهم أن يعولوا على استدراج الجيش الأثينى نحوهم وبذا يسهلون لأتباعهم القبض على مراكز القوة فى "أثينا" . فى حين أن الهجوم المباشر على المدينة كان لا بد أن يعيق هذه الثورة . بل وربما كان يتسبب عنه انضمام الثائرين الى أعدائهم فيواجهون مشقة اقامة الحصار علاوة على مشقة القتال على أية حال .

وقد نفعت هذه الحيلة وخرج الجيش الأثينى قاصدا "ماراثون" لملاقاة الكتلة الرئيسية من قوات عدوهم المسلحة . وهذا يطابق العقيدة الحربية الحديثة تمام المطابقة . على أنه لسوء حظ الفرس كان شعور بعض أتباعهم الديمقراطيين الموجودين "بأثينا" قد تغير . ولكنهم بالرغم من ذلك شرعوا فى تنفيذ الخطوة التالية من خطتهم الاستراتيجية . فأعادوا اركاب بقية جيشهم السفن تحت حماية قوة ساترة ، ليحولوه الى "فاليروم" وهناك ينزلونه الى البر ثم يثبون على أثينا وهى مجردة من الحراسة .

على أن "الأثينيين" بفضل ما بذله "ملتيادس" من الهمة رأوا أن ينتهزوا الفرصة الوحيدة التى أمامهم بمهاجمة القوة الساترة فى الحـال . فنشبت المعركة بين الفريقين وكان لتفوق أسلحة الاغريق ودروعهم — وكانوا يمتازون بهما دائمـا على الفرس — مع تكتيكاتهم الحديثة الفضل فى انالتهم النصر . ولو أن القتال كان أشد ممـا ترويه أساطيرهم الوطنية . وأن معظم القوة الساترة قد رجعت بسلام الى السفن . ثم ان "الأثينيين" أظهروا همة فوق تلك الهمة وأسرعوا بسير مضاد لسير الفرس راجعين الى المدينـة . وكان الفضل فى نجاتهم راجعا الى هذه السرعة وتباطؤ الحزب المنشق عليهم . لأن الفرس بقوا وقتا طويلا أكثر ممـا يلزم منتظرين ظهور اشارة الترس المتفق عليها . ولكن لمـا عاد الجيش الأثينى الى "أثينا" ورأى الفرس أن لا بد من محاصرتها أقلعوا بسفنهم عائدين الى قارة آسيا لأن الغرض التأديبي المحض لا يستحق الشراء بثمن باهظ .

وانقضت بعد ذلك عشر سنين قبل أن يحاول الفرس محاولة جدية لالقاء هـذا الدرس مرة أخرى والتشدد فيه . غير أن الاغريق تباطأوا فى الاتعاظ بهذا النذير ولم تشرع "أثينا" فى توسيع أسطولها البحرى الا فى سنة ٤٨٧ ق . م . ذلك الأسطول الذى كان مقدرا له أن يكون القوة الحاسمة فى الحملة المقبلة . وعلى ذلك فيمكن القول بحق أن كلا من بلاد اليونان وأوربا قد نجتا بسبب وقوع العصيان فى مصر فانه شغل بال الفرس من سنة ٤٨٦ الى سنة ٤٨٤ ق . م . ووفاة "داريوس" الذى كان فذا فى قدرته بين ملوك الفرس .

ولمـا ازداد التهديد وتطور فى سنة ٤٨١ وكان هذه المرة فى نطاق واسع وكانت جسامته سببا لا فى ائتلاف الأحزاب والولايات الاغريقية وتألبها على الفرس فحسب ، ولكنه اضطر الملك "أكزرسيس" لأن يقترب من غرضه اقترابا مباشرا . لأن عظم جيشه حال دون نقله بطريق البحر ولذلك اضطر لسلوك طريق البر ، كما كانت كثرته تحول دون تموينه نفسه فاستخدم الأسطول لتموينه . فكان الجيش ملازما للسواحل بحكم الضرورة وكان الأسطول ملازما للجيش — أى ان كلا الجيش والبحرية كان مقيدا . وعلى ذلك أمكن الاغريق أن يتأكدوا من الخط المنتظر أن يسلكه العدو فى اقترابه . وكان الفرس لا يستطيعون التحول عنه . وأوجدت طبيعة البلاد للاغريق سلسلة من النقط يستطيعون بها سد خط الاقتراب الطبيعى سدا محكما . وكما قال "جراندى" لولا تشعب مصالحهم وتناقضها وتشتت آرائهم (لكان من المحتمل أن الغزاة يعجزون عجزا تاما عن تجاوز "ترموبيله" جنوبا) . فالذى حصل هو أن التاريخ اكتسب قصة صارت أبدية . وألقيت على عاتق الأسطول الاغريقى مهمة زحزحة الغزو زحزحة لا عودة له بعدها بأن هزمت أسطول الفرس فى معركة "سلاميس" — بينما كان "اكزرسيس" وجيش الفرس يشاهدان تدمير الأسطول الذى فضـلا عن كونه أسطولهم فانه كان عليه المعوّل فى تموينهم . وممـا يستحق التنويه أن الفرصة التى أمكنت من

نشوب هـذه المعركة البحرية أوجدتهـا صورة أخرى من الاقتراب غير المباشر . هى رسالة "ثيمستوكل" الى "اكزرسيس" بأن الأسطول الاغريق على استعداد للخيانة والتسليم . وهذه الخدعة التى استدرجت الأسطول الفارسى الى دخول البوغاز الضيق الذى جعل كثرته العددية لاعبرة لها ولا نفع ، نفعت بسبب السوابق التى تقدمتها فجعلتها تقبل التصديق . وفضلا عن ذلك فان الذى أوقف الفرس عن التدخل فى شئون بلاد اليونان فيما بعد طول مدة السبعين سـنة التى أعقبت هـذه المعركة انمـا هى قوة الاقتراب غير المباشر من مواصلات الفرس أنفسهم التى تمكنت "أثينا" منها واستخدمتها فعلا ، وهذا الاستنتاج أثبته اثباتا لاشك فيه ، عودة ذلك التدخل فى الحال على أثر تدمير الأسـطول "الأثينى" فى معركة "سرقسطه" (سيركوزا) .

وما هو جدير بالملاحظة من الوجهة التاريخية أن استخدام خفة الحركة الاستراتيجية للاقتراب غير المباشر قد برز الى حيز الوجود وانتفع به فى الحروب البحرية قبل الانتفاع به فى الحروب البرية بزمن طويل . والسبب الطبيعى فى ذلك هو أن الجيوش لم تعول على "خطوط المواصلات" لتموينها الا بعد أن تدرجت فى عدة مراحل من التطور والرقى .

أما الأساطيل فكانت تستخدم ضد المواصلات البحرية ، أى وسائل تموين البلاد المحاربة . ولمـا ثبتت هذه الفكرة صار من الطبيعى تطبيقها كوسيلة لغاية بحرية . أى وسيلة لغاية "حربية" فوق ظهر البحر .

وبعد زوال تهديد الفرس كانت عاقبـة معركة "سلاميس" ارتفاع "أثينا" الى المقام الأول فى الشئون الاغريقية . وهذا المركز السامى انتهى وانقضى بحرب "البلوبونيز" (فى سنة ٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) على أن استمرار هـذه الحروب الطاحنة مدة سـبع وعشرين سنة ، وفظـاعة ما تكبدته البلاد من الخسائر لا بلاد المتحاربين الرئيسيين فقط ، بل البلاد السيئة الحظ ، التى كانت فى حكم المحايدة أيضا كان السبب فيه استراتيجية التردد والاضطراب التى لا طائل تحتها التى كان كلا الفريقين يتدهور اليها حينا بعد حين .

ففى الطور الأول حاولت "سبارتا" وحلفاؤها غزو "أثينا" غزوا مباشرا . على أن سياسة "بيركلى" الحربية قد خيبتها . وهى السياسة المنطوية على اجتناب المعارك البرية واستخدام الجيش "الأثينى" المتفوق فى انهاك ارادة العدو واضعافها بغارات السطو "والتخريب" . وقد استعملنا هـذا الاسم الاصطلاحى "السياسة الحربية" قصدا وان كانت عبارة "الاستراتيجية البيركلية" أصبحت فيما بعد مشهورة كشهرة "الاستراتيجية الفابية" لأن الأسماء الفنية الواضحة التحديد جوهرية للفكرة الواضحـة . واسم "الاستراتيجية" الاصطلاحى مقصور على مدلوله الحرفى الذى هو "القيادة" — أى ادارة القوات الحربية ادارة فعلية تمييزا له عن السياسة التى

يتقيد بها استخدام هـذه القوات وتشترك معها أسلحة أخرى — اقتصادية ، وسياسية ، وبسيكولوجية (أى خاصة بعـلم النفس) . وهـذه السياسة قد ابتكرلها اسم اصطلاحى هو "الاستراتيجية العظمى" على أن هـذا الاسم وان كان ملائمـا فان مدلوله ليس سهل الفهم ومن ثم فانى بالرغم من استصوابى اسم "الاستراتيجية العظمى" الذى استعملته فى كل مكان آخر ، سأستعمل هنا اسم "السياسة الحربية" بمـا أن التحليل والترتيب هما الغرضان الرئيسيان من هـذا البحث التاريخى . فالخطة "البيركلية" كانت مجرد سياسة حربيـة ترمى تدريجيا الى استنفاد صبر العدو وجلده حتى يدخل فى روعه و يقتنع أنه يستحيل عليه الحصول على البت والحسم ، بدلا عن أن تكون استراتيجته اقتراب غير مباشر ترمى الى زحزحة موازنة العدو لكى تحدث حسما . ولسوء الحظ دخل وباء من الخارج شالت معه كفة "أثينا" فى هـذه الحملة الأدبية والاقتصادية التى كانت ترمى الى انهاك العدو . ولذلك ففى سـنة ٤٢٦ق.م. زالت الاستراتيجية البيركلية وحلت محلها الاستراتيجية التعرضية المباشرة التى اتبعها كل من "كليون" و "ديموستين" . وهـذه الاستراتيجية كانت أكثر كلفة من سابقتها ولم تكن أكثر منها نجاحا بالرغم من بعض أعمال تكتيكية باهرة كللت بالنجاح .

وفى أوائل شتاء سنة ٤٢٤ ق.م. جاء "براسيداس" وهو أقدر جندى عرفته "سپارتا" ومحا كل ما كانت "أثينا" قد أحرزته من المزايا بشق الأنفس . وذلك بحركة استراتيجيـة وجهت الى جذر قوة العدو بدلا من جزعها . فمر "بأثينا" نفسها دون أن يمسها بسوء وسار مسرعا نحو الشمال مجتازا بلاد اليونان طولا وأنزل ضربته بمستعمرة "أثينا" فى "خالسيدس" التى كانت تسمى بحق " نقطة الضعف فى الأمبراطورية الأثينية " وباشرا كه القوة العسكرية مع وعد أعطاه لكل المدن التى كانت ثائرة على "أثينا" بمنحها حريتها وحمايتها زعزع قوة "أثينا" فيها حتى استدرج اليها القوات الأثينية الرئيسية . فنزلت بها كارثة فى "أمفيپولس" ومات "كليون" ولكن "براسيداس" نفسه سقط قتيلا فى لحظة الانتصار . ومع كل ذلك رضيت "أثينا" عن طيبة خاطر أن تعقد صلحا سلبيا مع "سپارتا" — كانت فيه أقل حزما من قائدها العظيم .

وفى سنين الصلح الاسمى التى أعقبت ذلك قامت أثينا بعدة تجريدات لاسترداد مركزها فى "خالسيدس" ولكنها أخفقت فيها كلها . فعمدت الى تجريدة أرسلتها ضد "سرقسطه" كآخر أمل تعرضى لديها "وسرقسطه" هى مفتاح "سيسيليا" التى هى مورد تموين "سپارتا" "والپلوپونيز" بوجه عام عن طريق البحر . وهذه الحركة بصفتها سياسة حربية لاقتراب غير مباشر كانت خاطئـة فى انزال الضربة ، لا بشركاء العدو الحقيقيين ، بل بعملائه التجاريين فنشأ عن ذلك أنها بدلا من تشتيت قوات العدو ، ألبت على نفسها قوات جديدة .

على أنه بالرغم من ذلك كان من الممكن أن نتائج النجاح الأدبية والاقتصادية قد تغير كل توازن الحرب لو لم تقع سلسلة من الأخطاء فى تنفيذ هذه السياسة ، يكاد لا يكون لها مثيل أولها أن "السبياديس" واضع الخطة استدعى من قيادته المشتركة بسبب دسائس أعدائه السياسيين . فبدلا من رجوعه الى "أثينا" ليحاكم على تهمة اهانة المقدسات ، ويحكم عليه حكما محققا بالاعدام ، فر الى "سبارتا" ونصح العدو بالكيفية التى بها يحبط الخطة التى كان هو واضعها . ثم ان "نيسياس" الذى كان معارضا لهذه الخطة أشد معارضة بقى متوليا القيادة لينفذها . فبدلا من تنفيذها سار بها الى مواطن التلف بعناده الأخرق .

ولما فقدت "أثينا" جيشها فى "سرقسطه" اتقت الهزيمة فى بلادها باستخدام أسطولها فاستمرت الحروب البحرية على أثر ذلك مدة تسع سنين أوشكت فيها "أثينا" أن تصل لا الى عقد صلح فيه ميزات لها فحسب ، بل الى استرجاع أمبراطوريتها .

على أن الأميرال "ليساندر" الأسبارتى خيب آمالها فى سنة ٤٠٥ ق.م. بما يشبه التمثيل المسرحى . وقد ورد عنه فى كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" أن "خطته فى هذه الحملة كانت تجنب القتال مع انهاك الأثينيين الى آخر درجة بمهاجمة أمبراطوريتهم فى أضعف نقطها" فالعبارة الأولى من هذه الجملة لا تنطبق على الحقيقة تماما . لأن خطته لم تكن الاندفاع الى المعركة بقدر ما هى اقتراب منها اقترابا غير مباشر حتى تبقى لديه الفرصة لأن تكون الميزة فى جانبه فلا يدخل المعركة حتى تتوافر لديه هذه الميزة . فأخذ يغير خط سيره تغييرا يشف عن مهارة ودهاء حتى وصل الى مدخل الدردنيل وهناك بقى مترصدا ينتظر قدوم سفن الغلال الآتية من آسيا الصغرى فى طريقها الى "أثينا" . "ولما كان تموين "أثينا" بالغلال مسألة حياة" فان القواد الأثينيين "أسرعوا بكامل أسطولهم المؤلف من ١٨٠ سفينة لحراسة سفن الغلال" وبقوا أربعة أيام متوالية يحاولون استدراج "ليساندر" الى معركة فلم يفلحوا فى حين كان هو يشجعهم بكل الوسائل على الظن أنهم قد سدوا فى وجهه الطريق . أما هم فبدلا من رجوعهم الى مينا "سستوس" الآمنة ليجددوا مؤنتهم فيها فانهم بقوا فى البوغاز المكشوف فى "إجوسپوتاموى" أمامه . وفى اليوم الخامس حينما نزل السواد الأعظم من رجال السفن الى البر لجمع الطعام ، خرج "ليساندر" على حين فجأة واستولى على كل الأسطول بوجه التقريب دون أن يضرب ضربة واحدة . وبذا "أنهى أطول الحروب فى ساعة واحدة من الزمن" .

ومجمل القول هو أنه فى هذا النضال الذى دام سبعا وعشرين سنة كان الفشل نصيب الاقتراب المباشر فى عشرينات من المرار وكان ينتهى عادة بأضرار تلحق الذين قاموا به . وأن كفة "براسيداس" فى هذا النضال رجحت كفة "أثينا" نهائيا بحركته التى وجهها الى "خالسيدس" التى هى "جذر" "أثينا" وأن أقوى ما كان من الأمل فى استرجاع "أثينا"

مكانتها كان فيما قام به "آلسيبادس" من الاقتراب غير المبـاشر — فى مستوى الاستراتيجية العظمى — من جذر "سپارتا" الاقتصادى فى "سيسليا" ثم ان الضربة القاضية التى جاءت بعد أن استطال أمد الحرب عشر سنين أخرى ، كانت باقتراب غير مباشر فى البحر هو فى ذاته نتيجة اقتراب جديد غير مباشر فى الاستراتيجية العظمى . لأن ممـا يجب ذكره هو أن هـذه الفرصة أوجدها تهديد خطوط مواصلات الأثينيين "القوميـة" — فان "ليساندر" باتخـاذه غرضا اقتصاديا جاز له أن يأمل أن يستنفد قوتهـم على أقل تقدير . ولمـا يهيج هائجهم ويستولى عليهم الخوف يبقى فى مقدوره أن يهيئ ظروفا تسهل فيها المفاجأة ، كما حصل فعلا ، وبهذه الوسيلة يحرز حسما عسكريا سريعا .

أما الطور التالى فى التاريخ الاغريقى فكان حلوله مع سقوط الأمبراطورية الأثينية وقيام "سپارتا" على رأس بلاد اليونان . وبناء على ذلك فالسؤال الثانى هو عن العامل الحاسم فى القضاء على زعامة "سپارتا" والجواب هو : رجل وما أداه لعلم وفن الحرب . ولكن فى السنين التى سبقت قيام "ايپامينونداس" مباشرة كانت "طيبـة" قد تخلصت من حكم "سپارتا" بالطريقة التى عرفت فيما بعد باسم "الفابيه" (نسبة الى موجدها فابيوس) وهى تجنب المعارك — وهى سياسة حربية تنطوى على الاقتراب غير المباشر ولكنهـا استراتيجية تهرب — بينما كانت جيوش "سپارتا" تتنقل فى بلاد "بويوتيا" ولا يعترضها أحد . فبهذه الطريقة أكسبتهم وقتا أوجدوا فيه قوة محترفة من نخبة الجنود اشتهرت باسم الجوقة المقدسة صارت فيما بعد فى مقدمة كل جنودهم . ولكن الوقت الذى تواجد كان فرصة لانتشار الشقاق بينهم ، "ولأثينا" بعد أن استراحت من الضغط عليها برا أن توجه فيها كل مجهودها ومواردها من الرجال الى اعادة احياء أسطولها . ففى سـنة ٣٧٤ رأى الاتحاد الأثينى الذى كانت طيبة داخلة فيه أن "سپارتا" راضية عن منحه صلحا ذا مزايا . ومع أن هذا الصلح لم يدم طويلا بسبب قيام "أثينا" بمغامرة بحرية فان مؤتمرا جديدا للصلح عقد بعـد ذلك بثلاث سنين وكان الأثينيون اذ ذاك قد ملوا الحروب . وفى هـذا المؤتمر استردت "سپارتا" كثيرا ممـا أضاعته فى ميادين الحرب ونجحت فى فصل طيبة عن حلفائها . وعلى أثر ذلك قامت "سپارتا" على طيبة لتسحقها . ومع أن جيشها كان متفوقا على جيش طيبة بحكم التقاليد تفوقا فى الكم والنوع (كان الأول يتألف من ١٠٠٠٠ والثـانى من ٦٠٠٠) فان الجيش الاسپارتى لمـا زحف الى داخل "بويوتيا" لاقاه جيش طيبة الجديد، الذى يعد مثالا للجيوش، فى "ليوكترا" وهزمه هزيمة حاسمة . وكان جيش طيبة تحت قيادة "ايپامينونداس" الذى قد تصح تسميته أعرق عبقرى فى التاريخ الحربى . فهو لم يشذ عن الطرائق التكتيكية التى قامت على تجاريب الأجيال ويخرج عنها خروجا بعيدا فحسب ، بل انه وضع أسس التكتيك ، والاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى كلهـا ، التى بنى عليها أساتذة الفن الذين أتوا بعده . حتى ان أشكاله

الانشائيـة ما زالت باقية الى الان أو انها تجددت واستعيدت . فان " الترتيب المـائل" فى التكتيك الذى حاز شهرته على يد " فردريك " انـ هو الا تعديل بسيط لطريقـة " ايبامينونداس " وهى قد نشأت فى معركة " ليوكترا " حينما عكس " ايبامينونداس " العادة المتبعة ولم يضع على جناحه الأيسر أحسن جنوده فحسب بل وضع أكثرهم . ثم أخر قلبـه وميمنته الضعيفين وأخذ يوجد تفوقا ساحقا على أحد جناحى العدو — وهو الجناح الموجود به قائده الذى يجعله مفتاح ارادة الخصم .

وبعد معركة " ليوكترا " بسنة واحدة قاد " ايبامينونداس" قوات الاتحاد " الاركادى" وسار بهـا الى "سپارتا" بالذات التى لم تطأها قدم عدو قبل ذلك الحين . وهذا السير الذى نفذ الى قلب شبه جزيرة " الپلوپونيز" التى هى ملك " لأسپارتا " لا ينازعها فيـه منازع كان ممتازا بكونه اقترابا غير مباشر من عدة أوجه . فقد حصل فى فصل الشتاء ، وبثلاثة قولات كل منها منفصل عن الآخرين لتتلاقى كلها فيما بعد . وبذا "تتشتت" أفكار القوات المقاومة ويرتبك اتجاهها .

وهذا وحده يكاد يكون فريدا فى بابه فى حروب الأزمنة الغابرة بل وفى الحروب التى سبقت الحروب النابليونية . على أن "ايبامينونداس" كان بعيد مرمى النظر الاستراتيجى الى درجة أكبر من ذلك . اذ بعد أن تجمعت قوته فى " كاريه " التى هى قبل " سپارتا " بمسافة ٢٠ ميلا تسلل بهـا دائرا حول العاصمة ثم زحف عليها من الخلف . فهـذه الحركة كانت تنطوى على ميزة أخرى مدبرة هى تمكين الغزاة من تعزيز قوتهم بأفواج كبـيرة من أرقاء الفلاحين وغيرهم من العناصر المنشقة فيضمونهـا اليهم . على أن الاسپارتيين بالرغم من ذلك وفقوا الى وقف هذه الحركة الداخلية الخطرة بأن وعدوا هذه العناصر بمنحها حريتها مدفوعين الى ذلك بحكم الضرورة المـاسة . ثم ان ورود امدادات قوية الى " سپارتا " من حلفائهـا " الپلوپونيزيين " خيب الأمل فى سقوط المدينة من غير محاصرتها . فتبين " لايبامنونداس " فى الحال ان استدراج الاسپارتيين الى الأرض الفضاء أمر متعذر ، وأن الحصار اذا طال أمره يكون سببا فى تدهور عدد جنوده الذين لم يكونوا متجانسين . وبناء على ذلك ضرب صفحا عن السلاح الاستراتيجى الذى أصبح كليلا واستعاض عنه بسلاح أحد منه وأكثر دهاء — هو سياسة حربية باقتراب غير مباشر ، أى استراتيجية عظمى حقا . فما كان منه الا أن أسس مدينة فى جبل "ايثوم" الذى هو قلعة طبيعية فى "مسينا" وجعلها عاصمة لدولة "مسينا الجديدة" ووطن فيها كل العناصر الثائرة التى كانت انضمت اليه ثم وهبها الغنائم التى كان غنمها أثنـاء غزوه . فأصبحت هـذه الدولة الحديثة حاجزا أمام "سپارتا" وقوة توازنها فى جنوب بلاد اليونان . ولمـا توطدت وثبتت فقدت "سـپارتا" نصف أراضيها وأكثر من نصف أرقاء فلاحيها . ولمـا أسس "ميغالوبولس" بعد ذلك فى "أركاديا" وجعلها حاجزا آخر أصبحت

"سپارتا" محصورة سياسيا من جهة، وداخل سلسلة من القلاع من الجهة الأخرى فانفصلت عنها جذورها الاقتصادية التى كانت تغذى تفوقها الحربى . ولما بارح "ايپامينونداس" بلاد البلوپونيز بعد الحملة الحربية التى دامت بضعة أشهر لاغير كان لم يكتسب نصرا عسكريا . ولكن كانت سياسته الحربية قد زعزعت أسس قوة "سپارتا" تماما .

غير أن رجال طيبة السياسيين كانوا يريدون نجاحا عسكريا مدمرا وقد أغضبهم عدم الحصول على ما أرادوا . وأعقب ذلك عزل "ايپامينونداس" ولو الى حين . فكان عزله مجلبة لضياع المزايا التى كسبها لها . وذلك بقصر نظر السياسة التى اتبعتها ديموقراطية طيبة وما وقعت فيه من الأخطاء . وبذا أصبح فى مقدور حلفاء طيبة الاركاديين أن ينازعوها الزعامة بعد أن دفعهم الغرور والطمع الى نكران الجميل . وفى سنة ٣٦٢ أرغمت طيبة على الخيار بين أحد أمرين : اما تأييد سلطتها بالقوة . واما تضحية نفوذها . فلما تحركت ضد "أركاديا" انقسمت دول اليونان من جديد الى كتلتين مؤتلفتين . ولحسن حظ طيبة كان "ايپامينونداس" حاضرا لخدمتها وليس ذلك فحسب . بل كانت هناك ثمار استراتيجيته العظمى — فان "مسينا" و"ميغالوپولس" اللتين أوجدهما من العدم ساهمتا لا كحاجز فقط ، بل كانتا قوة فى جانب طيبة . فسار "ايپامينونداس" الى داخل البلوپونيز والتقى بحلفائه البلوپونيزيين فى "تيجيه" فأصبح بين "سپارتا" والقوات الرئيسية للحلفاء المعادين لطيبة التى كانت قد احتشدت فى "مانتينيه" . أما الاسبارتيون فانهم ساروا على طريق ملتف ليلحقوا بحلفائهم . فما كان من "ايپامينونداس" الا أن وثب على "سپارتا" نفسها ليلا بقول طيار على حين بغتة . ولم يحل بينه وبين غرضه الا أن أحد الفارين أنذر الاسپارتيين فى وقت كاف فأسرعوا راجعين الى مدينتهم . وعند ذلك صمم على أن يشتبك فى معركة ينال فيها الحسم . وزحف من "تيجيه" على "مانتينيه" التى تبعد نحو ١٢ ميلا على طول واد يشبه زجاجة الساعة فى شكله . وكان العدو متخذا موقعا قويا فى «الوسط» الذى كان اتساعه ميلا واحدا .

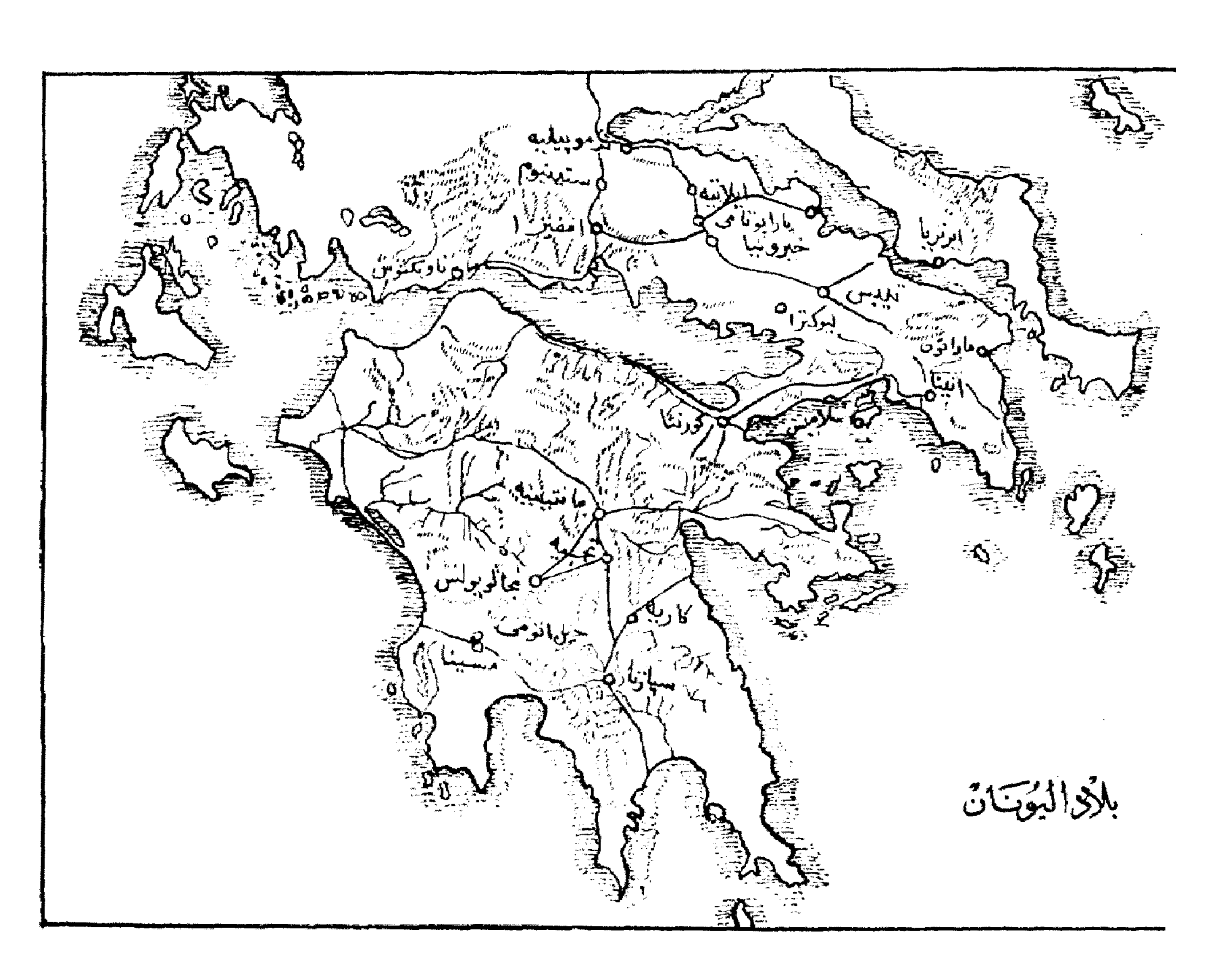
وحينما زحف صرنا على الخط أى الحد الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك . على أن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك فى هذه الحالة فصلا تحكميا يعد خطأ ، خصوصا وأن الأسباب المباشرة لانتصاره كانت فى اقترابه من العدو حتى يتصل به فعلا ، اقترابا غير مباشر . ففى بادئ الأمر سار "ايپامينونداس" نحو معسكر العدو مباشرة ، فاضطره الى الاصطفاف للقتال متجها نحو خط اقترابه — وهو خط الانتظار الطبيعى . ولكن بعد أن تقدم عدة أميال غير اتجاهه فجأة الى اليسار ثم دار الى الداخل تحت هضبة بارزة . فهذه المناورة الفجائية هددت ميمنة العدو بضرب جانبى . ولكى يزيد زحزحة أوضاع قتال العدو ، وقف وأمر جنوده بالقاء السلاح على الأرض كما لو كانوا يتأهبون لنصب المعسكر . وقد نجحت هذه الخدعة . فان العدو أغرى على التراخى فى مصف قتاله وأتاح للجنود ترك الصفوف ونزع الألجمة من الخيول .

وفى نفس الوقت كان "ايبامينونداس" يكمل أوضاع قتاله فعلا — وكانت تشبه أوضاع معركة "ليوكترا" ولكنها أرقى منها — وراء ستار من الجنود الخفيفة . و بعد ذلك أعطيت إشارة الى الجيش الطيبى فالتقط أسلحته واندفع نحو العدو — الى نصر سبق ضمانه بزحزحة موازنة العدو . ولكن لسوء الحظ سقط "ايبامينونداس" نفسه قتيلا فى لحظة الانتصار . وقد كان موته درسا للأجيال اللاحقة ليس هو أقل الدروس التى تلقتها عنه . اذ أثبت اثباتا مسرحيا مقنعا أن أسرع مايكون سقوط الجيش أو الدولة انما هو بشلل يصيب المخ .

وجاءت الحملة الحاسمة التالية بعد ذلك بما ينوف على عشرين سنة . وهى الحملة التى مكنت "مقدونيا" من الزعامة اليونانية . ومما يزيد أهمية هذه الحملة ما انتهت اليه من النتائج الخطيرة . فهى مثال يبين كيف تستطيع السياسة والاستراتيجية مساعدة احداهما الأخرى . ثم كيف تستطيع الاستراتيجية قلب الموانع الطبوغرافية وتحويلها من عيوب تعترضها الى مزايا تنتفع بها . والمتحدى فى هذه الحملة وان كان هو نفسه إغريقيا الا أنه كان «أجنبيا» فى حين أن "طيبة" و "أثينا" اتحدتا لتوجدا حلفا للجامعة اليونانية لمقاومة قوة "فيليب" المقدونى الآخذة فى الازدياد بموازرة أجنبى هو أحد ملوك الفرس — وفى ذلك من الغرابة مافيه من وجهة التاريخ العتيق والطبيعة البشرية . وهنا أيضا نجد أن المتحدى هو الذى أدرك قيمة الاقتراب غير المباشر . حتى ان العلة التى تعلل بها فى مسعاه لنيل الزعامة كانت هى أيضا غير مباشرة . فان المجلس الانفكتيونى (مجلس ملى يونانى) استدعاه ليساعد فى معاقبة "امفيزا" فى "بو يوتيا الغربية" على جناية اهانة المقدسات . ومن المحتمل أن فيليب نفسه هو الذى أوعز بهذه الدعوة التى تألب عليه من جرائها كل من "طيبة" و"أثينا". ولكنه كان متأكدا من التزام الدول الأخرى الحياد المقرون بالعطف على أقل تقدير .

فبعد أن سار "فيليب" متجها نحو الجنوب تحول بغأة فى "سيتينيوم" عن الطريق المؤدية الى "امفيزا" — أى خط الانتظار الطبيعى واحتل "ايلاتيه" ثم حصنها . وهو تغيير مبدئى دل على مايرمى اليه من التوسع فى الأغراض السياسية ولكنه يشف أيضا عن غرض استراتيجى تؤيده هذه الحادثة . أما الطيبيون والبو يوتيون فانهم سدوا الممرين المؤديين الى "بو يوتيا" . الطريق الغربى الموصل من "سيتينيوم" الى "امفيزا" والممر الشرقى وهو ممر "باراپوتامى" الموصل من "ايلاتيه" الى "خارونيه" . أما الطريق الأول فيصح تشبيهه بالشرطة العليا من حرف L والطريق من "سيتينيوم" الى "ايلاتيه" يشبه الشرطة السفلى . والامتداد القاطع للممر الى "خارونيه" يشبه الشرطة الصغيرة التى ينتهى بها الحرف من الشرطة السفلى .

ثم ان "فيليب" قبل أن يبدأ بحركة عسكرية أخرى اتخذ التدابير ليزيد معارضيه ضعفا ، من الوجهة السياسية بأن عضد اعادة الجاليات الفوشية ، التى كان الطيبيون قد شتتوها ، الى أماكنها . ومن الوجهة الأدبية بأن حرض على المناداة به نصيرا لاله "دلفى" .



موبيليه
ستيمنوم
امفيزا
البلاتيه
بارابوتامي
خيرونيا
ابرتريا
تيبس
ليوكترا
ماراتون
اثينا
كورنثا
مانتينيه
سلامس
ميغالوبولس
كاريا
مسينا
سبارتا
بلاد اليونان

وبعد ذلك وثب وثبة فجائية فى ربيع سنة ٣٣٨ ق . م . بعد أن مهد طريقه بخدعة . ذلك أن باحتلاله "ايلاتيه" كان قد حوّل التفات العدو من الوجهة الاستراتيجية نحو الطريق الشرقى — الذى هو الآن خط الانتظار الطبيعى — ثم انه حوّل التفات القوّة التى سدت الطريق الغربى، من الوجهة التكتيكية، بأن دبر كتابا تكلم فيه عن عودته سريعا الى "طراقية" وجعله يقع فى يد هــذه القوّة . وبعد ذلك تحرك من "سيتينيوم" بسرعة واجتاز الممر ليلا ثم خرج فى قلب "بويوتيا" الغربية فى "امفيزا". وتمادى فى السير حتى وصل الى "ناوپكتوس" وفيها فتح مواصلاته عن طريق البحر . فأصبح والحالة هــذه وراء المدافعين عن الممر الشرقى وان كان بعيدا عنهم. أما هم فلما رأوا ذلك رجعوا متقهقرين من "پاراپوتامى". لاخوفا من قطع خط رجعتهم اذا هم بقوا فى مكانهم فحسب ، ولكن أيضا لأن بقاءهم فيه ليس له قيمة ظاهرة . على أن فيليب تحوّل مرة أخرى عن خط الانتظار وقام باقتراب آخر غير مباشر . فانه بدلا من أن يتمادى فى الضغط نحو الشرق من "امفيزا" مجتازا البلاد الجبلية التى تساعد على المقاومة، حوّل جيشه ورجع به مجتازا "سيتينيوم" و"ايلاتيه" ثم دار نحو الجنوب مجتازا ممر "پاراپوتامى" الذى أصبح الآن بغير حراسة وانقض على جيش العدو فى "خارونيه" . فكان انتصاره التكتيكى نتيجة طبيعية وتأسست الزعامة المقدونية فى بلاد اليونان .

على أن الأجل وافاه قبل أن يصل بهذه الزعامة الى آسيا وكان من نصيب ابنه اسكندر أن يخرج الحملة التى نواها والده من حيز الفكر الى حيز الوجود . ولم يقتصر ماورثه الاسكندر عن والده على خطة وآلة تعد نموذجا — هو الجيش الذى رقاه فيليب — فحسب . بل ورث أيضا فكرة الاستراتيجية العظمى . وهناك ميراث آخر له قيمة مادية لاتنكر هو امتلاك رؤوس جسور (كبارى) الدردنيل التى حصل الاستيلاء عليها بارشاد فيليب فى سنة ٣٣٦ ق.م. ولو أننا درسنا خريطة تبين زحف الاسكندر لوجدناها عبارة عن سلسلة من خطوط منكسرة حادة الزوايا. ودراسة تاريخ هذه التعاريج تبين أن لها أسبابا أبعد غورا من الحساب اللوجستيكى (الخاص بحركات الجيوش وتموينها) . نعم ان الاستراتيجية اللوجستيكية هى استراتيجية مباشرة لادهاء فيها . والسبب فى ذلك على مايظهر هو أولا أن الاسكندر فى شبابه وبحكم تربيته فى أبهة الملك كان نموذجا للبطل الهوميرى (نسبة الى هومير الشاعر المشهور) أكثر من غيره من كبار قادة التاريخ . وربما زاد على ذلك أنه كان يثق من تفوق آلته (أى جيشه) ، ويحق له ذلك، ومن مقدرته على خوض غمار المعارك به الى درجة أنه لم يجد نفسه فى حاجة الى البدء بزحزحة موازنة خصمه الاستراتيجية. أما ماتركه للأجيال اللاحقة من الدروس فينحصر فى شيئين هما السياسة الحربية والتكتيك .

فقد ابتدأ من الشاطئ الشرقى لبوغاز الدردنيل بالتحرك جنوبا وهزم الجنود الفارسية الساترة التى كانت على نهر "الجرانسيكوس" حيث كان العدو يقدر حق التقدير أنه اذا تمكن من الاحتشاد أمام الاسكندر الذى تجاوز حد الجراءة وقتله فانه يشل حركة الغزو فى منشأها . ولكنه أخفق فى ذلك بشىء يسير .

و بعدذلك تحرك جنوبا قاصدا "ساردیس" بصفتها مفتاح "ليديا" السياسى والاقتصادى . ومن ثم تحرك غربا الى "ايفيسوس" وأعاد الى تلك المدائن الاغريقية حكوماتها وحقوقها الديموقراطية كوسيلة يؤمن بها خط رجعته بأفضل الطرق الاقتصادية .

وكان الآن قد عاد الى شاطئ البحر الايجى " شرق البحر الأبيض المتوسط" فاتخذ سبيله الى الجنوب أولا ثم اتجه شرقا على طول الشاطئ مارا "بكاريا" ، "وليسيا" ، "وپامفيليا" . وهو فى اقترابه جعل غرضه زحزحة حاكمية الفرس عن البحر بحرمان الأسطول الفارسى من حرية الحركة فيه وذلك بحرمانه من قواعده البحرية . وفى نفس الوقت فانه بتحريره هذه الموانى يحرم أسطول العدو من كثير من موارد رجاله الذين كانوا يجندون منها .

أما فيما وراء "پامفيليا" فكان باقى خط سواحل آسيا الصغرى مجردا فعلا من الموانى . ولذلك فانه اتجه الآن الى الشمال ثانيا حتى "فريجيا" وشرقا حتى "انقيرا" (أنقرا الحديثة) مواطدا مراكزه ومؤمنا خط رجعته فى وسط آسيا الصغرى . وبعد ذلك اتجه نحو الجنوب مجتازا "بوابات" "سليسيا" على الطريق المؤدى الى "سوريا" مباشرة حيث كان "داريوس" (دارا) يحشد جنوده لمقاومته . وهنالك نظرا لعجز خدمة الاستعلامات (المخابرات) عنده ، وافتراضه أن الفرس ينتظرونه فى السهول ، تفوق الفرس على الاسكندر فى المناورات الاستراتيجية . فبينما قام الاسكندر باقتراب مباشر قام "داريوس" باقتراب غير مباشر وبعد أن تحركوا على أعالى نهر الفرات اجتازوا البوابات "الأمانيكية" وانقضوا على مؤخرة الاسكندر . فوجد الاسكندر نفسه منقطعا عن سلسلة قواعده مع أنه كان حريصا على سلامتها . على أنه عاد فرجع وخلص نفسه فى معركة "ايسوس" بتفوقه التكتيكى وآلته التكتيكية . واستخدم الاقتراب غير المباشر فى تكتيكاته أكثر من أى قائد من كبار القادة . وبعد ذلك عاد واتخذ طريقا غير مباشر منحدرا على ساحل سوريا بدلا من تماديه فى السير الى بابل التى هى قلب الدولة الفارسية . وكان ذلك طبقا لأصول الاستراتيجية العظمى لأنه وان كان قد زحزح حاكمية الفرس على البحر الا أنه لم يكن قد أبادها بعد . وما دامت باقية فلا يبعد أن تكون وسيلة للاقتراب من خط رجعته اقترابا غير مباشر . وهنا صارت بلاد اليونان وخصوصا "أثينا" فى قلق شديد . ثم ان زحفه فى قلب "فينيقيا" شتت الأسطول الفارسى وما تبقى منه كان أغلبه فينيقيا . فقد أتى له القسم الأعظم منه مستسلما . أما القسم الصورى فقد أخذ فى سقوط مدينة "صور" . وحتى فى ذلك الحين عاد فتحرك نحو الجنوب ودخل مصر . وهى حركة صعبة التفسير لأسباب بحرية ، الا اذا كان الباعث عليها زيادة الحيطة . على أنها

مفهومة فى ضوء أغراضه السياسية التى هى احتلال الامبراطورية الفارسية وتوطيد امبراطوريته مكانها . فمن هذه الوجهة كان فى احتلال مصر ميزة اقتصادية عظيمة . وأخيرا عاد فسار نحو الشمال مرة أخرى الى حلب ومنها اتجه شرقا واقترب اقترابا مباشرا من الجيش الحديث الذى جمعه داريوس بالقرب من الموصل . وهنا برهن الاسكندر وجيشه مرة أخرى فى "جوجاميلا" على تفوقهم تماما على جيش هو فى اعتبار أقل العوائق التى تعترض الاسكندر فى طريقه الى غايته التى يرمى اليها فى " استراتيجيته العظمى " . وأعقب ذلك احتلال "بابل" . أما حملات الاسكندر التالية التى كللت بالنجاح الى أن وصل الى حدود الهند فكانت من الوجهة العسكرية بمثابة "تشطيب" الامبراطورية الفارسية . وان كانت من الوجهة السياسية توطيدا لامبراطوريته . على أنه اجتاز غصبا المضيق "الأوكسيانى" وبوابات بلاد الفرس باقتراب غير مباشر ولما لاقاه "بوراس" (أمير وعاهل هندى) على نهر "الهداسبس" أظهر من الخدعة منتهاها ، جاءت برهانا ساطعا على مبلغ ما كان له من المقدرة الاستراتيجية . وهى أنه خزن غلالا فى أماكن متفرقة على طول الشاطئ الغربى لهذا النهر ووزع عليها جيشه فغافل خصمه حتى غم عليه ما ينويه الاسكندر . ثم أخذت فرسان الاسكندر تسير ذهابا وجيئة بجلبة وضوضاء حتى ارتاع لها "بوراس" فى بادئ الأمر . ولكنها لما استمرت على ذلك مرارا وتكرارا تضاءل أمرها فى فكره بحكم الاعتياد وسكن اليها واستنام لها . وبعد أن استقر "بوراس" على هذه الحالة ترك الاسكندر السواد الأعظم من جيشه أمامه (بوراس) ثم عبر النهر هو بنفسه على مسافة ١٨ ميلا صعودا على مجراه . وبمفاجأته بهذا الاقتراب غير المباشر أخل توازنه العقلى والأدبى ، وتوازن جيشه الأدبى والجسمانى . وبهذه الوسيلة تمكن الاسكندر بجزء من جيشه أن يهزم كل أعدائه بوجه التقريب ، فى المعركة التى نشبت على أثر هذه الحركة . فلولا هذه القلقلة التى حصلت على المنوال السالف الذكر ، لما كان هناك مبرر يبرر تعريض الاسكندر لجزء صغير من جيشه للهزيمة وهو منفصل عن بقية الجيش ، سواء من الوجهة النظرية أو من الوجهة العملية .

وفى الحروب الطويلة التى شنها "خلفاء" الاسكندر بعد موته ، وهى الحروب التى مزقت امبراطوريته أمثلة عديدة للاقتراب غير المباشر لأن قواده كانوا أكفأ من مارشالية نابليون . ثم ان ما اكتسبوه من المراس أدى بهم الى ادراك المعنى الحقيقى للاقتصاد فى القوة . ولكن مراعاة للانصاف قد اقتصر هذا التحليل على الحملات الحربية الحاسمة التى وقعت فى التاريخ العتيق . فهذه الحروب ليس فيها ما يصح تسميته حاسما بصورة قطعية الا الحرب الأخيرة منها التى كانت فى سنة ٣٠١ ق . م . فان حاسميتها لا نزاع فيها . لأنها بحسب ما جاء عنها فى كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" من القول الموزون كانت "خاتمة النضال بين القوة المركزية والعائلات الحاكمة" فأصبح "تقسيم العالم الأغريقى ـ المقدونى أمرا لا مفر منه" .

فما حلت سنة ٣٠٢ ق . م . حتى أوشك "أنتيجونوس" المطالب بالحلول محل الاسكندر، أن يبلغ غايته فى نهاية الامر التى هى ضمان الامبراطورية لنفسه . فانه بتوسعه فى ضم البلاد ابتداء من ولايته الأصلية "فريجيا" أصبحت له السيطرة على "آسيا" من البحر الايجى الى نهر الفرات . وكان "سليوكس" فى مقاومته له يجد صعوبة فى محافظته على "بابل" . أما "بتولومى" (بطليموس) فانه خرج من الغنيمة بمصر لا غير . وأما "ليسيما كوس" فقد كان مركزه فى "طراقية" أكثر توطيدا . ولكن "كاساندر" الذى هو أقوى القواد المنافسين "لانتيجونوس" وعماد المقاومة لحلمه الذى كاد أن يتحقق كان قد طرده من بلاد اليونان "ديمتريوس" ابن "أنتيجونوس" الذى كان ثانيا لاسكندر فى كثير من خصاله . واذا كان "كاسندر" بصفته مؤسس "سلانيك" لا يلقى احتراما من الجنود البريطانيين فان استراتيجيته تدعو الى الاعجاب وان كان ذوقه على العكس لا يستحق اعجابا . فانه لما طلب منه التسليم بغير قيد ولا شرط رد على هذا الطلب بضربة استراتيجية عبقرية . وضعت خطتها فى مؤتمر عقد مع "ليسيما كوس" وطلب العون فيها من "بتولومى" . بينما هو بدوره اتصل "بسليوكس" بأن كان يراسله بواسطة رسل يسافرون فوق ظهور الابل عبر صحراء العرب .

فلم يبق "كاساندر" معه الا ٣١,٠٠٠ جندى ليلاقى بها غزو "ديمتريوس" "لتساليا" بجند بلغ عدده ٥٧,٠٠٠ — ثم أعار بقية جيشه "لليسيما كوس" . فقام هذا الأخير وعبر بوغاز "الدردنيل" بينما تحرك "سليوكس" غربا نحو آسيا الصغرى بجيش معه ٥٠٠ فيل من فيلة الحرب أتته من الهند . ثم تحرك "بتولومى" شمالا الى "سوريا" ولكن لما بلغه خبر كاذب بأن "ليسيما كوس" قد انهزم عاد الى مصر . ومع ذلك فان الزحف الاتى من الجانبين الى قلب امبراطورية "أنتيجونوس" ألجأه لأن يستدعى "ديمتريوس" من "تساليا" على جناح السرعة حيث كان "كاساندر" قد نجح فى إعاقة تقدمه وأوقفه أمامه الى أن كانت الحركة غير المباشرة الموجهة الى رجعته الاستراتيجية فى آسيا الصغرى فاضطرته الى الرجوع — كما حصل فى حركة "سبيو" فيما بعد التى كانت على مثل هذا الأساس فاضطرت "هانبال" للعودة الى أفريقيا . وفى معركة "أبسوس" فى ولاية "فريجيا" انتهت استراتيجية "كاساندر" بنصر تكتيكى حاسم كانت خاتمته موت "أنتيجونوس" وفرار "ديمتريوس" . ومما هو جدير بالذكر أن فى هذه المعركة كانت أفيال الحرب هى الوسيلة الحاسمة . و بمناسبة ذلك كانت تكتيكات المنتصر غير مباشرة فى جوهرها . ففى بدء الحملة كانت كفة "أنتيجيوس" راجحة رجحانا تاما . ومن النادر انقلاب طالع الحرب من جانب الى آخر بهذه الكيفية . وسبب ذلك الذى لا شك فيه هو أن اقتراب "كاساندر" غير المباشر قد قلب موازنة "أنتيجونوس" رأسا على عقب . وذلك زعزع توازن "أنتيجيوس" العقلى وتوازن جنوده ورعاياه الأدبى ، وتوازن أوضاعه الحربية المادى .

الباب الثالث

حروب الرومان

هانبال ، سپيو ، وسيزار

والنضال التالى الذى كان حاسما فى نتائجه وفى أثره فى التاريخ الأوربى هو النضال الذى قام بين روما وقرطاجنة . والفترة الحاسمة فيه كانت فترة الحرب الهانبالية أى الحرب القارطاجية الثانية . وهى تنقسم الى عدة أطوار ، أى حملات حربية ، كل منها كان حاسما فى تحويل سير الحرب الى مجرى جديد . والأخير منها كان حاسما ليس للحرب بأجمعها فقط . بل فى تحويل كل مجرى التاريخ الأوربى . فالطور الأول يبدأ بزحف هانبال من أسبانيا متجها نحو جبال الألب وايطاليا ، و يظهر أن خاتمته الطبيعية كانت النصر الساحق المبيد الذى تم فى "ترازيمين" وترك روما ولا وقاية لها سوى أسوارها وحاميتها وهما معرضين لاقتراب هانبال منهما مباشرة لو أنه اختار ذلك .

والسبب الذى يعزوه الجميع لاختيار هانبال من بادئ الأمر لهذا الطريق البرى الملتف الشاق ، مفضلا اياه على الطريق البحرى المستقيم هو على ما يقال "سيادة البحر" المزعومة لروما . على أن من السخف تطبيق التفسير الحديث لهذه العبارة على عصر كانت فيه السفن فى حالتها الأولية وكانت مقدرتها على معارضة العدو فى عرض البحر والتصدى له أمرا مشكوكا فيه . بل حتى فى أيامنا هذه ما زالت مثل هذه "السيادة" مقيدة بحدود ظاهرة . وفوق ذلك فان هناك دليلا ذا قيمة هو فقرة فى كتاب "پوليبيوس" تلق شيئا من الضوء على نفس ذلك العصر الذى وقعت فيه معركة "ترازيمين" . اذ يقول مشيرا الى قلق مجلس السناتو الرومانى لئلا يتمكن القرطاجيون "من احراز سيادة على البحر أتم من سيادتهم الحالية" . وحتى فى المرحلة الختامية من الحرب بعد أن أحرز الرومانيون النصر عدة مرات فى البحر وحرموا الأسطول القرطاجى من كل قواعده الأساسية ، ثم استقروا فى أفريقيا كانوا عاجزين عن منع "ماجو" من انزال تجريدة حربية الى البر فى "رفييرة جنوا" ، أو الحيلولة دون اقلاع هانبال فى سكون عائدا الى أفريقيا .

وأغلب الاحتمال على ما يظهر هو أن اتخاذ هانبال طريقا بريا لغزوه ، غير مباشر وملتو ، كان بقصد تأليب أقوام "السلت" القاطنين بايطاليا الشمالية على روما . ثم لابد لنا من ملاحظة عدم المباشرة ، أى صفة المداورة المتوفرة حتى فى هذا السير البرى من الوجهة الجغرافية

والمزايا الناشئة عنها. فان الرومان كانوا قد ارسلوا القنصل "پوبليوس سبيو" والد "افريقانوس" الى "مرسيليا" قصد سد الطريق فى وجه هانبال على نهر "الرون" . مع أن هانبال لم يقتصر على عبور هذا النهر الهائل فى مكان بعيد صعدا على مجراه ، على غير انتظار ، بل انه اتجه بعد ذلك متوغلا نحو الشمال أكثر مما كان ليسلك الطريق المتطرف الشاق الكائن بوادى "الايزير" بدلا من الطرق الأخرى الكائنة "بالرفييرا" التى هى أكثر استقامة ولكنها سهلة الايصاد. ولما وصل "سبيو" الى معبر النهر بعد ذلك بثلاثة أيام "اندهش لما علم أن العدو قد غادره لأنه كان مقتنعا أنه (أى العدو) يستحيل عليه أن يجازف بسلوك هذا الطريق الى داخل ايطاليا. فاتخذ قرارا عاجلا وأسرع بالحركة بعد أن ترك قسما من جيشه هناك ، وعاد الى ايطاليا بطريق البحر فى الميعاد الذى يلتقى فيه بهانبال فى سهول "لومبارديا" على أن هـذه السهول كانت بها ميزة لهانبال لملائمة أراضيها لحركات فرسانه الذين كانوا متفوقين على عدوهم. وعلى أثر ذلك جاء النصر فى معركتى نهرى "التسينوس" و "التربيا" وكان لها تأثير أدبى أدى الى امداد هانبال بالمجندين والمؤن " بكثرة عظيمة " . ولما أصبح هانبال سيدا على ايطاليا الشمالية قضى فيها فصل الشتاء . وفى الربيع التالى سار القنصلان الجديدان بجيشيهما أحدهما الى "ارمينوم" (رميني) على بحر الأدرياتيك ، والآخر الى "آريتيوم" (ارتزو) فى "اتروريا" ليسبقا هانبال فى زحفه المتمادى — وبذا تحكم أولهما فى الطريق الشرقى والثانى فى الطريق الغربى ، وهما الطريقان اللذان يستطيع هانبال أن يسلكهما فى زحفه نحو روما . وقر قرار هانبال على سلوك طريق "اتروريا" ولكنه بدلا من سلوك أحد الطرق المعتادة أخذ يستقصى استقصاء تاما "وتحقق من أن الطرق الأخرى المؤدية الى "اتروريا" طويلة ومعلومة جيدا لدى العدو. ولكن هناك واحدا منها قصيرا يخترق المستنقعات وهو يؤدى الى الانقضاض على "فلامنيوس" بغتة. وهذا هو الذى يوافق عبقريته الفذة فصمم على سلوك هذا الطريق. ولكن لما انتشر الخبر فى جيشه أن القائد سيجتاز به المستنقعات داخل كل جنوده الفزع ... ..." فالجنود العاديون يفضلون المعلوم على المجهول. أما هانبال فكان قائدا فوق المعتاد ومن ثم فانه حذا حذو كبار القادة واختار مواجهة أشد الظروف خطرا بدلا من الأمر المؤكد وهو ملاقاة العدو فى وضع يكون هو قد اختاره لنفسه .

فسار جيش هانبال أربعة أيام وثلاث ليال "فى طريق يغمره الماء" متكبدا مشاقا مضنية من التعب وعدم النوم ، وخسائر كبيرة فى الرجال وأكثر منها فى الخيل . على أنه لما برز الى اليبس وجد الجيش الرومانى معسكرا فى "آريتيوم" فى حالة استسلام. أما هانبال فانه لم يحاول أن يهجم هجوما مباشرا بل انه كما قال "پوليبيوس" "قدر أنه اذا مر على المعسكر وهبط الى الجهة الواقعة وراءه فان "فلامنيوس" خشية من لوم الرأى العام من جهة ، وبدافع حنقه الشخصى من جهة أخرى لا يستطيع الصبر على رؤية الخراب يحل بالبلاد وهو لا يبدى حراكا فيقتفى أثره طائعا مختارا" وهنا نجد تطبيقا عقليا للمناورة على مؤخرة العدو. وهو تطبيق قائم على فحص دقيق

عما يتصف به العـدو من الأخلاق . وقد اعقبه تنفيذ مادى . لان هانبال بعـد أن أمعن فى السير على طريق روما نصب ونفذ أعظم كمين عرفه التاريخ . ففى دغش بجر اليوم التـالى بينما كان الجيش الرومانى مجدا فى تعقبه على طول أطراف بحيرة "تراز يمين" المحفوفة بالتلال وقع فى شرك نصب له من الأمام والخلف وأبيد عن آخره . وقراء التاريخ كلهم يذكرون هذا الانتصار ولكنهم عرضة لأن يغفلوا الطعنة أو الضربة العقلية التى صيرته من الممكنات .

على أن "بوليبيوس" وان كانت تنقصه تجاربنا التى مارسناها أكثر من ألفى سنة واستفدنا منها فانه استخرج العبرة الصحيحة حيث قال : "لأن السفينة اذا جردتها من مديردفتها تسقط فى يد العدو بكل نوتيتها . وكذلك الجيش فى الحرب اذا تفوقت على قائده فى الدهاء أو فى المناورة فانه يسقط بأجمعه فى يديك" .

والآن نقبل على الطور الثانى من الحرب . أما السبب فى عدم سير هانبال الى روما عقب معركة "تراز يمين" فهو من خفايا التاريخ . وكل حل لهذا اللغز لا يخرج عن كونه مجرد تخمين . وكل ما هو معلوم بالتأكيد أن هانبال قضى السنين التى أعقبت هـذه المعركة فى محاولة قطع الصلات التى تربط سلطة روما بحلفائها الايطاليين وادماجهم فى ائتلاف يقوم ضدها . أما الانتصارات فكانت مجرد حافز أدبى يرمى الى هذه الغاية . فالمزايا التكتيكية مؤكدة له دائمـا متى أمكنه استدراج عدوه الى معركة فى ظروف ملائمة لفرسانه المتفوقين .

وهـذا الطور يبتدئ بصورة رومانيـة ، للاقتراب غير المباشر ، ومن الغريب أنهـا غير رومانية . وهى صورة أورثت التاريخ ، وما أعقبها من التقليد الذى كان الكثير منه رديئا ، عنوانا لضرب من الاستراتيجية يسمى "الاستراتيجية الفابية" . وان كانت فى الواقع سياسـة حربية ، لا استراتيجية . فسياسـة "فابيوس" الحربية لم تقتصر على تجنب المعارك لكسب الوقت ، ولكنها كانت تقاس بتأثيرها على قوة العدو الأدبية ، وبدرجة أكثر من ذلك على حلفائه المحتملين . فقد كانت اقترابا عسكريا غير مباشر يرمى الى غاية سياسية بدلا من غاية حربية . لان "فابيوس" قد أدرك تفوق هانبال من الوجهة الحربية بدرجة لا يجازف معها بالاحتكام الى المعارك للفصل والبت . وهو فى الحين الذى كان فيه يتحاشى ذلك كان يرمى الى انهاك صـبر العدو وجلده بطريقة وخزالابر عسكريا ، وفى نفس الوقت يمنعه من تجديد قوته بالتجنيد من المدن الايطالية أو من قاعدته القرطاجية .

والحالة التى كانت تعتبر مفتاحا للاستراتيجية المنفذة لهذه السياسة الحربية هى أن الرومان يلتزمون دائمـا التلال فيضيعون على هانبال ميزة تفوق فرسانه الذى لا شك فيه و يبطلون عملها . وعلى ذلك أصبح هذا الطرز عبارة عن مشادة بين هانبال وصور الاقتراب الفابى غير المباشر . ففى ذات مرة أفلح هانبال فى اسـتدراج أعدائه الى معركة فى السهل أمام "كانه" وجاءت

نتيجتها مشبعة لشهية مجلس السناتو والقواد الذين هم أكثر ميلا للمعارك من "فابيوس" الى حد التخمة . أما فيما عدا هـذه المعركة فان عزيمة روما التى لم تحول عن استراتيجية التفادى من المعارك مهما كانت التضحية ، وظروف ذلك العصر ، وضعف هانبال نسبيا وموقفه بصفته غازيا — لبلاد كان تنظيمها ما يزال فى حالة أولية — كل ذلك قد خيب آماله ومراميه . ولما قام "سپيو" فيما بعد بمقابلة أعمال هانبال بالمثل وغزى قرطاجة غزوا مضادا ، وجد فى رقى النظام الاقتصادى القرطاجى وما بلغه من التطور عونا لمقاصده .

وينتهى الطور الثانى بطراز آخر من الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . وذلك حينما خدع القنصل " نيرو " هانبال الذى هو أستاذ الخداع وتسلل من أمامه وأسرع فى السير ، سيرا جبريا ، ثم حشد جنوده أمام " هزدروبال " " الشريك الجديد " الذى كان قد وصل فى ذلك الحين الى ايطاليا الشمالية بجيشه . وبعـد أن أباده على نهر " الميتاوورس " ، وأباد معه آمال هانبال فى النصر الأخير ، عاد بالثانى الى معسكره أمام هانبال قبل أن يدرك هانبال أن المعسكر كان خاليا . وبعد ذلك أصبح مركز هانبال فى ايطاليا فى منتهى الحروجة وسدت فى وجهه كل السبل (مثل الشاه فى لعبة الشطرنج فى حالة " مات ") — وهذا هو الطور الثالث . فبقى طوال خمس سنين فى ايطاليا الجنوبية لا يستطيع أن يتقدم من مكانه . وأخذ قواد الرومان يتبادلون قتاله على التوالى ويرتد الواحد منهم بعد الآخر وهو يضمد جراحه التى أصابته من جراء اقترابه من عرين الأسد اقترابا مباشرا .

غير أنه فى نفس ذلك الوقت كان " بوبليوس سپيو " الأصغر قد أرسل الى اسبانيا فى مغامرة شاقة ليأخذ ثأر الكارثة التى نزلت بوالده وعمه بعد موتهما ويحافظ على ما بقى لروما من مركز ضعيف فى القسم الشمالى — الشرقى من اسـبانيا ازاء القوات القرطاجنية المنتصرة المتفوقة تفوقا كبيرا فى تلك الجهة اذا أمكن ذلك . فاسـتطاع بسرعة حركاته ، وتفوق تكتيكاته ، ومهارة سياسته أن يحوّل غرضه الدفاعى الى حركات تعرضيه تنطوى على زحف غير مباشر على قرطاجة وهانبال . لان اسبانيا كانت قاعدة هانبال الاستراتيجية الحقيقية . ففيها كان يدرب جيوشه ومنها كان ينتظر المدد . فتمكن " سپيو " بمهارته بالجمع بين المفاجأة والتوقيت من حرمان الجيوش القرطاجنية من قرطاجنة فى بادئ الأمر وهى قاعدتهم الرئيسية فى اسبانيا تمهيدا لحرمانهم من حلفائهم والتغلب على جيوشهم . ثم قفل راجعا الى ايطاليا وانتخب قنصلا فأصبح على استعداد للقيام للمرة الثانية بالاقتراب غير المباشر الحاسم الذى كان هيأه فى عقله منذ زمن طويل ضد " مؤخرة " هانبال الاستراتيجية . وكان " فابيوس " قد تقدم فى السن وبلغ منه العقل منتهى القوة فنطق بالرأى الصائب حيث قال ان واجب " سپيو " يقضى بمهاجمة هانبال فى ايطاليا وخاطبه قائلا : " لم لا تجعل هـذه مهمتك وتصل بالحرب الى حيث يوجد هانبال بصورة شريفة لا عوج فيها بدلا من اللف والمداورة منتظرا أنك حينما تجتاز البحر الى أفريقيا يتبعك هانبال اليها . " أما سپيو فانه نال من مجلس السناتو مجرد الاذن

بالعبور الى أفريقيا ولم يسمح له بتجنيد الجنود. بناء على ذلك شرع فى تجريدته ومعه من الجند مالا يزيد عن ٧,٠٠٠ متطوع وفرقتان (ليجيونان) جردتا من الشرف وعوقبتا بالبقاء فى خدمة الحامية بسيسليا لاشتراكهما فى هزيمة " كانه " . وبنزوله الى البر الأفريقى لم يقابله سوى قوة الفرسان الوحيدة التى كانت لدى قرطاجنة وقتئذ . فتقهقر أمامها تدريجيا واستدرجها الى شرك نصبه لها فأبادها . وبذا لم يكتسب وقتا يوطد فيه مركزه فحسب ، بل أوجد تأثيرا أدبيا حض حكومته على تعضيده بسخاء أكثر مما كان ، وأضعف سلطة قرطاجنة على حلفائها الأفريقيين من جهة أخرى ، ما عدا " سيفاكس " الذى كان فى منتهى القوة .

وبعد ذلك التقى بقوة جندها العدو حديثا وكانت متفوقة عليه عددا بدرجة كبيرة ولكنها كانت مؤلفة من جنود " هزدروبال" الحديثة وجنود " سيفاكس " غير النظامية . فتقهقر " سبيو" الى شبه جزيرة صغيرة واستحكم فى موقع حصنه ،هو النموذج الأصلى العتيق لخطوط " طورس فدراس " . وهناك تحايل على قائدى الجيش الذى أحاطه وأدخل فى روعهما الاطمئنان من ناحيته . ثم انه تظاهر بالاستعداد لركوب البحر قصد الزحف على "يوتيكا"، وأخيرا قام بمناورة ليلا وهجم على معسكرى العدو . فكان لهذه المفاجأة من التأثير مازعزع قوة العدو المعنوية وأخل نظامه . وضاعف هذا التأثير ما دبره "سبيو" من الحيلة بتوجيه الهجمة الأولى الى معسكر " سيفاكس " الذى كان أقل نظاما من المعسكر الآخر . اذ كانت أكواخ معسكر "سيفاكس" منتشرة حتى طغت على حدود الموقع المحصن وكانت مصنوعة من القصب والحصر سريعة الالتهاب . ولما أضرمت النار فى هذه الأكواخ ساد الاضطراب وعمت الفوضى فتمكن الهاجمون من دخول المعسكر الرئيسى فى حين أن اللهيب المتأجج دفع جنود هزوروبال القرطاجنيين لأن يفتحوا أبوابهم ويخرجوا منها كالسيل الجارف لانقاذ اخوانهم ظنا منهم أن الحريق حصل قضاء وقدرا — لأن الرومانيين عند حلول الظلام التزموا الصمت والسكون فكان معسكرهم الذى يمتد الى مسافة سبعة أميال فى سكون تام . ولم يوجه "سبيو" هجومه الثانى الى معسكر القرطاجنيين الا بعد أن فتحوا أبوابهم بهذه الحيلة فتمكن من دخوله من غير كلفة شق ثغرة فيه .

واذا كنا فى هذا المقام قد تجاوزنا حدود الاستراتيجية الى التكتيك فى الظاهر ، فذلك لأن هذا النصر الساحق هو فى الحقيقة أعظم مثال فى التاريخ ، الا اذا استثنينا "إليردا" (اسبانيا) حيث لم تقتصر الاستراتيجية على التمهيد للنصر فى معركة بل انها نفذته — اذ كان النصر فى الواقع عبارة عن آخر فصل فى الاقتراب الاستراتيجى . لأن المجزرة التى لا مقاومة فيها ليست معركة .

أما " سبيو " فانه لم يتحرك فى الحال الى قرطاجة بعد أن انتصر من غير سفك دم . فما هو السبب؟ اذا كان التاريخ لا يجيب على ذلك جوابا صريحا فانه يبين أسبابا للاستنتاج أكثر وضوحا من مسألة اهمال هانبال لروما بعد معركة " ترازيمين " و بعد معركة " كانه " . فما لم تتواجد فرصة وأسباب ملائمة يبنى عليها الأمل باقتحام سريع فان الحصار أبعد كل العمليات الحربية عن الاقتصاد . والتاريخ يؤيد ذلك حتى الى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ واذا كان العدو ما زال يملك جيشا بالميدان يستطيع التصدى فالحصار أيضا أشد خطرا لأن المهاجم تقل قوته فيه تدريجيا بالنسبة لعدوه الى أن يكلل الحصار بالنجاح .

أما " سبيو " فكان عليه أن لا يحسب حساب أسوار قرطاجة فقط ، بل كان عليه أن يحسب حساب رجوع هانبال أيضا — فكان فى الواقع يحسب حساب هذا الطارئ و يجعله نصيب عينيه . واذا أمكنه أن يضطر قرطاجة الى التسليم قبل عودة هانبال كانت له من تسليمها ميزة كبرى . على أن ذلك لا بد أن يكون بزعزعة مقاومتها بوسائل أدبية لا تكلفه ثمنا غاليا . لا بوسائل مادية تكلفه بذل قوة قد يرى نفسه بعد بذلها أنه لا يزال أمام أسوار لا ثغرة فيها حينما يهبط هانبال على مؤخرته .

فبدلا من زحفه على قرطاجة أخذ ينقص فى أطرافها التى كانت مورد مؤنها وحلفائها نقصا منظما . وفوق كل شىء كان فصل قسم من قوته لتعقب " سيفاكس " تعقبا لا رحمة فيه والتغلب عليه عملا بررته الحوادث كل مبرر . لأنه بعد ان أعاد حليفه "ماسينيسا" الى عرش " نوميديا " ضمن لنفسه موردا للفرسان لمقابلة أحدّ سلاح لدى هانبال .

ولكى يشجع هذا التحريض الأدبى بهذه الأساليب زحف على تونس . على مرأى من قرطاجة ، "كوسيلة لها منتهى التأثير فى القاء الرعب والفزع فى قلوب القرطاجنيين " . فباضافة هذه الوسيلة الى ما تقدمها من أشكال الضغط غير المباشر كانت كافية لزحزحة قوة ارادة القرطاجنيين فى المقاومة فتقدموا لطلب الصلح . على أنهم بينما كانوا فى انتظار ابرام الصلح فى روما اذ أخل القرطاجنيون بالصلح الوقتى عند ما وصلت الأخبار الى قرطاجة بأن هانبال قد عاد وأنه نزل الى البر فى " لبتس ". و بذا أصبح " سبيو " فى مركز حرج محفوف بالأخطار لأنه وان كان لم يضعف قوته باقتحام قرطاجة الا أنه كان سمح " لماسينيسا " بالرجوع الى " نوميديا " ليوطد مملكته الجديدة — بعد أن قبلت قرطاجة شروط الصلح التى وضعها " سبيو ". ففى ظروف كهذه كان أمام أى قائد أصولى أن يتبع احدى طريقتين : اما أن ينتهج خطة التعرض ليمنع هانبال من الوصول الى قرطاجة . و إما أن ينتهج خطة الدفاع و ينتظر المدد . على أن " سبيو " بدلا من اتباعه احدى هاتين الطريقتين سلك سبيلا لو نظر اليه من الوجهة الجغرافية لرؤى عجيبا . ذلك أنه اذا كان الطريق المستقيم الذى يسلكه هانبال من " لبتس " الى "قرطاجة " يرسم الجزء الأيمن من هذه العلامة (^) فان " سبيو " بعد

أن ترك قسما من جنـده بالقرب من قرطاجة ليحافظ على معسكره ، سار مبتعدا عنها سالكا سبيل الجزء الأيسر من هذه العلامة (٨) من أعلاه الى أسفله . وهو فى الواقع أقصى أنواع الاقتراب غير المباشر . على أن هذا الطريق الذى هو طريق وادى " البجراداس " ، أوصله الى قلب الجهة التى هى المورد الرئيسى لتموين قرطاجة من داخلية بلادها . وقربه أيضا فى كل خطوة كان يخطوها ، من الامدادات النوميدية التى كان " ماسينيسا " آتيا له بها اجابة لالحاحه فى طلبها منه . وهذه الحركة أدركت غرضها الاستراتيجى . فان مجلس السناتو بقرطاجة داخله الفزع لمـا علم بأخبار أعمال التخريب المتمادية فى هذا الاقليم الحيوى فأرسل رسله لتلح على هانبال بأن يتصدى " لسپيو " فى الحال ويشتبك معه فى معركة . ومع أن هانبال أجابهم بأن " يتركوه وشأنه فى هذا الأمر " الا أن الظروف — التى أوجدها " سپيو " — ألجأته الى التحرك غربا بسير جبرى لملاقاة " سپيو " بدلا من التحرك شمالا الى قرطاجة . وبهـذه الوسيلة استدرجه " سـپيو " الى ساحة اختارها ، حيث كان ينقص هانبال المدد المـادى من نقطة ثابتة يتخذها محورا لحركاته ، وملجا يلجأ اليه فى حالة الانكسار ، وهما ما كانا يتوافران لو ان المعركة نشبت بالقرب من قرطاجة . ومع ذلك فلم يكتف " سپيو " بهـذا التدبير . فانه قد اضطر خصمه لأن يسعى لدخول معركة بحكم الضرورة ، وأراد أن يستغل هذه الميزة الأدبية الى أقصى درجة . ولمـا اتصل به " ماسينيسا " ، وكان اتصالها فى الوقت الذى وصل فيه هانبال بوجه التقريب ، تقهقر " سپيو " بدلا من أن يتقدم بجذب هانبال الى مكان يعسكر فيه كان خاليا من المـاء فتكبد القرطاجنيون من قلة المياه ما تكبدوا . ثم استـدرجه الى ميدان للمعركة فى سهل صالح لأعمـال الفرسان الذين انضموا حديثا الى سپيو حيث يتسع أمامهم المجال لاستغلال ميزتهم الى أبعد حد . فهو قد احتال بالخدعتين الأوليين ، ففى ميدان المعركة " بزاما " (والأصح " ناراجارا ") تمكن من الغلبة بفضل تفوقه تكتيكيا بحيلة فرسانه على حيلة " فرسان " هانبال التى اشتهروا بها من قبل . ثم لمـا لحقت بهانبال الهزيمة التكتيكية لأول مرة تغلبت عليه أيضا نتائج هزيمته الاستراتيجية الابتدائية . فلم توجد قلعة قريبة منـه يلجأ اليها الجيش المهزوم ويتجمع بها قبـل أن تبيده المطاردة . وأعقب ذلك تسليم قرطاجة من غير سفك دماء .

لحملة " زاما " قد صيرت روما الدولة التى لها السيادة على عالم البحر الأبيض المتوسط ثم ان اتساع هذه السيادة فيما بعد وتحولها الى حاكمية استمر دون أن يلقى عائقا ذا بال وان كان لا يخلو من تهديد كان يلقاه أحيانا . ولذلك فان سنة ٢٠٢ ق . م . تعتبر النهاية الطبيعية لبيان الانقلابات التى حصلت فى التاريخ العتيق وأسبابها العسكرية . وأخيرا أخذ مد التوسع الرومانى يتحول الى جزر . ثم قدر للامبراطورية العامة أن يعتورهـا التجزؤ بعضه تحت ضغط الأقوام البربرية . وأكثر منه بسبب الانحلال الداخلى .

وفى عصر " الانحطاط والسقوط" أثناء القرون التى كانت فيها أوربا تبدل بشرتها ذات اللون الواحد وتستبدل بها بشرة جديدة ذات ألوان كثيرة توجد فائدة تكتسب من دراسة القيادة العسكرية . ففى بعض الأحيان تكتسب فوائد كثيرة . كما فى حالة "بليزار يوس" وقادة الامبراطورية البيزنطية الذين أتوا بعده . ولكن بوجه العموم توجد صعوبات تحول دون بيان الحسم وايضاحه . كما أن غموض الانقلابات ، وعدم التأكد من الاستراتيجية المثمرة التى ترمى الى أغراض ، وعدم الاعتماد على الموارد المستقاة منها المعلومات ، كل هذه تحول دون ايجاد أساس للاستنتاجات العلمية . على أن هناك حربا داخلية تستدعى فحصا ، قبل ختام مبحث الاستراتيجية العتيقة . وذلك بسبب أنها كانت مسرحا لأحد كبار قادة التاريخ من غير نزاع ولا جدال ، من جهة . ولأنها كانت ذات تأثير حيوى على مجرى التاريخ من جهة أخرى . لأنه كما أن الحرب القرطاجية الثانية أعطت الدنيا لروما . كذلك أعطت الحرب الأهلية التى وقعت فى سنة ٥٠ الى سنة ٤٥ ق . م . العالم الرومانى "لسيزار" — وحكم القياصرة . فلما عبر "سيزار" نهر "الروبيكون" فى ديسمبر سنة ٥٠ ق . م . كانت قوته تستند على بلاد "الجول" (الغلوا) و"ايليريكام" . وكانت "لپومبى" السيطرة على ايطاليا وبقية الممتلكات الرومانية . وكان "لسيزار" تسعة (ليجيونات) فرق ولكن لم يكن معه منها فى "رافنا" سوى واحدة . وكان "لپومبى" عشرة ليجيونات فى ايطاليا . وسبعة فى أسبانيا وأقسام كثيرة فى بقية أنحاء الامبراطورية . على أن الفرق التى كانت فى ايطاليا لم تزد عن مرتب الموجود مع (النسر) (أى البيارق أى تحت السلاح) — والفرقة الجاهزة كانت تعادل أكثر من فرقتين غير معبأتين (أى بمرتب أيام الحرب) . وقد وجه الانتقاد " لسيزار " لتهوره اذ تحرك نحو الجنوب بجزء ضئيل من جيشه . غير أن العنصرين الحيويين فى الحرب أكثر من غيرهما هما الزمن والمفاجأة . وكان "سيزار" يقدرهما حق التقدير أما فيما عداهما فكانت استراتيجيته تسترشد فى جوهرها بدرجة فهمه لعقلية "پومبى" .

فمن "رافنا" الى "روما" يوجد طريقان اختار "سيزار" أطولها وأقلهما استقامة — هابطا على الساحل الادرياتيكى — ولكنه أسرع فى حركته . وبمروره من هذه الجهة الآهلة بالسكان انضم اليه كثير من أفواج المجندين الذين كانوا يتجمعون " لپومبى" — كما حصل لنابليون فى سنة ١٨١٥ . ولما تزلزلت القوة المعنوية فى حزب "پومبى" هجر روما تاركا الخزينة العامة وتقهقر الى "كاپوا" فى حين أن "سيزار" دخل بين قوات العدو الأمامية الموجودة فى "كورفينيوم" وقوته الرئيسية الموجودة مع "پومبى" حول "لوسيريا" فنقل قوة أخرى الى جانبه من غير سفك دماء . وبعد ذلك استمر فى زحفه جنوبا نحو "لوسيريا" واستمرت سرعته كما كانت . على أن زحفه صار الآن مباشرا ففزع العدو وتقهقر الى مينا "بروندیزيوم" (برنديزى) المحصن فى أسفل ايطاليا . فكان من النشاط الذى تعقبه به ان قرر " پومبى" على عجل لأن يجتاز الادرياتيك الى بلاد اليونان . وهكذا كان من نتائج تمادى "سيزار" فى الاقتراب

المباشر وقلة الدهاء فى الطور الثانى ، حرمانه من الفرصة التى كانت لديه لانهاء الحرب بحملة واحدة والحكم على نفسه بقضاء أربع سنين أخرى فى حروب طاحنة حول حوض البحر الأبيض المتوسط .

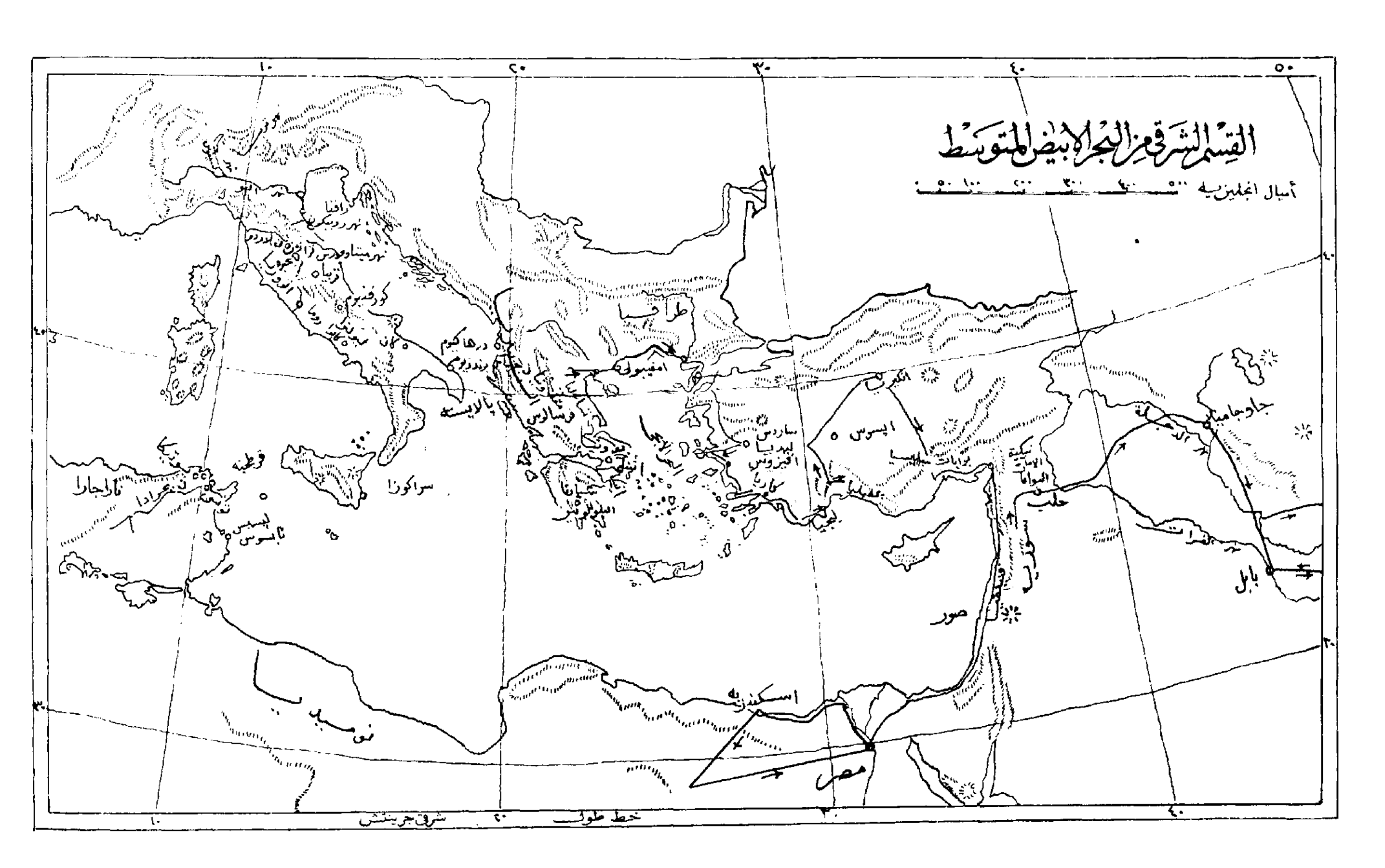
ثم افتتحت الحملة الثانية . وبدلا من أن يقتفى "سيزار" أثر "پومبى" على خط مستقيم حول فكره وجنوده الى أسبانيا . وقد لاقى انتقادا كثيرا لحشد قوته ازاء "الشريك الأصغر" بهذا الأسلوب على أن تقديره لدرجة جمود پومبى قد بررته هـذه الحادثة . وفى هذه المرة تغالى "سيزار" فى عدم التحفظ وزحف زحفا مباشرا على قوات العدو الرئيسية فى "إليردا" عبر جبال "البرينيس" فتمكنت من اجتناب المعـركة ، وخاب الاقتحام . ونجا سيزار من نزول كارثة به بتدخله شخصيا . على أن قوة جنـوده المعنوية أخذت فى النقص واستمرت تتناقص حتى عاد "سيزار" فى الوقت الملائم وغير طريقة اقترابه . وبدلا من ابداء أى محاولة أخرى كالتشدد فى الحصار وجه كل مساعيه ومجهـوداته لانشاء مخاضة صناعية مكنته من الحكم على كلا شاطئ نهر "سيكوريس" القائمة عليه "إليردا" فكان من شان هذا التهديد الموجه الى تضييق الخناق على الموارد التى تستمد منها قادة "پومبى" مؤنهم أن حضهم على التقهقر قبـل فوات الأوان فتركهم "سيزار" يتسللون من غير أن يضغط عليهم ولكنه عوضا عن ذلك بعث فرسانه من الجول ليبقوا على مؤخرتهم فيؤخروا سيرهم . ثم انه بدلا من أن يقتحم الجسر (الكوبرى) المحتل بحرس العدو الخلفى جازف بقيادة فرقة مجتازا بها المخاضة العميقة التى كانت معتبرة غير قابلة للخوض الا بالفرسان ثم سار على دورة واسعة أثناء الليل واعترض خط رجعة العدو . ولم يحاول دخول المعركة حتى فى ذلك الحين بل اكتفى بأن يحول بين العدو واتخاذه خط رجعة جديد بان استخدم فرسانه فى مضايقته بينما كانت فرقه تتوغل فى المسير . ثم كبح شوق رجاله للقتال وفى نفس الوقت شجعهم على التآخى مع رجال الفريق الآخر الذين أخذ منهم التعب والجوع ، وشبوط الهمم ، كل مأخذ . وأخيرا ، لما أرجعهم بحيلته فى اتجاه "إليردا" واضطرهم الى اتخاذ موقع لا ماء فيه ، سلموا أنفسهم . فكان هذا نصرا استراتيجيا لم يسفك فيه دم غالب ولا مغلوب — وكلما قل عدد قتلى العدو ازداد عدد أتباع "سيزار" بينهم ومجنديه . وعلى الرغم من استبداله المناورات بالاقتحام المباشر فان الحملة لم تكلفه من الوقت أكثر من ستة أسابيع ، ولكنه فى الحملة التالية غير استراتيجيته فاستمرت ثمـانية أشهر قبل أن يكالل النصر جنوده وحتى حينذاك لم يكن نصرا تاما .

ثم ان "سـيزار" بدلا من أن يزحف الى داخلية بلاد اليونان بالطريق البرى غير المباشر بأن يجتاز "ايليريكوم" قر قراره على سلوك الطريق المستقيم الذى هو طريق البحر . وبذلك اكتسب وقتا فى بادئ الأمر ولكنه خسره أخيرا . فان "پومبى" كان يملك من الأصل أسطولا كبيرا ، أما "سيزار" فلم يكن له أسطول . ومع أنه أمر ببناء أسطول أو جمع سفن

فى نطاق واسع فلم يتوافر لديه الا قسم من السفن . وبدلا من أن ينتظر أقلع بسفنه من مينا برنديزى بقوة تكاد لا تبلغ نصف القوة التى جمعها . ولما نزل الى البر فى " بالايست " تقدم صاعدا على الشاطئ قاصدا ميناء "ديراكيوم" الشهيرة ، ولكن "بومبى" سبقه اليها بزمن يسير ومن حسن حظ " سيزار " ان كان " بومبى " متباطئا كعادته فأضاع فرصة استخدام قوته المتفوقة قبل أن يتمكن "أنطونيو" ومعه النصف الآخر من جيش "سيزار" من الانضمام اليه بعد أن غافل أسطول العدو وأفلت منه . حتى بعد أن نزل "أنطونيو" الى البر فى الجانب الآخر من "ديراكيوم" عجز "بومبى" عن منعه من الاتصال "بسيزار" فى "تيرانا" مع أنه كان بينهما فتقهقر " بومبى " وتبعه عدوه وعرض عليه دخول معركة من غير طائل . وبعد ذلك صمد الجيشان يواجه أحدهما الآخر على الشاطئ الجنوبى لنهر "الجنوسوس" الواقع جنوبى "ديراكيوم" فقام "سيزار" بسير دائرشاق لمسافة نحـو ٤٥ ميلا مجتازا التلال حتى صار بين "ديراكيوم" و "بومبى" قبل أن يتيقظ "بومبى" لهذه الحركة فعاد الى "ديراكيوم" مع أن المسافة بينه وبينها كانت لا تزيد عن ٢٥ ميلا على خط مستقيم . أما " سيزار " فانه لم يستغل الميزة التى كانت لديه . ولما كان "بومبى" يتموّن من طريق البحر فلم يوجد محرض يحرض رجلا من معدنه لأن يهاجم "سيزار" وبعد ذلك اتخذ "سيزار" الطريقة الأصلية المجردة من الفائدة وهى طريقة انشاء خطوط طويلة يحاصر بها جيشا لا يفوق جيشه قوة فحسب ، بل فى استطاعته تموين نفسه بسهولة . أو الرحيل بطريق البحر متى أراد .

فحتى " بومبى " مع ما هو عليه من الجمود لم يستطع أن يترك الفرصة التى سنحت له دون أن ينتهزها لانزال ضرباته بالنقط الضعيفة الموجودة فى مثل هذا الخط الرقيق . فنجح نجاحا أدى "بسيزار" لأن يقابله بحشد جنوده والقيام بهجمة مضادة انتهت باخفاق وكارثة . ولم يحل دون ابادة جنود "سيزار" الذين تزعزعت قوتهم المعنوية سوى عدم نشاط "بومبى" .

وأراد جنود "سيزار" أن يقودهم قائدهم مرة أخرى للقاء العدو ولكن "سيزار" كان قد تعلم درسا . وبعد أن رجع بسلام عاد الى استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وسنحت الفرصة أيضا "لبومبى" ليستخدمها بأن يعبر الادرياتيك مرة أخرى ويستعيد سيطرته على ايطاليا اذ يكون الطريق ممهدا أمامه بفضل التأثير الأدبى الذى أحدثته هزيمة سيزار . وأدرك "سيزار" ما لهذه الحركة الغريبة من القيمة ، وما ينشأ عنها من الخطر . فأسرع بالحركة شرقا لملاقاة "سيبوناسيكا" من قواد "بومبى" الموجود فى مقدونيا . فأثرت حركته هذه على عقل "بومبى" فتبع "سيزار" واتخذ طريقا غير الذى سلكه "سيزار" فنجد "سبيو". وقد وصل "سيزار" أولا ولكنه بدلا من أن يدفع جنوده الى الاستحكامات أتاح "لبومبى" أن يصل . فضياع هذه الفرصة بحسب الظواهر طبقا لقوانين الحرب قد يكون سببه ما علق بذهن "سيزار" من أنه بعد الذى حصل فى "ديراكيوم" لابد من محرض "قوى" يحرض "بومبى"



القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط
أميال انجليزيه
اسكندريه
مصر
صور
حلب
بابل
سراكوزا
طراقيا
سارديس
ليديا
ابسوس
خط طول شرق جرينتش

على قبول النزال فى معركة فى العراء . فاذا كان الأمر كذلك فقد أصاب لأن قواد "بومبى" وجدوا صعوبة فى حضه على قبول المعركة مع أنه كان متفوقا عددا بنسبة واحد الى اثنين . وما كاد "سيزار" يهيئ سلسلة من المناورات ليوجد الفرصة حتى تقدم "بومبى" وهيأها له فى "فارسالوس" (فرسالة) فمن وجهة مصلحة "سيزار" كانت المعركة سابقة لأوانها من غير شك وذلك بنسبة قرب حصول النتيجة النهائية . لأن اقتراب "سيزار" اقترابا غير مباشر كان بنية استرجاع الموازنة الاستراتيجية فكان عليه أن يقترب اقترابا آخر ليقلب موازنة "بومبى" رأسا على عقب . وهذا الاقتراب هو الذى قام به بومبى .

وبعد انتصار "سيزار" فى "فارسالوس" طارد "بومبى" عبر بوغاز الدردنيل (أى الى الجانب الآخر منه) ومن خلال آسيا الصغرى . ومنها عبر البحر الأبيض المتوسط الى الاسكندرية حيث قتله "بطولومى" (بطليموس) غيلة وأراح منه "سيزار". على أن "سيزار" أضاع الفائدة بتدخله فى النزاع القائم بين بطليموس وأخته كليوبترا من جراء عرش مصر فأضاع بذلك ثمانية أشهر قضاها فى حرب لا ضرورة لهـا مطلقا . والذى يلوح هو أن عيب "سيزار" المتأصل فيه الذى كان يعاوده كثيرا هو توجيه كل التفاته نحـو الغرض الذى أمام عينه مباشرة واغفال الغرض الأبعد منه .

وهذه الفترة مكنت القوات البومبيـــة من التجمع والشروع فى حياة جديدة فى أفريقيا وأسبانيا . أما فى أفريقيا فقد ازدادت مصاعب "سيزار" بسبب "العمل المباشر" الذى كان نائبه "كوريو" ألفه من قبل . فان (كوريو) بعد أن نزل الى البروفاز بالنصر الأول مكن الملك "جوبا" حليف حزب "بومبى" من استدراجه الى شرك نصبه له فأباده . وأما "سيزار" فانه افتتح حملته الأفريقية بنفس استقامة الاتجاه ، والاندفاع ، وعدم كفاية الجنود التى كان عليها فى حملته الاغريقية . فكان يقع فى الشرك كعادته ويخلص نفسه بما اعتاده من حسن الحظ والمهارة التكتيكية معا . وبعد ذلك استقر فى معسكر محصن بالقرب من "روسبينا" فى انتظار وصول فرقه (ليجيوناته) الأخرى رافضا كل اغراء على دخول المعارك . وتملكته خلة حقن الدماء بالتمـاس المناورات الى درجة أنه حتى بعد وصول المدد اليه كان يتبع استراتيجية تنطوى على اقتراب غير مباشر لدرجة متطرفة ضيقة الحدود . فكان يقوم بالمناورة عدة مرات لكى يوقع بخصمه ونخزا كوخز الإبر ظهرت نتائجه فى قوة العدو المعنوية بعدد الفارين من جيشه الذين كانوا يتدفقون تدفق السيل . وفى آخر الأمر اقترب من قاعدة العدو الكائنة فى "تابسوس" اقترابا أكثر بعدا عن الاستقامة المباشرة فأوجد فرصة ملائمة للمعركة . فما كان من جنوده الا أن جمحوا فاندفعوا للهجوم وربحوا المعركة من تلقاء أنفسهم . أما فى حملته الأسبانية التى جاءت بعد ذلك وكانت ختام الحرب فانه اجتهد من أول الأمر أن يتجنب اتلاف الأنفس وكان لا ينقطع عن المناورات فى حدود ضيقة حتى يجعل عدوه فى وضع

يضمن له طالع المعركة . وقد فاز بذلك فى "موندا" ففاز بالنصر على أن ضيق مجال النضال وفداحة الخسائر فى الأنفس التى تكبدها فى هذه المعركة بسببه تبين الفرق بين الاقتصاد فى القوة ومجرد الحرص على القوة . فاقتراب "سيزار" غير المباشر يظهر عليه ضيق الحدود ، ونقص المفاجأة . ففى كل حملة من حملاته كان يتعب قوة العدو المعنوية ولكنه لا يزحزحها . ويظهر أن السبب فى ذلك هو أنه كان يوجه التفاته الى عقلية جنود العدو أكثر من توجيهه الى عقلية قائدهم . ولكن اذا كان من شأن حملاته أن تؤدى الى التمييز بين احدى صفتى الاقتراب غير المباشر والأخرى — أى الاقتراب من جنود العدو ومن قائدهم — فانها تبين أيضا بصورة بارزة الفرق بين الاقتراب المباشر ، والاقتراب غير المباشر . لأن "سيزار" كان يؤوب بالفشل فى كل مرة يعتمد فيها على الاقتراب المباشر كما كان يصلح خطأه ويعوض الفشل فى كل مرة يرجع فيها الى الاقتراب غير المباشر .

الباب الرابع

حروب القرون الوسطى

هذا الباب هو عبارة عن مجرد حلقة اتصال بين دورات التاريخ العتيق والتاريخ الحديث لأنه بالرغم مما فى عدة من حملات الأعصر الوسطى الحربية من الاغراء والترغيب فان المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عنها أضعف بكثير من مصادر العصور التى تقدمتها والتى أعقبتها وأقل منها ثقة . والطريق الأمين لاستنتاج العلل ونتائجها فى الحقائق العلمية هو أن نؤسس تحليلنا للتاريخ على حقائق ثابتة ونتجاوز عن بعض أزمنة حتى ولو نضحى فى هذا التجاوز بأدلة مؤيدة ذات قيمة ، متى قضت الضرورة بالاختيار بين أوجه النقد المتضاربة فيما يختص بالمصادر التاريخية أو المنصوص عنها فى الكتب . نعم ان الجدل قد احتدمت سورته فى تفصيلات التاريخ الحربى للقرون الوسطى من الوجهة التكتيكية لا من الوجهة الاستراتيجية ، ولكن تضارب الآراء فى هذا الموضوع وما أحدثه من الغموض قد يخفى كلا الوجهتين عن نظر الطالب الحربى العادى ويجعله فى شك من الاستنتاجات المستخرجة عن ذلك العصر . غير أننا نشير اشارة طفيفة الى بعض الحوادث التى وقعت فيه كوسيلة لعرض ما قد تنطوى عليه من الفائدة ومما يستدعى الاهتمام . دون أن ندخلها فى تحليلاتنا الدقيقية .

ففى الغرب فى إبان الأعصر الوسطى كانت الروح العسكرية فى عهد الاقطاعات "الفروسية" معادية للفن . على ان غباءها المطلق من الوجهة الحربية كان يتخلله شىء من الضوء الباهر . ربما كان لا يقل عن نسبة ما تخلل أى عصر من عصور التاريخ .

فالنورمانيون سكان نورماندیا بدأوا بارسال أول اشعاع من بصيص النور ثم أخذ نسلهم يضيء سبيل حروب الأعصر الوسطى وسيرها بدلا من سفك دمائهم . وعلى كل حال فان ما أعطوه لهذه الحروب من القيمة أدى بهم الى بذل عصارة أذهانهم بدلا من بذل دمائهم وقد عاد عليهم ذلك بفائدة تذكر .

فالتاريخ الذى يعرفه كل ولد من أولاد المدارس ، ان لم يعرف غيره ، ألا وهو سنة ١٠٦٦ قد سطع فيه نورضربين من الاستراتيجية والتكتيك ، فيهما من المهارة بقدر ما كانت نتيجتهما حاسمة لا بالنسبة لغرضها الخاص فقط ، بل كانت ذات أثر على كل مجرى التاريخ . فان غزو "وليم" لبلاد الانجليز قد استفاد من تحويل استراتيجى (أى ارباك العدو وايقاعه فى حيرة) . وبهذا التحويل اكتسب فضيلة الاقتراب غير المباشر من بادئ الأمر . هذا التحويل كان عبارة عن نزول "توستج" الذى كان ثائرا على أخيه الملك "هارولد" الى البر على شاطئ

"يوركشير" ومعه حليفه، "هارولد هاردرادا"، ملك "النورويج" ومع ان هذا الخطر كان يظهر أنه أقل قربا من خطر غزوة " وليم " فانه كان أسرع منها فى تطوره ونموه . ولذلك زاد الخطط التى وضعها "وليم" قوة وان كان "توستج" قد لاقى الهزيمة فى أوانها . و بعد ابادة غزاة قبائل الشمال (الاسكند يناف) على جسر (كوبرى) "ستامفورد" بيومين ، نزل "وليم" الى البر على شاطئ "ساسكس". وهنا بدت أول بوادر "وليم" العبقرية . فانه بدلا من أن يزحف نحو الشمال استدرج " هارولد " الى الاندفاع نحو الجنوب لا يلوى على شيء وليس معـه الا جزء من قوته . وذلك بأن أعمل السلب والتخريب فى مقاطعتى " كنت" و"ساسكس" . فكلما ابتعد" هارولد" نحو الجنوب وكلما بادر بالنزال فى معركة كلما اتسع المدى بينه و بين مدده سواء فى المسافة وفى الزمن . وهـذا الحساب قد بررته الحوادث واشـتبك "هارولد" فى معركة ، لمـا اضطره اليها "وليم" ، على مرأى من شاطئ القنال (الانجليزى) وحسم "وليم" النتيجة التكتيكية باقتراب غير مباشر — بأن أمر قسما من جنوده بأن يتصنعوا الفرار فكان ذلك سببا فى زحزحة أوضاع خصمه . وفى الطور النهائى للمعركة ابتكر "وليم" حيلة رمى النبال بزوايا مرتفعة تسبب عنها موت "هارولد" . وهذه يصح تسميتها اقتراب برمى غير مباشر .

ثم ان استراتيجية "وليم" بعد هـذا الانتصار كانت ممـا يستحق التنويه بدرجة لا تقل عن سابقتها . ذلك أنه بدلا من السير الى "لندن" مباشرة أمن "دوفر" فى بادئ الأمر ومواصلاته البحرية . وعند وصوله الى ضواحى لندن تحاشى أى اقتحام مباشر ، بل انه استعاض عنه برسم دائرة حولهـا من جهة الغرب ثم من جهـة الشمال . وهى دائرة ملأها بالتخريب والاتلاف حتى سلمت العاصمـة بعد أن تهددتها المجاعة حينما وصل " وليم" الى "بركهاميستد" .

وشاهد القرن التالى أدلة أخرى على عبقرية النورمانيين فى الحروب كما شاهد حملة حربية من أشد حملات التاريخ إثارة للدهشة . تلك هى غزو القسم الأعظم من ايرلندا ، وقيام ايرل "سترونجبو" وبضع مئات من فرسان مستنقعات بلاد "الويلز" بصد غزو نورمانى قوى . وهو عمل مجيد جدير بالذكر لا بسبب الضآلة المتناهية فى الوسائل ومنتهى الصعوبات فى البلاد ذات الغابات والمستنقعات فقط ، بل أيضا بسبب الحذق فى التخلى عن طرائق الحرب التى كانت على عهد الاقطاعات واتباع عكسها . فقد أظهروا براعة وحسن حساب فى طريقة استدراج عدوهم الى المعارك فى العراء مرارا وتكرارا ، حيث كانت هجماتهم فوق ظهور الخيل تثمر الى أكمل حد . وذلك بطريقة استغلال الرجعات المصطنعة ، والتحويل (تشتيت أفكار العدو) ، والهجمات الخلفية للتغلب على مقاومته . ثم بالمفاجآت الاستراتيجية ، والهجمات الليلية ، ورمى النبال للتغلب على المقاومة حينما يتعـذر عليهم استدراج العدو الى الخروج من مكمنه فى الدفاعات المحصنة .

على أن القرن الثالث عشر كان أكثر إثمارا من الوجهة الاستراتيجية، وأول ثمرة ظهرت فى سنة ١٢١٦ حينما أنقذ الملك "جون" مملكته بعد أن كاد يفقدها . وذلك بحملة حربية كانت فيها الاستراتيجية الخالصة غير مختلطة بالمعارك . وكانت وسائله اذ ذاك سرعة الحركة وخفتها ، وقوة المقاومة المتوفرة فى القلاع فى ذلك الوقت ، ونفسية أهالى المدن الموروثة عن كراهيتهم للبارونات وحليفهم الأجنبى "لويز" ملك فرنسا . ولما احتل "لويز" لندن وونشستر بعد أن نزل الى البر فى "كنت" الشرقية كان "جون" ضعيفا لدرجة أنه لم يستطع مقاومته فى معركة . فكان البارونات متسلطين على القسم الأعظم من البلاد . على أن "جون" مازال محافظا على قلاع "وندسور" و "ردنج" و "والنجفورد" و "اكسفورد" التى كانت حاكمة على خط "التميز" وفاصلة لقوات البارونات الموجودة شماليها وجنوبيها ، بينما كان معقل "دوفر" الذى هو المفتاح باقيا على مؤخرة "لويز" ولم يستول عليه . وكان "جون" قد رجع الى "دورست" ولكن لما زاد الموقف وضوحا سار الى جهة الشمال فى يوليو حتى "ورسستر" واستولى على خط نهر "السفرن" وبذا أقام حاجزا يمنع طغيان الثورة وامتدادها غربا والى الجنوب الغربى . ومن هناك تحرك نحو الشرق على طول خط التميز المكتسب من قبل كأنه يقصد خلاص "وندسور" .

ولكى يثبت هذا الاعتقاد عند المحاصرين أرسل قسما من رماة القسى "الواليين" (ولش) ليطلقوا سهامهم فى معسكرهم ليلا ، بينما تحوّل هو نحو الشمال الشرقى فربح السباق الى "كيمبردج" بفضل مبادرته . وأصبح الآن قادرا على اقامة حاجز آخر يعترض الطريق الموصل الى الشمال بينما كانت جنود الفرنساويين الرئيسية مقيدة بحصار "دوفر" . ثم ان احاطته بساحة المقاومة والعصيان وتضييق حدودها كان معناها فشل العصاة وحلفائهم برغم أن "جون" نفسه توفى فى شهر أكتوبر . واذا كان موته بتخمة من أكل السمك فقد كان موتهم بتخمة الآثار من الحصون .

أما الثورة التالية الناجحة التى ثارها البارونات فقد أخمدها الأمير "إدوارد" الذى صار فيما بعد "إدوارد الأول"، فى سنة ١٢٦٣ ، بفضل مهارته الاستراتيجية . ثم كانت نتيجة هزيمة الملك "هنرى" الثالث فى "لويز" استقرار سلطة حزب البارونات فى معظم أنحاء انجلترا الا فى مستنقعات بلاد "الويلز" . فسار اليها "سيمون دو مونتفورت"، وعبر "السفرن" ثم توغل فى طريقه ظافرا حتى وصل الى "نيو بورت" . فجاء البرنس "إدوارد" الذى فر من جيش البارونات وانضم الى أتباعه الموجودين ببلاد الحدود وزعزع الخطط التى وضعها "دومونتفورت" باستيلائه على جسور (كبارى) "السفرن" الكائنة وراء "دومونتفورت" ثم تحرك هابطا على مؤخرته . ودفعه "إدوارد" فرده لا الى ماوراء نهر "الأوسك" فحسب ، بل انه أغار على سفنه ، بثلاث سفن من ذوات المجاديف ، فأفسد خطته الجديدة للرجوع بجيشه الى انجلترا

بطريق البحر . فاضطر "دومونتفورت" لأن يسير سيرا ملتفا شاقا الى جهة الشمال مجتازا مقاطعات بلاد "الويلز" القحلاء بينما رجع "ادوارد" الى "ورسستر" ليرابط على نهر "السفرن" وينتظر وصوله . ولما سار ابن "دومونتفورت" لنجدة أبيه بجيش أتى به من شرق انجلترا انتفع "ادوارد" بموقعه المتوسط بينهما لسحق كل منهما على حدة وهو منفصل عن الآخر ولا يعلم عنه شيئا . وذلك بالسير ذهابا وجيئة الذى استغل فيه سرعة الحركة وقام بمفاجأتين ساحقتين .

وقد أتيح "لادوارد" وهو ملك أن يخدم العلم العسكرى خدمات أجل من تلك فى حروبه ببلاد "الويلز" لا بالتوسع فى استعمال القوس والجمع بين هجمات الفرسان والرمى بالنبال فحسب، بل انه زاد على ذلك كثيرا بطرائقه الاستراتيجية فى الفتوحات . فكانت المسألة التى تواجهه مسألة اخضاع عنصر جبلى وحشى شديد البأس يستطيع تجنب المعارك بالركون الى التلال ويعود الى احتلال الأودية عند مايوقف الغازى عملياته فى فصل الشتاء . واذا كانت وسائل "ادوارد" محدودة نسبيا فقد كانت لديه ميزة أخرى أيضا هى أن البلاد كانت محدودة كذلك . والحل الذى رآه هو الجمع بين خفة الحركة والنقط الاستراتيجية . فبنى قصورا حصينة فى تلك النقط ووصلها بطرق ، ثم أوجد عدوه فى حركة دائمة فلم يستطع تجديد قوته الجثمانية والنفسية أو أن يستريح من الوجهة الجغرافية فى فصل الشتاء فشتت قوته شذر مذر وأنهك قوة مقاومته . وكما كانت طريقته صورة من طريقة الرومان فقد كانت نموذجا سابقا لطريقتنا فى الحدود الشمالية الغربية من الهند .

على أن مواهب "ادوارد" الاستراتيجية لم تعش بعده ، وفى حرب المائة عام لايوجد شيء يستحق التعلم الا تعلما سلبيا من استراتيجية حفيده أو ابن حفيده . فان المظاهرات التى لا طائل تحتها التى قاما بها فى فرنسا كانت لا أثر لها عادة . أما القليل منها الذى كانت له نتائج أعظم فكان وليد حماقتهما المتزايدة . فان كلا من "ادوارد" الثالث والأمير الأسود (بلاك برنس) أوقع نفسه فى مأزق حرج ، الأول فى حملة "كريسى" ، والثانى فى حملة "بواتير" . وكلا الحملتين كان غير مباشر بدرجة متناهية جاءت عن غير قصد فان المركز السيء الذى كان فيه الانجليز حرض خصماءهم البسطاء العقول لأن يندفعوا الى المعركة غير لاوين على شيء فى ظروف لم تكن فى صالحهم بل كانت ضدهم تماما فأتاحوا للانجليز أن يخلصوا أنفسهم من الورطة التى كانوا فيها . فان المعركة كانت دفاعية وفى أرض اختارها الانجليز لأنفسهم فكان من شأن قسيهم الطويلة وتكتيكات الفرنسيين، فى عهد الفروسية والبطولة، التى لا ثمرة فيها أن أكدتا تفوق الانجليز تكتيكيا .

على أن فداحة هذه الهزائم التى أصابت الفرنسيين فى المعارك عادت عليهم بفائدة . فانهم فى المرحلة التالية من مراحل الحرب أصروا على التزام السياسة "الفابية" التى اتبعها الكونستابل "دوجوسلين" . والاستراتيجية التى نفذ بها هـذه السياسة كانت عبارة عن تجنب المعارك مع الجيش الانجليزى الرئيسى بينما كان لا ينقطع عن مضايقة حركات عدوه وانقاص أراضـيه . فان اسـتراتيجيته كانت بعيدة كل البعد عن الطرائق السلبية بتجنب المعارك ، بل كانت عبارة عن استغلال خفة الحركة والمفاجأة لدرجة لم يصل اليها الا القليل من القادة ، فكان يتصدى لقوافل النقل ويستولى عليها أو يبيدها ، و يبيد الأقسام المنفصلة ، ويأسر الحاميات المتطرفة . وكان يسلك دائمـا الخط الذى هو أبعـد ما يتوقعه العدو لقدومه . وكانت طرائقه السريعة الحديثة المنطوية على هجمات الاقتحام ، واختيار أغراضه بتقديرها من الوجهة النفسية حيث تكون الحاميات متبرمة متذمرة أو الأهالى على وشك الخيانة ، كل هـذه كانت تساعده على هجمات المفاجأة على مثل تلك الحاميات وكثيرا ما كانت تقع ليلا . وبهذه الطرائق كان يزيد لهيب الاضطرابات المحلية ضراما كوسـيلة مباشرة لتشتيت أفكار العدو وانقاص أراضـيه نهائيـا .

ففى ظرف أقل من خمس سنين أنقص الممتلكات الانجليزية الواسعة التى كانت فى فرنسا الى شقة ضيقة من الأراضى بين "بوردو" و"بايون" . كل ذلك دون أن يقاتل فى معركة . وفى الواقع فانه لم يضغط بالهجوم مطلقا حتى ولا على قوة انجليزية صغيرة تكون قد اكتسبت وقتا لاتخاذ أوضاع دفاعية . نقد حافظ القواد الآخرون هم ومقرضو النقود على المبدأ القائل : « لا تقـديم أو (زحف) من غير تأمين » . أما مبدأ "دوجوسلين" فكان « لا هجوم من غير مفاجأة » .

والمحاولة الجدية التى قام بها الانجليز لغزو بلاد أجنبية للمرة التالية كانت على أقل تقدير قائمة على طرائق منتظمة وعلى تقدير الغاية والوسائل — بعد أن ابتدأت بالتهور . لأن أشهر حملات "هنرى" الخامس كانت أكثرها طيشا . ففى الموكب « الادواردى » الذى انتهى فى "آجنكور" كان الفرنسيون ماعليهم الا أن يسدوا الطريق أمام "هنرى" ليضمنوا سقوطه بالمجاعة . ولكن قادتهم نسوا الدروس التى تلقوها فى "كريسى" وتعليم "دوجوسلين" . فقد ظنوا أنهم مع تفوقهم عددا بنسبة أربعة الى واحد يكون من العار عليهم أن يستخدموا هـذا التفوق بشىء غير الهجوم المباشر . وبذا هيأوا أنفسهم لعار أكبر بتكرير ماحصل فى "كريسى" و"بواتير" . وبعد نجاة "هنرى" بهذه الكيفية استخدم ما قد يسمى استراتيجية « نظام الكتلة » . فكان يرمى الى فتح مستديم بالتوسع فى امتلاك الأراضى بطريقـة منتظمة كانت تتداوى على استرضاء السكان كوسيلة لتأمين تملكه . أما أهمية حملات هنرى التى أعقبت ذلك وما لها من القيمة فهى فى الاستراتيجية العظمى التى اتبعها فيها لا فى استراتيجيتها .

ففى موضوع الاستراتيجية يصح أن نختم ملاحظاتنا عن الأعصر الوسطى بعهد "ادوارد" الرابع الذى اكتسب عرشه فى سنة ١٤٦١ ثم استرجعه مرة أخرى فى سنة ١٤٧١ باستخدامه حفة الحركة بصفة خصوصية بعد أن كان منفيا .

ففى الحملة الأولى كانت النتيجة ناشئة بصفة رئيسية عن سرعة الحكم فى الأمور وسرعة الحركة . فقد كان ادوارد مشتبكا مع اللانكستريين المحليين فى بلاد "الويلز" عندما بلغه خبر هبوط جيش اللانكستريين الرئيسى على لندن . فلما رجع وصل "جلوستر" فى ٢٠ فبراير وبها سمع بانتصار اللانكستريين فى ١٧ فبراير على قوة اليوركيين التى كانت تحت إمرة "واريك" فى "سانت البانز" والمسافة بين "سانت البانز" و"لندن" هى ٢٠ ميلا ، ومن "جلوستر" الى لندن أكثر من ١٠٠ ميل فكان لدى اللانكستريين مهلة ثلاثة أيام . ولكن فى ٢٢ فبراير لما كان فى "بوفورد" انضم اليه "واريك" ثم بلغه أن مجلس بلدية لندن ما زال يجادل فى شروط التسليم وأبوابها مقفلة . فبارح "بوفورد" فى اليوم التالى ودخل لندن فى ٢٦ فبراير ونودى به، اذ ذاك ، ملكا بينما رجع اللانكستريون الى جهة الشمال يجرون أذيال الخيبة . ولما اقتفى أثرهم كان مجازفا مجازفة كبرى بمهاجمته عدوا يفوقه عددا مستقرا فى موقع اختاره لنفسه فى "طاوطون" . على أن مرؤوسه "فوكونبرج" استغل هبوب عاصفة ثلجية فاسترد له الميزة بأن أخذ يرمى المدافعين الذين أعمتهم الثلوج بالنبال فضايقهم الى أن أرادوا الخلاص منه بهجمة لا نظام فيها .

أما فى سنة ١٤٧١ فكانت استراتيجية "ادوارد" تنطوى على كثير من الدهاء وخفة الحركة . فانه كان أضاع عرشه ولكن صهره أقرضه خمسين ألفا (من النقود) . ومع ذلك فلم يتجاوز رأس ماله علاوة على ذلك ١٢٠٠ من الأتباع وبضع رسائل من معضديه السابقين فى انجلترا يعدونه فيها بالمساعدة . ولما أقلع من مينا "فلشنج" كانت شواطئ انجلترا تقوم عليها الحراس لمنعه . ولكنه اتبع الخط الذى هو أقل الخطوط انتظارا (أى آخر ما يظن العدو أنه يسلكه) حتى رسا الى البر فى نهر "الهمبار" حاسبا بمهارته أن هذه الجهة نظرا لعطف أهاليها على اللانكستريين ومشايعتهم لهم لايقوم عليها حراس . فتحرك بسرعة قبل أن ينتشر خبر نزوله الى البر ويتجمع أعداؤه ، فوصل الى "يورك" . ومنها سار هابطا على طريق لندن ثم تفادى ببراعته من قوة كانت تسده فى "تادكاستر" بأن تحول عن طريقه حتى مر بها . فسبق هذه القوة التى قفلت راجعة لتتعقبه الى أن هدد قوة أخرى كانت تنتظره فى "نيوارك" فارتدت شرقا . وعندها اتجه "ادوارد" نحو الجنوب الغربى الى "ليستر" وهناك ازداد أتباعه . ثم انه سار بعد ذلك الى "كوفنترى" حيث كان "واريك" اشد مقاوميه يجمع جنوده . وبعد أن استدرج القوتين المتعقبتين له الى ذلك المكان أيضا وأخذت قوته تزداد

على حساب العدو ، اتجه نحو الجنوب الشرقي وسار الى لندن مباشرة ففتحت له ابوابها . والآن وقد شعر بقوته لدرجة يقبل معها الاشتباك فى معركة خرج لملاقاة متعقبيه ، الذين خدعهم كل هذه المدة عند وصولهم الى "بارنت" واشتبك فى معركة سادها الضباب والفوضى انتهت فى صالحه .

وفى نفس اليوم نزلت "مارجاريت أنجو" ، ملكة لانكستر الى البر فى "ويموث" ومعها بعض مأجورى الفرنسيين . وبعد أن جمعت أتباعها فى الغرب سارت لتنضم الى الجيش الذى كان ايرل "بمبروك" قد جمعه فى بلاد "الويلز" . فاستعان "ادوارد" بالسرعة مرة أخرى ووصل الى حافة تلال "كوتسولدس" بينما كان جيشها سائرا نحو الشمال على جانب طريق "برستول" و "جلوستر" فى الوادى أسفل منه . وأخذ الجيشان يتسابقان طول اليوم . أحدهما فى بطن الوادى ، والآخر فوق المرتفعات المشرفة عليه . فلحق هو بجيشها مساء فى "تويكز برى" ، بعد أن منعه من عبور نهر "السفرن" فى "جلوستر" بأن أرسل أمرا قبل ذلك الى الكونستابل ليقفل الأبواب . وقد قطع فى ذلك اليوم نحو أربعين ميلا منذ الفجر الى أن حل الليل . وفى تلك الليلة عسكر قريبا من اللانكستريين بحيث لايستطيعون الفرار . وكان موقعهم قويا من الوجهة الدفاعية . على أن "ادوارد" استخدم القذائف الثقيلة والنبال لمضايقتهم حتى يخرجوا للهجوم . وبهذه الوسيلة اكتسب ميزة كانت حاسمة فى المعركة التى نشبت فى الصباح .

فاستراتيجية "ادوارد" كانت تمتاز بخفة الحركة بصفة خصوصية ، ولكنها من حيث نقص الحيلة والدهاء كانت على مثال طراز ذلك العصر . لأن استراتيجية الأعصر الوسطى كان من عادتها أن تجعل غايتها الوصول الى معركة بالطرق البسيطة المباشرة . فان لم تكن النتيجة غير حاسمة ، فانها فى العادة تكون حاسمة ضد من يسعى لها الا اذا أمكنه أن يستدرج المدافع لأن يكون هو المعتدى تكتيكيا .

وأحسن أمثلة الاستراتيجية فى الأعصر الوسطى هو ماجاء من الشرق لا ماجاء من الغرب لأن القرن الثالث عشر ، الذى كان ممتازا فى الغرب ، أصبح بارزا بين العصور بسبب الدروس المدهشة التى لقنتها استراتيجية المغول لعهد الفروسية الأوربية . فان حملاتهم تنافس ان لم تفق كل الحملات التى عرفها التاريخ ، سواء فى نطاقها ، وفى صفاتها ، وفى المفاجاءة ، وخفة الحركة ، وفى الاقتراب الاستراتيجى والتكتيكى غير المباشر . فاننا نستطيع أن نتتبع استخدام "جنغيزخان" و "تايتونج - فو" طعما لسلسلة من الحبائل التى نصبها فى فتحه بلاد الصين ، كما استخدم "بونابارت" بعده قلعة "مانتاو" . ثم انه بحركاته المترامية النطاق واشراكه ثلاثة جيوش معا تمكن فى آخر الأمر من تحطيم وحدة الأمبراطورية الصينية من الوجهتين

الأدبية والحربية . ولما غزى أمبراطورية "الخوارزم" فى سنة ١٢٢٠ التى كان مركز قوتها فى "تركستان" الحديثة أرسل قوة تستجلب نظر العدو وتحول فكره نحو الاقتراب من "قشغر" جنوبا . ثم ظهرت القوة الرئيسية فى الشمال . أما هو فقد استتر وراء عمليات هذه القوة ودار دورة شاسعة بجيشه الاحتياطى واختفى فى صحراء "قيزيل - قوم" وخرج منها بغتة فى "بخارا" وراء خطوط العدو الدفاعية ووراء جيوشه .

وفى سنة ١٢٤١ خرج "صابوتاى" ، أحد قواد "جنغيزخان" ليلتقى دروسا على أوربا . فسار جيش من جيوشه مخترقا "غاليسيا" بصفته حرسا جانبيا استراتيجيا فاستلفت أنظار أعدائه البولنديين والألمان والبوهيميين واجتذبها اليه علاوة على انزال هزائم بهم كانت موفقة . فى حين أن الجيش الرئيسى سار فى ثلاث قولات كل منها منفصل عن الآخرين بمسافة واسعة واكتسح بلاد المجر (الهنجار) حتى وصل الى نهر "الدنوب" . فكان القولان الخارجيان بمثابة وقاية وستر للقول الثالث الوسطى فى بادئ الأمر الى أن اتسع المجال للقول الثالث فيما بعد وسهلت حركته . وبعد ذلك تجمع الجيش كله والتقى على نهر "الدنوب" بالقرب من "جران" ، ولم يعقه عن موالاة الزحف الا تجمع الجيش المجرى على الشاطئ الآخر . فتقهقر المغول تدريجيا بمهارة فائقة مستدرجين عدوهم من ملجئه على النهر فأبعدوه عنه وعن وصول المدد اليه .

وأخيرا قام "صابوتاى" بمناورة ليلية سريعة وفاجأ الجيش المجرى على نهر "السوجر" فزحزحه من مكانه وأباده . فأصبح سيدا على سهول أوربا الوسطى الى أن تنازل من تلقاء نفسه بعد ذلك بسنة عما فتحه من البلاد . وكان لانسحابه دهشة وارتياح فى أوربا التى عجزت عن اخراجه بالقوة (*) .

(*) قد عالج المؤلف فى كتابه المسمى " كشف الستار عن كبار القادة " استراتيجية المغول وتكتيكاتهم بتفصيل واف ،

الباب الخامس

القرن السابع عشر — جوستافوس ، كرومول ، تورين

لقد جئنا الى أول "حرب عظمى" فى التاريخ الحديث . فقد حصل عرضا أن الذين يستعملون هذا العنوان للحرب التى وقعت فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ جاؤا متأخرين فى هذه التسمية التاريخية بعض التأخير . فان هذا الاسم حتى قبل ثلاثة قرون كان قد خلقت جدته من كثرة الاستعمال .

وحرب الثلاثين سنة لا تكشف عن حمله حربية يصح تسميتها حاسمة . وأقرب حملة فيها الى هذه التسمية هى المبارزة التى حصلت فى نهاية الأمر بين "جوستافوس" و"النشتاين" وهى التى بسبب موت "جوستافوس" فى المعركة النهائية التى وقعت فى "لوتسن" كانت حاسمة من وجهة أنها حالت دون امكان ، بل ودون احتمال قيام اتحاد بروتستانتى عظيم تحت زعامة سويدية . ولولا تدخل الفرنسيين واغتيال "والنشتاين" لكان من المحتمل أن تكون حاسمة فى تأسيس اتحاد ألمانى قبل حصوله بما ينوف على ثلاثة قرون . فهذه النتائج والاحتمالات التى كان بعضها حاسما ، لاشك فى أنها اكتسبت بطرق غير مباشرة . لأن المعركة النهائية وهى المعركة الحقيقية الوحيدة التى دارت رحاها ، انتهت بهزيمة الذين رجحت كفتهم فى الحرب بسببها ، وان كانت المعركة فى حد ذاتها ما زالت غير حاسمة . ومع ذلك فان هذه الهزيمة وان كانت ناشئة عن ضعف آلة "والنشتاين" الحربية بالنسبة لآلة السويديين من جهة ، فقد كانت من جهة أخرى بسبب عجز "والنشتاين" عن الانتفاع تكتيكيا بالفرصة الاستراتيجية التى كانت لديه . اذ لاشك أنه كان قد حصل على ميزة حقيقية جدا قبل المعركة . ومما هو جدير بالذكر أن ما تم كان نتيجة لا لاقتراب واحد غير مباشر فقط ، بل كان نتيجة لثلاثة اقترابات متوالية غير مباشرة — كانت فى الواقع سببا لتغيير مجرى الحرب بأجمعه . فان "والنشتاين" لما استدعاه ثانيا العاهل الذى كان أساء اليه ، ونزل الى أسفل درك فى استعطافه ورجائه لأن يتولى قيادة جيش لاوجود له ، جمع فى ظرف ثلاثة أسابيع نحو ٤٠,٠٠٠ جندى ممن يسلمون مقاليد أمورهم للأقدار ، اجتذبتهم أبهة اسمه . ثم انه بالرغم من التماس "بافاريا" العون منه اذ كان ، اذ ذاك جيش جوستافوس الظافر يكتسح أراضيها ، اتجه نحو الشمال قاصدا "السكسونيين" حلفاء "جوستافوس" الضعفاء . وبعد أن طردهم من "بوهيميا" تحرك نحو سكسونيا نفسها . حتى أرغم أمير "بافاريا" ، على غير رضاءه منه لأن يضم جيشه الى جيشه . وبذا كان يظهر أنه ترك "بافاريا" أعجز ما تكون عن الدفاع عن نفسها .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . وقد بررت الحوادث ماحسبه "والنشتاين" لأن "جوستافوس" لما أصبح مهددا بفقد حليفه الأصغر اضطر لأن يهجر "بافاريا" ويسرع لنجدة حليفه . غير أنه قبل أن يصل كان "والنشتاين" والأمير قد اجتمعا معا . فلما واجههما "جوستافوس" اضطر لأن يتقهقر الى " نورنبورج" ، فتبعه والنشتاين اليها . ولكنه لما رأى السويديين مستحكمين فى مواقع قوية قال لنفسه : « لقد وقع من المعارك ما فيه الكفاية . فقد آن الأوان لأن نجرب طريقة أخرى» . فبدلا من أن يضع جنوده الجديدة أمام السويديين الذين بقوا زمنا طويلا لم يغلبوا ، خندق فى موقع آمن يستريح فيه جيشه فيزداد ثقة يوما عن يوم بينما تستطيع فرسانه الخفيفة التحكم فى الخط التى يتمون منه "جوستافوس" . فلازم هذه الطريقة وهذا الغرض ولم يتحول عنهما .

وكلما طلبه " جوستافوس" الى النزال فى معركة أعاره أذنا صماء الى أن لاح شبح المجاعة أمام عين ملك السويد فحاول اقتحام موقع والنشتاين ولكنه أخفق وارتد خائبا . فكان هـذا الاخفاق حادثا سيئ الطالع من الوجهة العسكرية لا غير . أما من الوجهة السياسية فان جميع أنحاء أوروبا تجاوبت بأصدائه . لأنه وان لم يزحزح "جوستافوس" فقد أضر بتفوقه الأدبى الذى ناله بانتصاراته الكثيرة . وكان سببا فى افلات الولايات الألمانيـة من قبضته . أما "والنشتاين" فكان يجمع بين ادراك حقيقة قلة ما لديه من الوسائل ، وبعد النظر فى حساب الغاية « الاستراتيجية العظمى » .

فسار "جوستافوس" من "نورنبورج" نحو الجنوب قاصدا "بافاريا" مرة أخرى — أما والنشتاين فانه اتجه نحو الشمال قاصدا سكسونيا . فكان من شأن هذه الحركة الدالة على المقدرة أن أرجعت "جوستافوس" على عقبيه لفوره كما فعلت سابقتها . غير أنه جد فى سيره بهمة كبيرة فوصل قبل أن يتمكن "والنشتاين" من ارهاب السكسونيين وعقد صلح منفصل معهم . فنشبت بين الفريقين معركة طاحنة قاتل فيها كل منهما قتال اليأس وانتهت بأن استرد الجيش السويدى هزيمته الاستراتيجية بفوز تكتيكى . على أن ثمن هذا الفوز كان موت قائده وسقوط مشروعه وهو ايجاد اتحاد بروتستانتى تحت ادارة سويدية . واستمرت الحرب بعد ذلك ست عشرة سنة أخرى بلغ فيها الاعياء والملل منتهاهما وتركت ألمانيا صحراء قاحلة . وأسلمت فرنسا زمام قياد أوربا السياسى .

والتناقض البارز بين الحروب الأهلية التى وقعت فى بريطانيا العظمى سنة ١٦٤٢ — ٥٢ وحروب القرن السابع عشر فى قارة أوربا ، الذى اعتاد المؤرخون أن يشيروا اليه ، هو فيما امتازت به الأولى من تلك الروح التى كانت ترغم على البت والحسم . فالروح التى كانت سائدة فى بلاد الانجليز مدة دوام هذا النضال العظيم الأخير هى التى عبرت عنها خير تعبير «مذكرات

فارس» (كافالير) حيث جاء فيها — «اننا لم نقم فى معسكر ولم نتحصن مطلقا ... ... ولم نقبع وراء سياج من الأنهر أو المضايق ، والقول المشهور فى مدة تلك الحرب هو — أين العدو ؟ دعنا نسير اليه ونقاتله »

ومع ذلك فان الحرب الأهلية الأولى استطال أمدها مدة أربع سنين دون أن تقع فيها معركة حاسمة حقيقية ، الا من الوجهة التكتيكية . ولما آذنت بالانتهاء فى سنة ١٦٤٦ غادرت جمر الملوكية خابيا تحت الرماد الى أن وقع الشقاق بين الظافرين فأذكى أوارها وأوقد لهيبها من جديد فثاورت مرة ثانية بعد الأولى بسنتين بأشد مما كانت عليه الأولى من العنف .

واذا بحثنا عن سبب انعدام الحسم بالرغم من أن روح الحسم كانت بادية فاننا نلاحظ أن الحملات العسكرية كانت عبارة عن زحف مباشر متكرر يقوم به هذا الفريق أو ذاك على الآخر يتخلله أحيانا ما قد يسمى فى عرف الاصطلاح الحديث عمليات "التشطيب" التى لم يكن لها سوى أثر زائل — كل ذلك بثمن هو استنزاف القوى .

ففى بادئ الأمر كانت قوات الحزب الملكى متخذة قواعدها فى البلاد الغربية والمتوسطة . أما الحزب البرلمانى فكانت قاعدته لندن . وأول زحف على لندن قام به الملوكيون انتهى بخيبة ليس بعدها خيبة فى "تورنهام جرين" وعار ما بعده عار . حتى ان هذه الخاتمة كثيرا ما وسمت باسم "فالمى" الحزب الأهلية . وهى نتيجة أدبية لمعركة "إدجهل" التى سالت فيها الدماء أنهارا ولم تكن حاسمة ، وهى المعركة التى نشبت بين الجيشين الرئيسيين أثناء الطريق . ومن ذلك الحين أصبحت "أكسفورد" وما حواليها من المدن هى المحور المستحكم الذى تدور حوله جنود الملوكيين . وبقى الجيشان المتحاربان على حافة هذه المنطقة مدة طويلة يواجه أحدهما الآخر بلا أثر يذكر ، بينما كان النضال سجالا بين القوات المحلية والأقسام المنفصلة الموجودة غربا وشمالا . وأخيرا اضطر الجيش البرلمانى الذى كان تحت إمرة "إسكس" أن يزحف فى شهر سبتمبر سنة ١٦٤٣ لخلاص "جلوستر" وفك الحصار عنها لما أصابها من الضيق . فدار دورة ضيقة مارا بجناح منطقة "أكسفورد". فتمكن بذلك الملكيون من سد الطريق أمامه . فعاد الجيشان واصطدما اصطداما مباشرا فى "نيوبرى" لم يسفر عن نتيجة حاسمة . فكان من الطبيعى والحالة هذه أن ينتهى هذا النضال المتعب على أثر ذلك الاصطدام لولا الخطأ السياسى الذى وقع فيه "شارلس" بعقده هدنة مع العصاة الايرلنديين كانت فى ظاهرها ترمى الى اخضاع انجلترا البروتستانتية لكاثوليك ايرلنده . فجاءت على العكس اذ أتت من الجهة الأخرى بأسكولنده البرسبتيرية وألقتها فى جانب البروتستانت ضد الملوكيين . ولما زحف جيش اسكتلندا لقتال الملوكيين الموجودين بالشمال ، عاد البرلمان وحشد قواته للزحف على منطقة "أكسفورد" مباشرة . فلم يأت هذا الزحف بنتيجة أكثر من احتلال بعض قلاع متطرفة . وفى الحقيقة فان الملك استطاع أن يبعث "روبرت" ليحتشد

مع الملوكيين الموجودين بالشمال على جناح السرعة لمقاومة الاسكتلنديين . ولكن لسوء حظه جاءت الهزيمة التكتيكية التى حلت بجنوده فى "مارستون مور" فأبطلت تأثير هـذه الفرصة الاستراتيجية وزيادة . على أن الظافرين لم يستفيدوا الا قليلا . فان عدم تأثير الحركة الرئيسية التى وجهت الى "أكسفورد" مباشرة أحدث الفزع والفرار بين جنودهم ، حتى انه لولا وجود رجال صادقى العزيمة من أمثال "كورمول" لانتهت بعقد صلح بدافع السآمة من الحرب . ولكن من حسن حظ البرلمان كانت قضية الملوكيين آخذة فى التدهور والسقوط من الداخل أكثر بكثير مما كانت بسبب الضربات الموجهة اليها من الخارج ، وعلى ذلك فانها أصبحت عدوا ضعيفا أدبيا وماديا من الوجهة العددية . ولم يحفظها من السقوط كل هـذه المدة سوى خطأ استراتيجية البرلمان ، الى أن جاء "فيرفاكس" و "كورمول" بجيشهما الحديث الذى كان نموذجا يقتدى به فتغلبا عليها فى "ناسيبى" فى سنة ١٦٤٥ وبالرغم من ذلك فان هذا الانتصار التكتيكى الحاسم لم يمنع الحرب من البقاء سنة أخرى .

وعند ما ننتقل الى الحرب الأهلية الثانيـة نجد صورة غير التى شاهدناها فيما مر ، تتمثل فيهـا العبقرية المسيطرة فى شخص "كورمول" . فان "كورمول" و "فيرفاكس" بدلا من أن يزحفا على اسكتلندا ، بل وبدلا عن محاولتهما لقاء جيش اسكتلندا الغازى ، أسرعا بالحركة ليقضيا على الثورات الداخلية فى بلاد الانجليز . بينما بقى "لامبرت" أمام الاسكتلنديين ليؤخر زحفهم ويتقهقر أمامهم ببطء . والأمر الذى أصدره "كورمول" "بالمعالجة" جدير بالتنويه فى هذا المقام نظرا للعقيدة القائلة ، ما دام ، واذا كان ، العدو الرئيسى قد قضى عليه فلا بأس من ترك الأعداء الصغار ليسقطوا من تلقاء أنفسهم . لأن المرء يجد مع الدهشة أنه من الصعب وجود مبرر تاريخى يبرر هـذه القاعدة ، المنطقية فى ذاتها ، كما هو من السهل وجود أمثلة لعكسها كللت بالنجاح .

وأخيرا لمـا سقطت "بمبروك" فى ١١ يوليه سنة ١٦٤٨ صار فى استطاعة "كورمول" أن يتحرك شمالا . على أنه بدلا من أن يزحف لملاقاة الاسـكتلنديين مباشرة وهم هابطون بطريق الساحل الغربى ، سار على منحن واسع عن طريق "نوتنجهام" و "دونكاستر" ثم اتجه شمالا — بغرب ليلتقى "بلامبرت" فى "أوتلى" على جناح الجيش الاسكتلندى — الذى كان منتشرا بين "ويجان" و "برستون" ويستر جناحه الأيسر بفيلق مؤلف من ٣,٥٠٠ جندى تحت امرة "لانجديل" . وكان لدى "كورمول" من الجند ما لا يزيد عن ٨,٦٠٠ بمـا فيها فرسان "لامبرت" وميليشيه "يوركشير" مقابل ٢٠,٠٠٠ للعدو . ولكن هبوطه على مؤخرة قول الاسكتلنديين فى "برستون" زعزع موازنته واضطره لأن يدور ويقابل "كورمول" جزءا جزءا على التوالى . فانهزم فيلق "لانجديل" فى "برستون مور" . وبعـد ذلك ضغط "كورمول" على هذا القول متعقبا اياه بعنف فاكتسحه أمامه وطرده من خلال "ويجان" ،

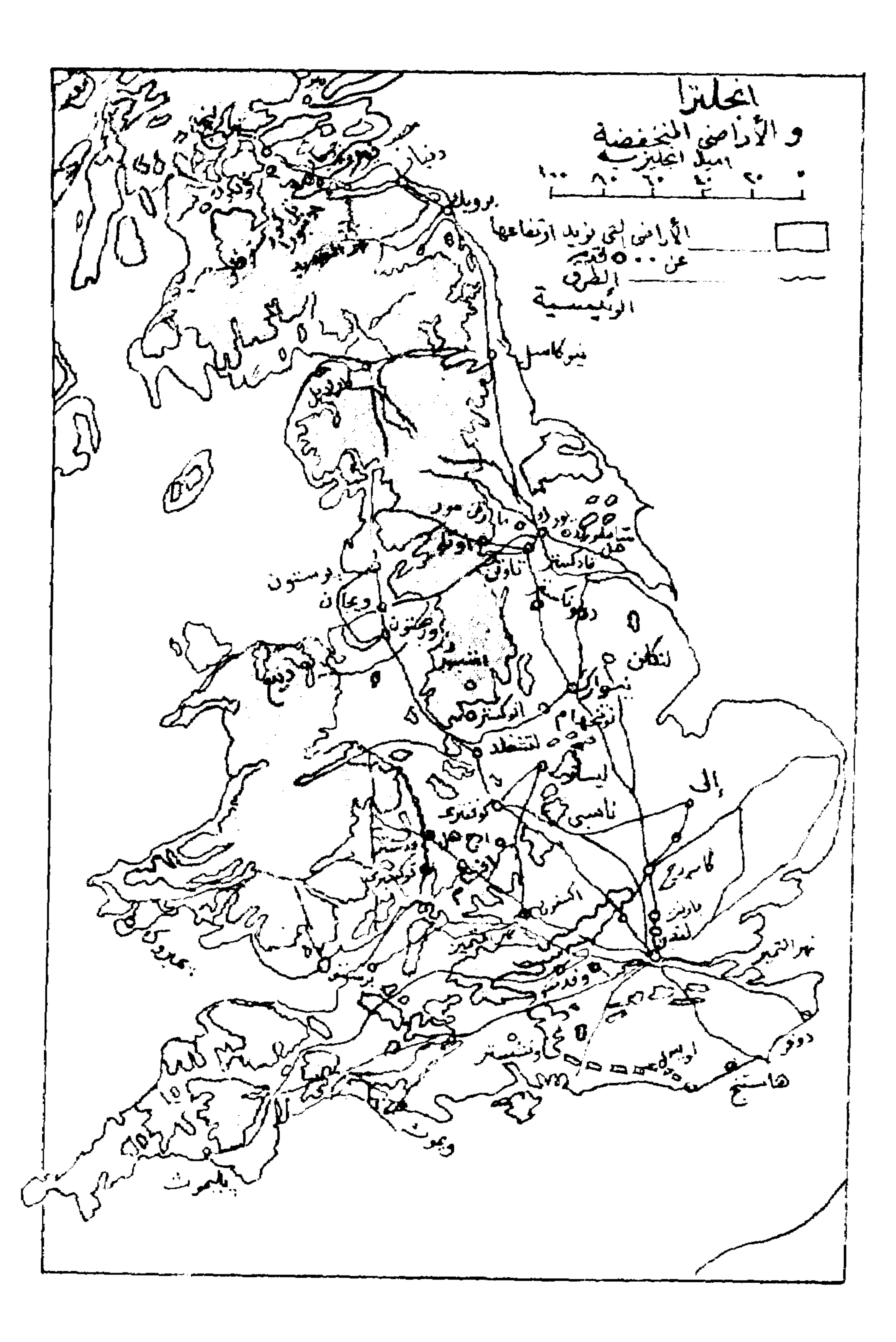
و"اتوكستر" و"اشبورن" . وهناك صادمته من الأمام مليشيا الأراضى الوسطى . فكان لتوقيف المـايشيا له من الأمام وضغط فرسان "كرومول" من الخلف من الأثر ما ألجأه الى التسليم فى ١٥ أغسطس . وقد كان هذا النصر حاسما . فانه لم يقتصر على سحق أعداء البرلمـان ، بل مكن الجيش من "تطهير" البرلمـان ، ومن محاكمة الملك واعدامه .

أما غزو اسكتلندا ، بعد ذلك ، فهو فى الواقع حرب قائمة بذاتها شنتها السلطة الجديدة التى توطدت الآن ، لإفساد الخطة التى رسمها ابن الملك ، وهو "شارس الثانى" لاسترجاع العرش المفقود بمساعدة اسكتلندا وقتلها فى مهدها . فهى لذلك لا تدخل فى فئة الحملات التى كان لهـا أثر حاسم على مجرى التاريخ . وهى فى نفس الوقت تشتمل على أدلة تستحق الذكر على عظم درجة تشبع كرومول باستراتيجية الاقتراب غير المبـاشر . فانه لمـا وجد الجيش الاسكتلندى تحت امرة "ليزلى" متخذا موقعا يعترض طريقه الى "ادنبورا" ، اقتنع بأن موقف "ليزلى" كان قويا بمجرد مناوشة قام بها للاتصال به . ومع أنه كان على مرأى من غايته التى يقصدها كان لديه من ضبط النفس ما أدى به الى التقهقر الى "مسلبورو" . ولمـا تحرك "ليزلى" متقدما للقائه أبى أن يشتبك معه فى معركة . وبدلا من ذلك صرف لجنوده مؤونة ثلاثة أيام تمهيدا لمناورة واسعة النطاق يجتاز بها التلال الى "ادنبورا" ويأتى على مؤخرة العدو . وعند ما توفق "ليزلى" الى التحرك وسد الطريق أمامه فى تل "كورستوربهاين" فى ٢١ أغسطس سـنة ١٦٥٠ مجتازا البلاد الى ذلك التل مباشرة ، ما كان من "كرمول" الا أن بحث عن طريق آخر يقترب منه ، مع أنه كان اذ ذاك بعيدا عن قاعدته فقام بمناورة الى يمينه فوجد "ليزلى" معترضا طريقه مرة أخرى فى "جوجبار" فى ٢٢ أغسطس . فمعظم الرجال كانوا فى تلك الحالة يجازفون بالاقدام على معركة مباشرة . ولكن "كرمول" لم يفعل ذلك . بل انه استبعد خسائره — من المرضى بسبب التقلبات الجوية والتعب — ثم رجع الى "مسلبورو" ومنها الى "دنبار" مجتذبا "ليزلى" وراءه . ومع ذلك فانه أبى أن يركب جيشه السفن كما ألح عليه كثير من ضـباطه بل انه انتظر فى "دنبار" حتى تحرك أعداؤه فى ٢ سبتمبر ليقطعوا عليه خط رجعتـه الى "برويك" — وبذلك جاء عرضا أنهم أوجدوا "كرمول" على خط رجعتهم هم . وفى صبيحة اليوم التالى قام باقتراب تكتيكى غير مباشر فاجأ به العدو واكتسحه مع أن قوته كانت ضعف قوة "كرمول" . وبذا اختتم بالنصر حملة أبى فيها كل إغراء على ترك استراتيجيته المنطوية على الاقتراب غير المباشر مجازفا فى ذلك على ما يظهر حتى بطالعه وحظه .

وقد مكنت "دنبار" "كرومول" من السيطرة على جنوب اسكتلندا . وابادة جيش الكنيسة وإزالة المتعاهدين من حساب الحرب باعتبارهم عاملا سياسيا . ولم يبق فى الحساب

المقابل سوى العنصر الملوكى من "الهـايلند" (الأراضى المرتفعة) . وقد تأخرت اجراءات التسوية بسبب المرض العضال الذى أصاب "كرومول" . وفى نفس الوقت توفرت لدى "ليزلى" فرصة استفاق فيها ونظم الجيش الملوكى الحديث ودربه فيما وراء نهر "الفورث" .

وعند ما نقه "كرومول" من مرضـه فى أواخر يونيه سـنة ١٦٥١ وأصبح يستطيع استئناف العمليات واجهته معضلة . وحله للمسائل التى تنطوى على الدهاء ومهارة التقدير مما يقبل المقارنة مع أى تفصيلات استراتيجية رواها تاريخ الحرب . فهو الآن وان كان التفوق قد أصبح فى جانبـه لأول مرة أمامـه خصم واسع الحيلة والدهاء مستقر فى جهـة كثيرة المستنقعات تتوافر فيها كل المزايا الطبيعية التى تمكن الجانب الأضعف من سد طريق الاقتراب الى "ستيرلنج" . وما لم يتمكن "كرومول" من التغلب على المقاومة فى مدة قصيرة لا بد له من قضاء شتاء صـارم آخر فى اسكتلندا فتتكبد جنوده من الشقاء ما لا مفر منه ، مع احتمال ازدياد المصاعب فى بلاد الوطن . ثم ان اخراج العدو من مكانه لا يكفى لأن الفوز الذى لا يكون تاما لا ينتج عنه الا تشتت العدو فى النجود المرتفعة فيبقى له بمثـابة شوكة فى جنبه . فلنراقب تفصيلات خطة " كرومول " . فهو أولا يهدد " ليزلى " من الأمام و يقتحم "كالندر هاوس" بالقرب من "فولكرك" . ثم ينقل جيشه بأجمعه عبر خليج "فورث" الى جانبه الآخر مرحلة بعد أخرى و يسير الى "پيرث" . وبذا لا يقتصر على الالتفاف حول الحاجز الدفاعى الذى يعترض طريق الاقتراب المباشر الى "ستيرلنج" ، بل يستولى أيضا على مفتاح الاقليم الذى يستورد "ليزلى" منه مؤونته . على أنه بهـذه المناورة قد ترك الطريق الى لندن مفتوحا . وهنا يظهر ما بلغته خطة "كرومول" من سمو التدبير ومنتهى اتساع الحيلة . فهو الآن على مؤخرة العدو المكشوفة وهذا العدو مهدد بالمجاعة وفرار رجاله — فترك له منفذا واحدا مفتوحا . وقد قال واحد من الأعداء : " لا بد لنـا من الموت جوعا ، أو التشتت والتفرق ، أو السير الى انجلترا بحفنة من الرجال . وهذا الرأى الأخير أقلها ضررا ومع ذلك يظهر أنه مقطوع الأمل للغاية " . وقد اختاروا هـذا الرأى الأخير بطبيعة الحال ، ففى ٣١ يوليه شرعوا فى المسير جنوبا قاصـدين بلاد الانجليز . أما "كرومول" فكان قد تنبأ بذلك وأعد ما يلزم للقائهم بمساعدة رجال الحكومة فى " وستمنستر" . فاستدعيت المليشيا فى الحال . ووضع كل المشتبه فى أنهم ملوكيون تحت المراقبـة ، وضـبطت الأسلحة المخبأة . أما الاسكتلنديين فانهم استأنفوا المسـير سالكين طريق الساحل الغربى . فأرسل "كرومول" فرسان "لامبرت" وراءهم بينما تحرك "هاريسون" بالميل من "نيوكاسل" الى "ورنجتون" . ثم تحرك "فليتوود" شمـالا بمـاليشية البلاد الوسطى . فتسلل "لامبرت" من حول جناح العدو ، وبعد أن التقى "بهاريسون" فى ١٣ أغسطس شرع كلاهما فى مقاومة العدو الغازى مقاومة مرنة القصد منها تأخير تقدمه . وفى نفس الوقت كان "كرومول" يجد السير هابطا



انجلترا
و الأراضي المنخفضة
اميال انجليزيه
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠
الأراضي التي تزيد ارتفاعها
عن ٥٠٠ قدم
الطرق
الرئيسية
نيوكاسل
لنكلن
كامبردج
لندن
نهر التيمز
دوفر
هاستنج
بليموث

على طريق الساحل الشرقى ويقطع ٢٠ ميلا فى اليوم فى قيظ أغسطس . ثم انه تحول نحو الجنوب الغربى . وبهذه الوسيلة كانت أربع قوات مختلفة تجمع لتتلاقى مع الغزاة الذين أصبحوا فى شرك. حتى ان تحول "شارلس" عن الطريق الموصل الى "لندن" واتجاهه نحو وادى "السفرن" لم يحدث الا تأخير بضعة أيام فلم يعق انضمام هذه القوات حاصرة بينها العدو كالفكين المنطبقين . وفى يوم ٣ سبتمبر وهو يوم ذكرى "دنبار" السنوية نشبت معركة "ورسستر" وكانت نتيجتها « رحمة كرومول الختامية » .

أما سلسلة الحروب التى وقعت فى الفترة بين ختام حرب الثلاثين سنة وبدء حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وهى الحروب التى كانت جيوش "لويس الرابع عشر" تلاقى فيها معظم الجيوش الأوربية الأخرى ، متجمعة أو بالدور ، فانها تمتاز بعدم حاسميتها . اذ كانت المقاصد فيها محدودة ، وكذلك أغراضها الحربية . على أن هناك سببين قويين من أسباب عدم الحاسمية والفصل فى تلك الحروب هما : أولا أن تطور الاستحكامات وتقدمها فاق تطور الأسلحة وزاد الدفاع قوة مثل القوة التى رجعت له فى القرن العشرين بتطور المدافع الرشاشة ورقيها . وثانيا أن الجيوش لم تكن اذ ذاك قد نظمت وقسمت الى أجزاء كل منها مستقل بذاته من حيث الكفاية . بل كانت تتحرك وتقاتل عادة قطعة واحدة . وتلك حالة تقلل مقدرتها على "تشتيت" فكر العدو — وخدعه والتضييق على حرية حركاته . ولم تقع فى كل الحروب التى أعقب بعضها بعضا المسماة حرب "الفروند" و "حرب الانتقال" والحرب "الهولندية" و "التحالف الكبير" كل هذه لم تقع فيها الا حملة واحدة كانت حاسمة وحسمها قاصر على محيطها . هى الحملة التى قام بها "تورين" فى شتاء ١٦٧٤ — ١٦٧٥ وانتهت بانتصاره فى "توركهايم". فقد كان الوقت عصيبا فى فرنسا لأن حلفاء "لويس" هجروه وتركوه الواحدة بعد الأخرى وانضم الأسبانيون ، والهولانديون ، والدنماركيون ، والنمساويون ، وأغلب أمراء الألمان ، الى دول الائتلاف المعادية له ، وقد اضطر "تورين" لأن يرجع وراء نهر "الرين" بعد ان ترك بلاد "البلاتينات" خرابا . وكان أمير "براندنبورج" يتجمع أى يسير للانضمام الى الجيش الامبراطورى تحت قيادة "بورنونفيل" . وبعد أن صد "بورنونفيل" فى إنسهايم فى أكتوبر سنة ١٦٧٤ قبل أن ينضم اليه الأمير ، اضطر لأن يرجع الى "دتوايلر" فى حين كان الألمان قد انشروا فى بلاد "الألزاس" واستقروا فى المدن الواقعة بين "ستراسبورج" و "بلفور" لقضاء فصل الشتاء فيها . وهنا تهيأ المسرح "لتورين" يمثل عليه أبدع أعماله . وأول ما فاجأ به عدوه هو أنه صمم على السير بحملة فى منتصف فصل الشتاء . ثم انه هيأ القلاع الموجودة فى منتصف اقليم "الألزاس" للدفاع لكى يخدع عدوه. وبعد ذلك سحب جيش الميدان بأجمعه الى اقليم "اللورين" فى سكون وبغير جلبة . ثم سار مسرعا نحو الجنوب واختفى وراء مرتفعات جبال "الفوذج" آخذا معه كل ما كان موجودا

من جنود المــدد . وفى آخر مرحلة من مراحل حركته فرق قوته وقسمها أقساما صــغيرة ليضلل جواسيس العدو . وبعد سير شاق من خلال التلال وفى عواصف الثلوج أعاد جمع جيشه بالقرب من "بلفور" وأطلق جنوده تنساب متدفقة الى مقاطعة "الألزاس" من الجنوب . بعــد أن كان خرج منها من جهة الشمال . وهنا أراد "بورنونفيل" أن يوقفه فى "مولها وزن" فى ٢٩ ديسمبر مستخدما لايقــافه الجنود التى كانت موجودة بالقرب منه ولكن "تورين" اكتسحها أمامه وأزالهــا عن طريقه . ومن هناك اندفع سيل الفرنسيين صاعدا الى أعلى الحوض الكائن بين جبــال القوزج ونهر "الرين" طاردين أقسام جنود الامبراطور بين المتفرقين هنا وهناك . ودافعينهم شمالا نحو "ستر اسبورج" وكل قسم يبدى مقاومة يباد ويتلف. وفى "كولمــار" . فى منتصف الطريق الى "استراسبورج" كان الأمير الذى صار الآن قائد الألمــانيين قد أقام سدا نهائيا تحميه قوة تعادل قوة "تورين" . على أن القوة الدافعة كانت لدى "تورين" من الوجهتين المــادية والأدبية وقد حافظ عليها بمهارة بأن اقترب اقترابا تكتيكيا غير مباشر فى ميدان "توركهايم" . وكان "تورين" لا يرمى الى اتلاف الجيش المقاوم وإبادته بقدر ما كان يرمى الى "تصفية" المقاومة المشتتة . وترك النتائج الطبيعية تكمل انحلال العدو . وقد نجح فى ذلك الى درجة أنه استطاع أن يقول فى تقريره بعــد ذلك ببضع أيام انه لم يبق فى الألزاس جندى واحد من جنود العدو . وبعد ذلك استراح الفرنسيون فى ثكنات الشتاء فى "ســتراسبورج" وكانوا يستوردون مؤونتهم بكثرة من الشاطئ الألمــانى لنهر الرين . بل ومن بقية الأراضى حتى نهر "النكار" . أما الأمير فانه رجع الى "برندنبورج" مع من تبقى من جنوده ، واستدعى "مونتى كوكولى" ، منافس "تورين" القديم ، لتولى قيادة المقاومة الامبراطورية . وهذا أيضا استدرج بالمناورات الى موقع على نهر "الساسباخ" لم يكن فى صالحه . على أن "تورين" أصابته طاقة مدفع فى فاتحة القتال أردته قتيــلا . وبسقوطه انقلبت كفة الحرب ثانيا .

فما هو السبب فى كون هذه الحملة التى قام بهــا "تورين" فى فصل الشتاء جاءت حاسمة . مخالفة لبقية حملات القرن السابع عشر فى قارة أوربا مخالفة تستوجب الدهشة؟ السبب فى ذلك هو أن قادة ذلك العصر ، بالرغم ممــا كانوا عليه من قصر مرمى النظر ، كانوا على مهارة تامة بالمناورات . ولكنهم كانوا أكفاء فى هــذا الفن حتى ان الحركات الجانبية التى كان يحتمل أنهــا تنجح فى الأعصر الأخرى ، كانت تُتقى بحذق نادر فلم يحصل أن تزحزح "نظام" الخصم الا مرة واحدة . وقد اشتهر "تورين" بأنه القائد الكبير الوحيد الذى أخذ يتمشى فى الرقى مع العصر . ومما لا شك فيه أن كونه قد توصل فى آخر حملاته الى حل مسألة الحصول على الحسم والفصــل فى حروب القرن السابع عشر ، والكيفية التى توصل بهــا ، بعد أن تولى القيادة

فى حملات أكثر من أى قائد آخر فى التاريخ لها مغزى خاص . لأنه توصل الى ذلك دون أن يخرج على القاعدة « الذهبية » فى تلك الأيام — وهى أن الجنود المدربين تدريبا عاليا لهم من القيمة ما لا يسمح بالاسراف فيهم .

فمن الواضح والحالة هذه أنه توصل الى ذلك بتجاربه التى دلته على أنه فى مثل هذه الظروف لا يمكن الحصول على نتيجة حاسمة إلا بخطة استراتيجية يكون فيها الاقتراب غير مباشر ، من أوله ، بكيفية أكثر مما سبق التفكير فيه . أى بكيفية لم يسبق أن طرأت على فكر أحد . وعلى ذلك فهو فى العصر الذى كانت فيه كل المناورات تؤسس على مراكز تتحرك حولها وهى القلاع التى كانت عبارة عن مستودعات محمية للمؤن التى تعيش عليها جيوش الميدان . فى ذلك الوقت انفصل هو عن قاعدة عملياته و لجأ الى المفاجأة وخفة الحركة لا للحصول على الحسم فقط ، بل لضمان سلامته أيضا . ولقد كان حسابه مصيبا ، لا مجازفة . لأن زحزحته للعدو من كل الوجهات العقلية ، والأدبية ومن حيث علم تحركات الجيوش وتموينها ، كل هذه قد كفلت له السلامة المؤكدة فى كل عملياته .

الباب السادس

القرن الثامن عشر — مارلبورو وفردريك

ان حرب ارتقاء عرش أسبانيا (سنة ١٧٠١ — ١٧١٣) هي الحرب الأوربية العامة ، أى "الحرب العظمى" الثانية فى التاريخ الحديث . ومن الغريب أن هذه الحروب العظمى كانت تتكرر وبين الواحدة منها والأخرى مدى قرن واحد . فان أوائل القرن السابع عشر شاهدت بدء حرب الثلاثين سنة ، وأوائل القرن الثامن عشر شاهدت حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وفى ختام هذا القرن أضرمت الثورة الفرنساوية النار فى أوربا . على أن الذي أوصل النضال الى حده انما هو تهديد نابليون فى العشرين الأولى من سنى القرن التاسع عشر . وفى العشر السنين الثانية من القرن العشرين جاءت أشد الحروب هولا فى هذه " الحروب العظمى " .

فحرب ارتقاء عرش أسبانيا تمتاز بغرابتها بأن كانت بين فريقين اثنين . فهى سياسيا كانت حالة متطرفة من حالات " الحرب المحدودة الغاية " من جهة . ونضالا حاسما لتأييد سيادة الدولة الفرنسية تحت حكم لويس الرابع عشر أو تحطيمها من جهة أخرى . أما من الوجهة الاستراتيجية فكانت تشتمل بصفة رئيسية على سلسلة من الاقتراب المباشر التى لاطائل تحتها . أو تكاد تكون تحركات غير مباشرة لا تزيد نتائجها عن تلك . ومع ذلك فكانت تتخللها عدة من حالات الاقتراب غير المباشر الباهرة . وهذه كان يقترن أغلبها باسم "مارلبورو" الذائع الصيت . والمهم فى هذه الحالات هو أنها كانت تبين مواضع الانقلابات التى كانت تطرأ على الحرب .

والدول التى ائتلفت ضد فرنسا وتألبت عليها كانت تشمل النمسا ، وبريطانيا العظمى ، وعدة من الولايات الألمانية ، وهولندا ، والدانمارك ، والبرتغال ، فى حين ان التعضيد الرئيسى الذى لقيه " لويس" الرابع عشر جاء من أسبانيا ، وبافاريا ، ومن سانوى فى بادئ الأمر . وافتتحت الحرب فى ايطاليا الشمالية بينما كانت الجيوش الأخرى تتأهب وتستعد . أما النمساويون فقد تجمعوا تحت قيادة " أوجين " فى مقاطعة " التيرول " . وقام " أوجين " بالاستعدادت لزحف مباشر مع التظاهر والفخفخة ، كانت نتيجته أن قام الجيش المقاوم له الذى كان تحت قيادة " كاتينات " باتخاذ وضع يسد به طريق " أوجين " فى مضيق " ريفولى " . على أن أوجين كان قد استكشف سرا ممرا وعرا بين الجبال لم تسلكه جنود منذ زمن طويل ، وهبط الى السهول بعد ان دار دورة واسعة نحو الشرق . فحافظ على ميزته

واستمر فى الضغط بعدة مناورات كان من شأنها ان شتتت أفكار خصمه وحولتها عما كان يرمى اليه . وأخيرا استجلبه للهجوم عليه فى "كيارى" هجوما كان كارثة على الخصم فوطد مركزه فى ايطاليا الشمالية . ونتيجة هذا الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على زيادة القوة المعنوية لدى الحلفاء بوجه عام فى أوائل نضالهم مع جيوش "الملك العظيم" التى "لا تغلب" فحسب ، بل انها كانت ضربة على قوة فرنسا واسبانيا فى ايطاليا لم يستفقا منها . وكانت لها نتيجة من الأهمية بمكان هى أن دوق "سافوى" الذى كان بطبيعته تتبع الجانب الأقوى تحوّل الى جانب الحلفاء .

وفى سنة ١٧٠٢ ابتدأ النضال الرئيسى .فتجمع أكبر الجيوش الفرنساوية فى "فلاندرز" حيث كان الفرنساويون قد حصنوا " خطوط برابانت " البالغة ٧٠ ميلا طولا من "انتورب" الى "هوى" بالقرب من "لياج" ليؤمنوا مؤخرة زحفهم الذى نووه . أما الهولنديون فبمجرد ماراوا أن الغزو يهددهم لم يفكروا فى شيء سوى الاقامة فى قلاعهم فلا يبارحونها . على أن " مارلبورو " كانت له فكرة عن الحرب تخالف هذه . فهو لم يقتصر على استبدال هذه المدافعة السلبية بحركة تعرضية مباشرة ضد الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة " بوفلير " الذى كان سائرا اذ ذاك الى نهر الرين . بل انه بدلا من ذلك كشف القلاع وأسرع بالحركة قاصدا "خطوط برابانت" وخط رجعة "بوفلير" . فما كان من "بوفلير" الا أن شعر بجذب هذه " الأنشوطة " الأدبية فأسرع بالرجوع . ولما كان الجيش الفرنسى قد أعياه التعب جثمانيا وتزعزعت قواه المعنوية فانه كان قد أوشك أن يقع فريسة " لمارلبورو" الذى كان على استعداد لأن يتلقاه بين ذراعيه اولا أن نواب الهولنديين داخلهم الفزع واكتفوا بنجاة بلادهم من الغزو ، فنهوا عن الاشتباك فى معركة لإنهاء النضال . وقد أوقع " مارلبورو" "بوفلير" فى شرك مرتين أخريين فى هذه السنة وفى كل مرة منهما كان الهولنديون يخلصون " بوفلير " من الشرك . وفى السنة التالية وضع " مارلبورو" خطة تدل على الدهاء لمناورة يستولى بها على "انتورب" فيحطم ذلك الحاجز المنيع . فانه استدرج الجيش الفرنسى الى شرق "انتورب" ثم تخلص منه وأسرع يتسابق نحو الغرب الى "انتورب"— ولكنه وجد أن القواد الهولنديين قد أهملوا الاحتشاد فى الوقت المقرر — فأفسدوا عليه كل تصميمه . فاشمأز "مارلبورو" واكتفى بحرب الحصارات الصغيرة التى توافق أمزجة الهولنديين . غير أنه فى سنة ١٧٠٤ أبرز أسمى اقترابه غير المباشر .

وكانت جيوش العدو هكذا : واحد فى "فلاندرز" تحت قيادة " فيلليروى " . وواحد تحت قيادة "تالارد" على نهر "الرين" الأعلى بين "مانهايم" "وستراسبورج" وبينهما قوات صغيرة للاتصال . وواحد مؤلف من البافاريين والفرنسيين تحت قيادة أمير " بافاريا " "ومارسين" بالقرب من "أولم" ونهر الدنوب . وهذا الجيش الأخير كان مندفعا الى الأمام من بافاريا يهدد "فينا" . فرسم " مارلبورو" خطة تنطوى على تحويل القسم الانجليزى من

جيشه عن وجهته من نهر "الموز" الى نهر " الدنوب " ، تاركا الهولنديين وراءه . ثم انزال ضربة حاسمة بالبافاريين الذين هم الشريك الأصغر فى العدو . فهذه الحركة البعيدة المرمى المتجهة نحو نقطة تبعد عن قاعدته هذه المسافة الشاسعة ، كما تبعد عن المصالح المباشرة التى كان يحافظ عليها جهة الشمال ، كانت حركة جريئة بموجب كل قاعدة . ولكنها كانت أكثر جراءة بموجب الاستراتيجية المبنية على الحذر التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . أما سلامتها فكانت منحصرة فى التأثير الذى أحدثته مفاجأتها للعدو فزحزحته . ولما تحرك نحو الجنوب هابطا نهر "الرين" كان الظاهر أنه يقصد الجنود الفرنسية الموجودة فى ذلك الميدان . وقد أيد هذا الايهام الطبيعى بأن قام باستعدادات تدل فى ظاهرها على اقامة (أى بناء) جسر (كوبرى) على نهر "الرين" فى " فيليبسبورج " . ولكن عند وصوله الى " مانهايم " حيث يكون من الواضح أنه يتجه منها نحو الجنوب الغربى ، خالف ذلك الاتجاه واتجه نحو الجنوب الشرقى ثم اختفى فى وادى " النكار " صعدا . ومن هناك عبر قاعدة المثلث المكون من نهرى "الرين" "والدنوب" متجها نحو "اولم" . وبعد أن اتصل "بمارجراف" "بادن" و"أوجين" ، تحرك مع قوات الأول منهما بينما عاد الثانى ليعوق تقدم الفرنسيين أو ، على الأقل ، ليؤخرهم على نهر "الرين" — حيث كان " فيللروى " قد اقتفى أثر " مالبورو " من "فلاندرز" متأخرا .

على أن "مارلبورو" ولو أنه كان قد وضع نفسه على مؤخرة الجيش الفرنسى — البافارى بالنسبة لفرنسا ، فانه كان ما يزال أمام ذلك الجيش بالنسبة " لبافاريا " . فهذا الجوار الجغرافى الذى يكاد يكون تماسا هو وظروف ذلك العهد حالا دون استثماره مزايا خطته الاستراتيجية . وأحد هذه الظروف هو صلابة التنظيم التكتيكى للجيوش ، التى تجعل اتمام المناورة الاستراتيجية أمرا صعبا . فان القائد فى استطاعته أن يجر العدو الى الماء ولكنه لا يستطيع أن يرغمه على الشرب — أى انه لا يمكنه أن يرغمه على قبول المعركة على غير ارادته . وظرف آخر هو أن "مارلبورو" كان عليه أن يتبادل القيادة ، يوما بعد يوم ، مع "مارجراف" "بادن" الشديد الحذر .

وكان العدو مستحكما فى موقع قوى فى "أولم" على نهر الدنوب . فأراد "مارلبورو" فى بادئ الأمر أن يجد ممرا شرقى هذا الموقع يكون بغير حراسة ليمر منه ويأتى من وراء العدو . ولكنه بدلا من أن يجازف بزيادة التأخير بسبب حذر " المارجراف " اختار اليوم الذى يتولى فيه القيادة وقام فيه باقتحام أقسام العدو التى كانت تستر معبر "دوناو ويرث" اقتحاما كلل بالفوز وان كان غالى الثمن . على أن جيش العدو الرئيسى رجع سالما الى "أوجسبورج" . وعندها أخذ "مارلبورو" يخرب البلاد ليكون تخريبه لها دافعا لأمير بافاريا لقبول الشروط التى يفرضها عليه ، أو أن يقبل دخول معركة فى ظروف ليست فى صالحه . وهذه النية أفسدها ظرف آخر

من ظروف تلك الأزمان — ذلك هو أن الحرب من شؤون الحكام لا من شؤون الاهالى ، ولم يهتم الأمير بالمضايقات التى هى فى الدرجة الثانية . وعلى ذلك توافر الوقت لدى "تالارد" ليصل قادما من "الرين" . على أن وصوله قابله وصول "أوجين" الذى تجرأ وتسلل من أمام "فلليروى" لينضم الى "مارلبورو" . فتحرك كل من "مارلبورو" و"أوجين" زاحفين على الجيش المشترك بين "تالارد" و"مارسين" والأمير على غير انتظار . ومع أن المفاجاة لم تكن تامة ، الا أنهما صادفاهم فى "بلنهايم" وهم بأوضاع مرتكبة كان من شأنها أن أتاحت "لمارلبورو" الفرصة لزحزحتهم تكتيكيا . فكان من ثمرة هذا النصر أن استبعد الشريك الأصغر الذى هو "بافاريا" من الحرب نهائيا . فضلا عن تشتت جيشين فرنسيين وتمزيق "مناعة" جنودهم .

وبعد ذلك رجع "مارلبورو" الى "فلندرز" فانسحب منها الجيش الفرنساوى الى ماوراء "خطوط جيت" الجديدة — من "انتورب" الى "نامور" . وفى سنة ١٧٠٥ أيضا جر الجيش الفرنسى وأبعـده فى اتجاه ضال ثم رجع مسرعا واخترق قطاعا ضعيفا ولم يحل بينه وبين النصر سوى تثاقل الهولنديين . وفى حملة السنة التالية ابتكر "مارلبورو" اقترابا غير مباشر أبعد غورا من سابقه — لينضم الى "أوجين" فى ايطاليا ولكن جبن الهولنديين قيده فى "فلاندرز" . ومع ذلك فان نوبة الجراءة التى استولت على "فيلليروى" فجأة فدفعته الى المغامرة بالخروج من خطوطه المستحكمة قد مكنت "مارلبورو" من مقاطعته فى الطريق قبل أن يتمكن من الالتجاء الى قلاع "الموز" . وقد فعل ذلك "مارلبورو" دون أن ينتظر جنود حلفائه ليخرجوا معه . وفاز بالنصر فى "راميلليز" بفضل اقتراب تكتيكى غير مباشر باهر . واستغل هذا النصر بأن تعقب العدو تعقبا أدى الى سقوط كل بلاد "فلاندرز" و"برابانت" فى قبضة يده . وفى نفس هذه السنة انتهى الحرب فى ايطاليا فعلا بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر . ذلك أن "أوجين" أرغم فى بادئ الأمر على التقهقر حتى وصل الى بحيرة "جاردا" ومنها الى الجبال ، بينما كان حليفه ، دوق "سافوى" محصـورا فى "تورينو" . "فأوجين" بدلا من أن يحاول أن يشق طريقة حربا تفوق على خصمه فى المناورات وتسلل منه وانفصل من قاعدته وتركها ثم والى الضـغط حتى نفذ من "لومبارديا" الى "بيمونت" . وفى "تورينو" أنزل بالعدو هزيمة حاسمة مع أنه كان متفوقا عددا على "أوجين" ولكن عقليته كانت قد تزعزعت .

وفى ذلك الحين كانت الحرب قد انكمشت واقتصرت على الحدود الفرنساوية شمالا وجنوبا غير أنه فى سنة ١٧٠٧ قام الخلاف بين الحلفاء فتوافر الوقت لدى فرنسا لتستجمع قواها . وفى السـنة التالية حشدت قواتها الرئيسية ضـد "مارلبورو" . ولمـا كان "مارلبورو" مقيدا فى "فلاندرز" وكان العدو يتفوق عليه عددا بكثير ، فانه تبادل مع "أوجين" عكس حركة "الدنوب" بأن تحول جيش "أوجين" من الرين لينضم الى "مارلبورو" . على أن الفرنسيين

كان يقودهم الآن قائد قدير هو " فيـدوم " فتقدموا قبل أن يصل " أوجين " ، وبعد أن أغرى "فيدوم مارلبورو" على التقهقر الى "لوفان" بهذا التهديد المباشر ، تذرع بالحيلة لأول مرة وتحوّل بجأة نحو الغرب فاسترجع "غنت" و "بروجز" وفى الواقع كل "فلاندرز" غربى نهر "الشلت" دون أن يكلفه ذلك شيئا . على أن "مارلبورو" بدلا من أن يسير اليه ويقاومه مباشرة جازف بالاندفاع نحو الجنوب الغربى ليحول بينه وبين الحدود الفرنسية . وفى "أودينار" والى الضغط الى نهايته فزحزح العدو تكتيكيا على أثر الميزة الأولى التى اكتسبها بزحزحته استراتيجيا.

فلو أن " مارلبورو " كان فى استطاعته أن ينفذ رغبته فى التحرك الى باريس على الفور لكان من المحتمل أن تنتهى الحرب . فان "لويس" حتى مع ما كانت عليه الحالة اضطر لأن يطلب الصلح فى ذلك الشتاء وعرض على الحلفاء شروطا فيها مايكفى مقاصدهم . ولكنهم رفضوها فرفضوا المـادة فى سبيل الخيال الذى هو اتمـام اذلاله . ولهذه الأسباب تجدد الحرب ثانيا فى سـنة ١٧٠٩ . فكان مشروع " مارلبورو " عبارة عن اقتراب عسكرى غير مباشر الى غرض سياسى فيه الحل المطلوب — وكانت فكرته تنطوى على التسلل من وراء قوات العدو وتغطية قلاعه ثم اتخاذ " باريس " هدفا . على أن هذه الحركة تجاوز الحد فى الجراءة حتى عند أوجين وعلى ذلك فانها عدلت الى خطة تنطوى على التفادى من الهجوم المباشر على " الخطوط " المستحكمة التى تستر الحدود بين " دوواى " و " بيتون " . ولكنها بدلا من ذلك كانت ترمى الى الحصول على القلعتين الجانبيتين " طورناى " " ومون " تمهيدا للزحف الى داخل فرنسا على طريق شرق المنطقة المستحكمة . وهنا أيضا تمكنت عبقرية " مارلبورو " من خداع العدو . فان تهديده بالهجوم المباشر على الخطوط أدى بهم الى سحب معظم جنود حامية " طورناى " لتعزيزها . وعند ذلك رجع " مارلبورو " على جناح السرعة وضيق على " طورناى " ولكنها مع ذلك استبسلت فى المقاومة حتى أخرته مدة شهرين . غير أنه تمكن بهجمة جديدة صوبها الى « خطوط لاباسيه » من الانقضاض على " مون " ومحاصرتها دون أن يعوقه عائق . على أن الفرنساويين تحركوا مجتازين الفضاء بدرجة من السرعة كافية لسد طريقه والحيلولة دون تنفيذ خطته . وهنا تورط " مارلبورو " لأول مرة فى اقتراب مباشر ، أقل حكمة من اقتراب "كرومول" من "دنبار" . ومع أن اقتحامه العدو الذى كان مستعدا فى متاريس جيدة وكان يحافظ على « بوابة » " مالبلاكيت " انتهى بالنصر فانه كلفه من الأنفس ماجعل "فيللارد" القائد المهزوم يكتب الى لويس يقول : « لو أن الله أعطانا هزيمة أخرى مثل هذه لأبيد أعداء جلالتكم » وقد كان لقوله صدق النبوة فان انتصار " مالبلاكيت " كلف الحلفاء آمالهم فى النصر فى تلك الحرب .

وفى سـنة ١٧١٠ سادت حالة « مات الشاه » وأصبح " مارلبورو " محبوسا كأنه فى قفص وراء الخطوط « النهائية » التى كان الفرنسيون أقاموها من " فالنسيين " الى البحر

فكانت فرصة لأعدائه السياسيين فى وطنه اتخذوها حجة لتقويض مركزه . ثم ان الحظ تنكر أيضا للذين فقدوا رعايته ، ففى سنة ١٧١١ استدعى جيش أوجين الى بلاده بسبب موقفها السياسى وبقى مارلبورو مواجها لعدو يتفوق عليه كثيرا . ولما كان بدرجة من الضعف لا يستطيع معهما أن يحاول أو ينفذ أى عملية حاسمة فانه استطاع على الأقل أن يثبت مقدرته بتفنيد ما كان الفرنسيون يفتخرون به مما أسموه الخطوط « التى ليس بعدها خطوط » وقد فعل ذلك باقترابه غير المباشر الذى كان أكثر دهاء وأبعد حيلة من كل ما قام به من الاقتراب فأخذ يخدع العدو ، ويحول أفكاره . ويسرع فى السير مرارا متوالية حتى تمكن من الانسلال من الخطوط ونفذ منها دون أن يطلق طلقة . ولكنه استدعى بعد ذلك بشهرين الى انجلترا ليلقى الاذلال والعار . وفى سنة ١٧١٢ هجرت انجلترا حلفاءها وتركتهم يقاتلون وحدهم . فبقى النمساويون والهولنديون تحت قيادة أوجين محافظين على موقفهم مدة من الزمن ثم أخذ التعب والاعياء يستولى على كلا الفريقين المتحاربين . غير أنه فى سنة ١٧١٢ قام ”فيلار“ بمناورة مشتركة كان ما انطوت عليه من الخداع ، والتكتم ، والسرعة مما يليق ”بمارلبورو“ . وفى نهاية الأمر فاز بنصر حاسم على كل الحلفاء فى ”دينين“ لم يكلفه الا القليل . وبذلك تم انحلال الائتلاف وتمكن ”لويس“ من عقد صلح يختلف كل الاختلاف عما كان يكون من نصيبه قبل معركة ”مالبلاكيت“ . ففيها حصل اقتراب مباشر أضاع كل الفوائد التى اكتسبتها الاقترابات غير المباشرة . والأمر الذى لا يقل عن ذلك مغزى هو أن النضال انتهى أخيرا بعكس ما انتهت اليه تلك المعركة . وكان ذلك بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر .

ومع أن الحلفاء حرموا من غرضهم الأصلى وهو منع ”لويس“ الرابع عشر من ايجاد اتحاد فعلى بين فرنسا وأسبانيا فان انجلترا خرجت من الحرب رابحة فى الممتلكات . والفضل فى ذلك يرجع الى بعد نظر ”مارلبورو“ وامتداده الى ماوراء حدود مسرح عملياته الضيق . فانه جمع بين العمليات البعيدة المدى فى البحر الأبيض المتوسط والعمليات الخاصة به فى ”فلاندرز“ كوسيلة لتشتيت فكر العدو من الوجهة العسكرية ، وميزة تبقى فى جانبه من الوجهة السياسية . فتجريدتا سنة ١٧٠٢ وسنة ١٨٠٣ ساعدتا على استبعاد بلاد البرتغال ”وسافوى“ من جانب العدو ومهدتا الطريق لحركة موجهة ضد ”سنده“ الأكبر وهو اسبانيا وتجريدة سنة ١٧٠٤ التالية ربحت جبل طارق . ثم ان ”بيتر بورو“ قام بدور مشتت لفكر العدو فى أسبانيا يدل على المقدرة ، وفى سنة ١٧٠٨ استولت تجريدة أخرى على جزيرة ”مينورقة“ . فاذا كانت العمليات التى أجريت فى أسبانيا بعد ذلك أسيئت ادارتها وكانت أقل حظا فى نتائجها ، فانجلترا خرجت من الحرب تملك جبل طارق وجزيرة مينورقة وهما مفتاحان لسيادة البحر الأبيض المتوسط ، ”ونوفاسكوشيا“ و ”نيفوندلاند“ فى المحيط الاطلنطى الشمالى .

ثم ان نتائج حرب ارتقاء عرش النمسا التى وقعت فى سنة ١٧٤٠ — ١٧٤٨ ولم تكن حاسمة ، لا يمكن التعبير عنها بأفصح من العبارة التى أصبحت دارجة بين الأمة التى كانت أكثر الأمم فلاحا من الوجهة العسكرية — الأمة الفرنسية — وهى قولهم "انك لبليد بلادة الصلح" فهذه الكلمة كانت توجه الى المواطنين الذين هم موضع الكراهية . والحاكم الوحيد الذى استفاد منها بالوسائل المشروعة أو غير المشروعة هو فردريك الأكبر . فانه ربح "سليسيا" مبكرا ثم انسحب من المباراة . ومع أنه عاد اليها فيما بعد فانه جازف بخسارة الشيء الكثير دون أن يربح أكثر مما ربحه سوى حق تطريز بنوده بأسماء بعض الانتصارات الشهيرة . غير أن هذه الحرب علاوة على ذلك وطدت نفوذ بروسيا كدولة عظمى . والحوادث التى قضت بترك "سليسيا" لبروسيا فى معاهدة الصلح الأولى التى عقدت فى "برسلاو" سنة ١٧٤٢ هى من الحوادث التى تستحق الذكر لأن الآمال فى بدء هذا العام كان يظهر أنها قريبة من الخيبة . فقد تم الاتفاق بين الفرنسيين والبروسيين على الزحف على الجيش النمساوى الرئيسى بالاشتراك معا . ولكن سرعان ما أرغم الفرنسيون على التوقف فى أماكنهم . فما كان من "فردريك" الا أنه بدلا من موالاة السير غربا لينضم على حليفته اتجه بجأة نحو الجنوب قاصدا "فينا" . ومع أن مقدمة جنوده ظهرت أمام عاصمة العدو فانه أسرع بالرجعة وسار جيش العدو ليقطع عليه رجعته ويفصله عن قاعدته . وهذا الزحف الذى زحفه "فردريك" اعتاد الناس أن يعيبوه عليه بأنه مجرد مظاهرة طائشة . ومع ذلك فقد تكون هذه التهمة قاسية اذا روعيت نتيجة هذا الزحف . فانه بهذا التقهقر السريع ، الذى كان فى ظاهره طلبا للنجاة . جر النمساويين وراءه متعقبين الى مسافة بعيدة حتى توغلوا فى سليسيا . وعندها انقلب كارا عليهم فهزمهم ثم استغل الهزيمة بشدة تعقبه لهم . ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أسابيع حتى عقد النمساويون صلحا منفصلا مع "فردريك" من شرائطه تنازلهم له عن سليسيا . وقد لا يكون من الحكمة التبسط فى الاستنتاج من هذا الحادث . ولكن أقل ما هناك هو أن الشيء العجيب فى ذلك أن هذا الميل الفجائى لعقد صلح مع التضحية قد جاء على أثر الاقتراب الوحيد غير المباشر الذى حصل فى هذا المسرح مدة الحرب . مع أن هذا الاقتراب لا يتضمن شيئا أكثر من مجرد الظهور أمام "فينا" ونصر تكتيكى صغير استخلص ، على ما يظهر ، من بين أنياب الهزيمة . فضلا عن أنه كان أقل تظاهرا من انتصارات "فردريك" الكثيرة الأخرى .

واذا كانت حرب ارتقاء عرش النمسا ليست حاسمة فى نتائجها العامة ، فان الحرب الكبرى الأخرى التى وقعت بعدها فى منتصف القرن الثامن عشر لم تكن أحسن منها — من وجهة نظر السياسة الأوربية . فان المملكة الوحيدة التى أحرزت نتائج وكانت حاسمة فى التأثير على مجرى التاريخ الأوربى هى انجلترا . ولم تكن انجلترا اذ ذاك شريكا غير مباشر فى حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) فحسب ، بل انها ساهمت فيها وحصلت على ربحها منها

بطرق غير مباشرة أيضا . لأنه فى الحين الذى كانت فيه جيوش أوربا تنهك قواها وتستنفد موارد بلادها فى قتال مباشر. كانت أقسام صغيرة من الجنود المرسلة من انجلترا تستغل ذلك الضعف لفائدتها بأن أوجدت الامبراطورية البريطانية . وفضلا عن ذلك فان حصول بروسيا على صلح غير حاسم بدلا من صلح مذل ، وهى مشرفة على التضعضع ، كان الفضل فيه لزحزحة قوة فرنسا الهجومية زحزحة غير مباشرة بسبب ما حل بمستعمراتها من الكوارث ، وزحزحة "الضربة القاضية" التى كان فى نية روسيا أن تنزلها ببروسيا ، بسبب وفاة زوجة القيصر فان سلسلة الانتصارات الباهرة الكثيرة التى أحرزها فردريك الأكبر فى المعارك لم يكن من نتائجها الا أنها تركته وقد تجرد من موارده بوجه التقريب ، فأصبح فى سنة ١٧٦٢ عاجزا عن موالاة المقاومة .

وعلى ذلك فليس فى الحملات الأوربية التى توالت وراء بعضها بعضا بين الجنود الأوربية فى هذه السلسلة الطويلة ما يسمى حاسما بحق ، سواء فى نتائجها العسكرية والسياسية ، الا حملة " كويبك " . وهذه الحملة لم تكن أقصر الحملات أجلا فحسب. بل انها وقعت فى مسرح ثانوى . فكما أن الاستيلاء على "كويبك" والتغلب على السيادة الفرنسية " بكندا " صارا فى حيز الامكان بفضل المقدرة على الاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى ، المتوفرة فى القوة البحرية ، كذلك كان الحسم والفصل فى الحملة من وجهة مجراها الحربى راجعا الى الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . وفضلا عن ذلك فان الدرس المستفاد له مغزى أكبر بسبب أن هذا الاقتراب غير المباشر الذى يظهر أنه محفوف بالأخطار لم ينتهج الا بعد أن أخفق الاقتراب المباشر الى خط نهر " المونتمورانسى " بخسائر فادحة فى الانفس وأكثر منها فى القوة المعنوية . وانصافا "اوولف" لا بد من التنويه بأنه لم يستسلم لهذا الاقتراب المباشر الا بعد أن فشل الطعم الذى ألقاه للعدو — من ضرب "كويبك" بالمدافع وتعريض أقسام منفصلة فى "بوينت ليفى" وبالقرب من شلالات "مونتمورانسى" — فى استدراج الفرنسيين للخروج من موقعهم القوى . على أن هنالك درسا يستفاد من اخفاق هذه الوسائل متى قورنت بالنجاح الذى صادفته أخيرا المخاطرة بانزال جنوده الى البر على مؤخرة الفرنسيين صعدا من " كويبك " . فاستدراج العدو لم يكف . وكان من الضرورى أن يجره الى الخارج . وكذا أيضا اخفاق الهجمات الكاذبة التى حاول " وولف " بها أن يهيئ اقترابه المباشر . فان تضليل العدو لم يكن كافيا. فلا بد من تحويل أفكاره — وذلك معناه الجمع بين مخادعة عقل العدو ، وحرمانه من حرية التحرك ليقوم بعمل مضاد ، وانتشار جنوده . ومع أن حركة " وولف " النهائية كانت تظهر للناظر اليها سطحيا انها آخر رمية يلقيها المقامر ، فان كل هذه الشروط قد توفرت فيها — وكانت النتيجة النصر . وحتى عند الذين من عادتهم أن يدرسوا التاريخ الحربى من وجهة مقدار القوة المسلحة يظهر أن درجة

ما أصاب القوات الفرنساوية من الزحزحة لم تكن مبررة لدرجة سقوطهم . ولقد كتبت مجالات كثيرة تبين ما كان فى استطاعتهم أن يعملوه . وكيف كان يتسنى لهم أن يصلحوا موقفهم. ولكن معركة " كوبيك " هى مثال بارز على صدق القول بأن الحسم يحصل بزحزحة جيش عقليا ومعنويا أكثر مما يحصل بزحزحة جنوده جثمانيا . وهذه النتائج تفوق على التقديرات الجغرافية والاحصائية التى تملأ تسعة أعشار كتاب عادى فى موضوع التاريخ الحربى .

ولكن اذا كان المجرى الرئيسى لحرب السبع السنين فى أوربا لم يكن ثابتا فى سيره ، كما يدلنا التاريخ ، بالرغم من كثرة الانتصارات التكتيكية ، فان البحث عن السبب أمر يستحق العناية . فاذا كان عدد أعداء "فردريك" هو التفسير المعتاد لذلك فان جملة ما أحرزه من المزايا يقابله و يزيد عليه بدرجة تجعل هذا التفسير غير واف . فعلينا اذن أن نتعمق فى البحث .

" ففردريك " مثل " الاسكندر " و " نابليون " وعلى عكس " مارلبورو " كان غير مقيد بالمسئولية ولا بالحدود الملزم بهما الاستراتيجى بالمعنى الصحيح . وكان يجمع فى شخصه وظائف الاستراتيجية والاستراتيجية العظمى . وفضلا عن ذلك فان اجتماعه بجيشه على الدوام بصفته ملكا أمكنه من إعداد وسائله والتوسع فيها لتلائم الغاية التى يختارها . ثم ان قلة القلاع نسبيا فى مسارح حربه كان ميزة أخرى له .

ومع أن " فردريك " كان يواجه دول الائتلاف المكون من النمسا ، وفرنسا ، وروسيا ، والسويد ، وسكسونيا وليس له حليف سوى انجلترا فانه كان متفوقا على أعدائه من حيث عدد الجنود الموجودة فعلا من أول الحرب الى منتصف الحملة الثانية . وزيادة على ذلك كانت له ميزتان عظيمتان الأولى آلته التكتيكية (جيشه) التى كانت تفوق آلة أى عدو من أعدائه . والثانية مركزه المتوسط وهذا المركز مكنه من ممارسة ما يسمى عادة استراتيجية " الخطوط الداخلية " فيترل ضرباته من مركزه المتوسط الى الخارج موجها اياها الى احدى القوات الموجودة على المحيط . و ينتفع بأقصر مسافة فيسير للاحتشاد ضد احدى قوات أعدائه قبل أن تستمد العون من الآخر . فبحسب الظاهر يلوح أنه كلما بعدت بعض هذه القوات المعادية عن بعض سهل الحصول على نجاح حاسم . وهذه حقيقة لاشك فيها متى روعى الزمن والمسافة وعدد الجنود على أن العنصر المعنوى يدخل هنا أيضا . فعند ما تكون قوات الأعداء متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يكون كل منها فيه كفايته و يميل لأن يتوطد بالضغط . واذا كانت منضمة معا فانها تميل الى الاتحاد " ويصير كل منها عضوا من الآخر " وتعتمد كل منها على الأخرى بالتبادل عقليا ، ومعنويا ، وماديا ، فتتأثر عقول القادة بعضها ببعض والتأثيرات الأدبية سريعة الانتقال من شخص الى آخر . حتى انه يبقى من السهل أن حركات كل قوة تعوق حركات القوات الأخرى أو تفكك نظامها . وعلى ذلك

فان كان الوقت والمسافة عنـد الخصم أقل ممـا يلزمه للقيام بعمله ، فان نتائج زحزحته تظهر بدرجة أسرع وأسهل . وأيضا عندما تكون القوات متقاربة بعضها من بعض فان مجرد تحول اقتراب العدو من واحدة منها قد لا تتوقعه الأخرى وحينئذ يصير فى الحقيقة اقترابا غير مباشر بالنسبة لهـا . وعلى النقيض من ذلك اذا كانت القوات متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يتوافر لديها الوقت للاستعداد لملاقاة الضربة الثانية التى يريد الجيش الذى يستغل مركزه المتوسط انزالها أو للتفادى منها .

فاستخدام " الخطوط الداخلية " كما استخدمها " مارلبورو " فى سيره الى نهر الدنوب هى صورة أخرى للاقتراب غير المباشر . ولكن ولو انه اقتراب غير مباشر بالنسبة للقوات المعادية بأجمعها فانه ليس كذلك بالنسبة للقوة التى هى الهدف المقصود فعلا الا اذا أخذت على غرة منها . والا فلا بد من اتمـامه باقتراب غير مباشر آخر — للغرض نفسه .

وكان فردريك يستخدم مركزه المتوسط دائمـا ليحشد جنوده ضد جزء من العدو . وكان دائمـا يستخدم تكتيكات الاقتراب غير المباشر . و بهذه الوسيلة فاز بانتصارات كثيرة . على أن اقترابه التكتيكى غير المباشر كان من نوع هندسى لا من نوع مؤسس على دراسة علم النفس — أى لم يسبقه تمهيد من نوع صور المفاجأة التى هى أكثر دهاء والتى كان "سيبو" يميل اليها — فكانت مناوراته ضيقة النطاق وان كان تنفيذها يشف عن المهارة . فقد يكون العدو عاجزا عن تلقى الضربة لقلة مرونته العقلية أو لقلة مرونة تشكيلاته . ولكن الضربة ذاتها لم تكن غير منتظرة عند العدو .

ففى " براج " ابتدأ الاقتراب بصورة غير مباشرة ولكنه صار مباشرا قبل أن تتم المناورة ولم يرجح كفته فى المعركة الا وصول فرسان " تسايتن " الذين كانوا داروا دورة شاسـعة . ولم يكن وصولهم منتظرا عند النمساويين . وفى " كولن " كانت المناورة ضيقة بدرجة أن جنود فردريك لمـا ضايقتهم النيران غيروا طريق سيرهم وهجموا هجوما مباشرا فأخفقوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة . وفى " روسباخ " كانت قوة الفرنساويين وحلفائهم ضعف قوة فردريك فحاولوا أن يقلدوا مناورة فردريك ويقابلوه بها . فلم يكن من ضيق المناورة أن أشعره بها فى وقت كاف فحسب ، بل ان افتراضهـم ، على عجل ، أنه كان متقهقرا قبل ضـياع الوقت أدى بهم الى تشتيت أفكار جنودهم و " تحويلها " لكى يلحقوا به حتى انه لمـا قام بمناورة مضادة ليقع على جناحهم الأبعد ، لا ليقابلهم وجها لوجه ، تزحزحوا حالا . وهنا أحرز فردريك اقترابا حقيقيا غير مباشر بواسطة المفاجأة . وليس فقط بواسطة خفة الحركة . وقـد كان هذا الانتصار أكثر كل انتصاراته اقتصادا . لأنه فى مقابل خسارة ٥٠٠ جندى بين قتيل وجريح أوقع بالعدو خسارة ٧,٧٠٠ وشتت جيشا يبلغ عدده ٦٤,٠٠٠ . ولسوء حظه كان قد استنفد قوته بدرجة كبيرة فى المعارك السابقة حالت بينه و بين جنى ثمـار هذا النصر

بالكامل . وصار عليه الآن أن يعالج الجيش النمساوى الذى عجز عن تسوية حسابه معه فى "براج" و"كولن" . ومع أنه فاز فى "لويثن" فان النصر الذى أحرزه فيها بواسطة اقتراب باهر ، وان كان غير مباشر فى ظاهره ، كلفه ما لا طاقة له به . وعلى هذا المنوال استمر استخدام فردريك "للخطوط الداخلية" فى سنة ١٧٥٨ وكان الطالع يزداد عبوسا .
فابتدأ باقتراب غير مباشر حقيقى ، بأن سار أمام جبهة النمساويين واجتاز جناحهم حتى وصل الى "أولمتس" أى مسافة ٢٠ ميلا فى أراضى العدو . ولم يتقهقر حتى بعد أن ضاعت له قافلة نقل عظيمة كانت تحمل مؤنا ، بل استمر فى سيره مجتازا "بوهيميا" دائرا حول مؤخرة النمساويين الى أن دخل قاعدتهم المحصنة "كونيجراتس". ولكنه صار الآن ملزما مرة أخرى لأن يتحمل غرم الفرص التى أضاعها فى "براج" و"كولن" لأن "الآلة البخارية الساحقة" الروسية كانت الآن قد استعدت وتقدمت سائرة الى "بوزن" فى طريقها الى "برلين" . فقرر فردريك على أن يتجاوز عن اكمال حملته البوهيمية ويسير شمالا لوقف الروسيين . وقد نجح فى ذلك الا أن "تسورندورف" كانت "براج" أخرى ولعبت فرسان "سيدلتس" دور الملاك الحارس وهو الدور الذى سبق أن لعبه "تسايتن" بصورة غير مباشرة.وعلى ذلك اضطر فردريك لأن يترك الروسيين وشأنهم ليستعيدوا قواهم وقفل راجعا للقاء النمساويين . وقد قل رأس ماله فى الرجال أكثر مما كان — فلاقاهم فى "هوخكرش" وكانت جنوده لم تزدد نقصا فحسب بل انه لاقى الهزيمة بسبب تجاوزه الحد فى الثقة بأن خصمه النمساوى القديم "داون" لا يبادره بقوته الانشائية مطلقا (أى انه لا يكون البادئ بالعمل) . وعلى هذه الصورة فوجئ فردريك مفاجأة مزدوجة وحوصر ليلا فلم ينجه من الهلاك سوى فرسان "تسايتن" اذ أبقوا ممرا مفتوحا ليتقهقر منه . وعلى هذا المثال استمرت الحرب فى سنة ١٧٥٩ وفردريك آخذ فى التدهور . وفى "كونرزدورف" لاقى أشد هزيمة عرفها فى حياته ، على يد الروسيين .
ولاقى فى "ماكسن" هزيمة أخرى من "داون" — وهذه أيضا كانت بسبب وضع الثقة فى غير موضعها — ومن ذلك الحين لم يعمل شيئا سوى مقاومة العدو مقاومة سلبية بسد الطريق أمامه . على أنه فى الوقت الذى كان فيه نجم بروسيا آخذا فى الأفول كان نجم السعد آخذا فى الاشراق فى "كويبك" . وكان النصر الذى أحرزه "وولف" مشجعا لانجلترا ومساعدا لها على ارسال جنود الى ألمانيا مباشرة . وهذه الجنود عوضت المصائب التى حلت بفردريك بانتصارها على الفرنسيين فى "مندن" . ومع ذلك ففى سنة ١٧٦٠ ظهر ضعف فردريك أكثر مما فى أى وقت آخر . واستراح فترة من الضغط الواقع عليه من الشرق بحيلة دبرها بأن أوقع فى أيدى الروس رسالة منه منطوقها أن "النمساويين قد انهزموا اليوم هزيمة تامة . والآن لنتجه نحو الروسيين . فافعلوا ما اتفقنا عليه" . ومع أن الروسيين دخلت عليهم الحيلة وتقهقروا فان الهزيمة التى أصابت النمساويين فيما بعد فى "طورجاو" كانت نصرا آخر لفردريك من نوع المقامرة . ولما ارتبك فكره من جراء ما أصابه من الخسائر ولم يبق لديه

سوى ٦٠٫٠٠٠ جنـدى . لم يجرؤ على الاشتباك فى معركة ، حتى أصـبح منقطعا فى سليسيا وليس بينه وبين بروسيا اتصال . فمن حسن حظه كانت استراتيجية الجيش النمساوى على أشد ما هو معهود فيها من الجمود . ثم ان خدمات مؤخرة الجيش الروسى أخفقت وأصابها العطل كما هى عادتها . وفى ابان هذه الأزمة توفيت القيصرة (زوجة القيصر) وجاءت التى أخلفتها فلم تكتف بعقد الصلح بل أخذت أيضا تفكر فى معاونة فردريك . وبقيت كل من فرنسـا والنمسا مدة بضعة أشهر فى حرب متقطعة. على أن قوة فرنسا كانت قد تقوضت بسبب ما حل بمستعمراتها من المصائب . وأصبحت النمسا فضلا عن فتور الهمة فى حالة من الاعياء عجلت عقد الصلح . فكانت كل البلاد التى اشتركت فى الحرب فى غاية الضعف. وهذه السنين السبع التى انقضت فى سفك الدماء لم يستفد منها سوى انجلترا .

واذا كان فى حملات فردريك الكثير من نخبـة الدروس فان الدرس الرئيسى منهـا على ما يظهر هو أنه كان يعتبر الاقتراب غير المباشر مسألة خفـة فى الحركة فقط بدلا من اشراك خفة الحركة مع المفاجأة . ولذلك فان اقتصاده فى القوى خاب بالرغم ممـا كان عليه من النباهة والذكاء .

الباب السابع

الثورة الفرنساوية ونابليون بونابرت

انسلخت فترة ثلاثين سنة ثم رفع الستار عن "الحرب العظمى" التى أضاءتها عبقرية نابليون بونابرت . فكما كانت فرنسا منذ قرن ، كانت فى ذلك الحين أيضا الخطر المهدد الذى تألبت عليه دول أوربا . ولكن مجرى النضال فى هذه المرة كان مخالفا لما كان عليه منذ قرن . فان فرنسا الثائرة قد يكون لها كثيرون من المشاركين لها فى احساسها ولكنهم ليسوا حكومات الأمم ، وليسوا هم المسيطرين على قوات دولهم المسلحة . ومع ذلك فانها لما بدأت الحرب بمفردها وهى منفصلة قهرا عن غيرها من الدول كما لو كانت تحمل جراثيم مرض معد تمكنت لامن صد المساعى المشتركة التى بذلت فى سبيل اخماد أنفاسها فحسب ، بل انها بعدأن غيرت صورتها أصبحت تهدد كل بقية أوربا تهديدا عسكريا متزايدا . وانتهت أخيرا بأن صارت السائدة حربيا على القسم الأعظم من أوربا . والسر فى ذلك يرجع بعضه الى ظروف طبيعية وبعضه الى ظروف شخصية . فأما الأولى فقد نشأت عن الروح الوطنية والثورية التى كانت مستولية على جيوش فرنسا الوطنية . وهى التى أطلقت العنان للشعور التكتيكى والقوة الانشائية فى الأفراد ليحلا محل التدريب الدقيق الذى أصبح غير ممكن مع وجود تلك . وهذه التكتيكات الحديثة السيالة كانت قائمة على أساس بسيط ولكنه حيوى وهو أن الفرنساويين صاروا الآن يمشون ويقاتلون بسرعة تبلغ ١٢٠ خطوة فى الدقيقة فى حين أن اعدادهم كانوا ما يزالون محافظين على طريقتهم الأصولية وهى ٧٠ خطوة فى الدقيقة . وهذا الفرق الأساسى فى الوقت الذى سبق ما قدمه العلم الميكانيكى للجيوش من وسائل التنقل بسرعة تزيد على سرعة السير على الأقدام ، صير سرعة انتقال قوة انزال الضربة واعادة حشدها مع "تغيير أوضاع" الوحدات والتشكيلات أمرا فى حيز الامكان . وبذا تمكن الفرنسيون ، على قول نابليون ، من عملية ضرب "الكتلة فى السرعة" استراتيجيا وتكتيكيا .

والظرف الطبيعى الثانى هو تنظيم الجيش الى فرق مستديمة . أى تجزئته الى أقسام كل منها به كفايته ، مستقل بذاته ويعمل على حدة . وهذا التجديد ابتكره " دو — بروجلى " وكان موجودا حتى قبل الثورة . ولكن فى ذلك الحين ابتكر " كارنو " وجوب تعاون هذه الفرق معا بينما تقوم كل منها بعملياتها على حدة بأن ترمى كلها الى غاية واحد مشتركة وجاء "بونابرت" فتوسع فى هذه الفكرة وتطورت على يديه .

والظرف الثالث ، المرتبط بالثانى ، هو أن فوضى طريقة التموين ، وعدم النظام (الضبط والربط) فى جيوش الثورة الموروث من طبيعة تكوينها قد صيرا الرجوع الى العادة القديمة

أمرا ضروريا وهى " اعاشة الجنود من البلاد " . فكان توزيع الجيش الى فرق معناه أن هذه العادة كانت تنقص من فعالية الجيش مقدارا أقل مما كانت تنقصه فى الأيام السالفة فبينما كانت هذه الأجزاء فى الزمن الماضى مضطرة الى التجمع قبل أن تستطيع القيام بعملية ما صارت الآن تؤدى خدمة عسكرية أثناء اعاشتها لنفسها أى اطعام نفسها بنفسها .

وفضلا عن ذلك "فان السير بدون أثقال" كان من شأنه أن يزيد سرعة حركاتها، ويمكنها من حرية التحرك فى البلاد الجبلية أو ذات الغابات . وكذلك لما كانت لا تستطيع الاعتماد على المخازن والمستودعات وقوافل أى قطر نقل المؤن لتأخذ منها حاجتها من الطعام واللوازم (المهمات) كان الجياع من الجنود والذين بهم حاجة الى الملابس يجدون حافزا يدفعهم للانقضاض على مؤخرة العدو الذى يعتمد على ما لديه من وسائل التموين المباشر .

اما الظروف الشخصية فكان محورها الذى تدور حوله هو عبقرية قائد — نابليون بونابرت — تغذت مقدرته العقلية بدراسة التاريخ الحربى دراسة عميقة وأجال فيه نظره مستقصيا فلما كان متحصنا بهذه الدراسة تمكن من استغلال قوة نظام " الفرق " الجديد استغلالا تاما . وأهم ماأداه نابليون لفن الاستراتيجية ينحصر فى ترقية المجال الأوسع لاستخدام الاشتراكات الاستراتيجية ترقية صارت ممكنة بوجود هذا النظام .

أما الدهشة التى سببها فشل الغزو الجزئى الأول الذى حصل فى سنة ١٧٩٢ وهزيمته فى "فالمى" و "جيماب" فكان من شأنها أن أخفت عن الفرنسيين حقيقة الخطر الذى كان يتهدد كلا من فرنسا والثورة فيما بعد لأن أول ائتلاف تكون ضد فرنسا — من انجلترا ، وهولندا ، والنمسا ، وبروسيا ، واسبانيا ، وسردينيا — لم يتم الا بعد اعدام لويس السادس عشر . ولم تلق هذه الدول ما لديها من صدق العزيمة وموارد الرجال والمواد فى كفة الحرب الا فى ذلك الحين . واذا كانت ادارة الحرب من جانب الغزاة كان ينقصها الارشاد المثمر المقرون بالمهارة . فان موقف الفرنسيين كان يزداد حرجا على تمادى الأيام الى أن تغير الحظ فجاء فى سنة ١٧٩٤ وأخذ سيل الغزاة يتراجع الى الوراء . ومن ذلك الحين أصبحت فرنسا هى الجانب المعتدى بعد أن كانت الفريق المقاوم ، فما هى أسباب هذا الجزر بعد المد . من المؤكد أنها لم تكن براعة استراتيجية . ومع كل فان مغزى هذه الحادثة ، مع ما كانت عليه من الابهام وبالرغم من انحصار غايتها فى نطاق محدود هو أن الحسم الذى حصل فيها نشأ عن اقتراب استراتيجى لا شك فى أنه كان غير مباشر . ففى الحين الذى كان فيه الجيشان الرئيسيان يناضل أحدهما الآخر بالقرب من " ليـل " نضالا تسيل فيه الدماء من غير فصل أو بت ، صدر الأمر لجيش " الموز " الذى يقوده " جوردان " وهو على مسافة بعيدة جدا أن يحشد على ميسرته قوة للهجوم وبعد أن يزحف نحو الغرب مجتازا مقاطعة "الاردين" يقوم بالعمليات فى اتجاه " لياج " و " نامور " . ولما وصل " جوردان " الى " نامور " عقب سير جاع

فى أثنائه جنوده فكانوا يعيشون على ما يستطيعون الحصول عليه من المؤن أثناء الطريق ، سمع دوى المدافع وجاءته رسالة تخبره بأن الجناح الأيمن من الجيش الرئيسى مشتبك فى قتال لا نجاح فيه أمام " شارلروا " . ومع ذلك فانه بدلا من أن يحاصر "نامور" تحرك نحو الجنوب الغربى فى اتجاه " شارلروا " والجناح الخلفى للعدو . فأرهب وصوله القلعة فسلمت . على أن الظاهر أن " جوردان " لم يكن يرمى الى غرض أبعد . وعلى كل حال فان التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو أناله ما كان نابليون وغيره من كبار القادة يسعى اليه كنتيجة مقصودة . فما كان من " كوبورج " القائد العام لجيش العدو الا أن أسرع بالرجوع نحو الشرق وأخذ فى جمع ما وجده من الجنود فى طريقه ثم هجم بهم على "جوردان" وهو مستحكم فى متاريس يغطى بها " شارلروا " . ومع أن القتال الذى نشب بينهما كان عنيفا حتى اشتهر باسم معركة " فلوروس " فان الفرنسيين كانت فى جانبهم تلك الميزة التى لا تقدر وهى ميزة زحزحة العدو استراتيجيا وجره الى الهجوم بجزء من قوته . فانهزم هـذا الجزء وعلى أثر هزيمته تقهقر الحلفاء .

ولكن لمـا جاء دور الفرنسيين وكانوا هم الغزاة فانهم بالرغم من تفوقهم العددى عجزوا عن الحصول على أية نتيجة حاسمة فى الحملة الرئيسية عبر نهر " الرين " . وفى الواقع كانت حملة ليست عقيمة الخاتمة فحسب ، بل كانت سيئة العاقبة — وذلك نتيجة اقتراب غير مباشر . ففى يوليه سـنة ١٧٩٦ لمـا وجد الأرشدوق "تشارلس" نفسه مجابها للزحف الذى استأنفه كل من الجيشين المتفوقين عليه وهما جيشا "جوردان" و "مورو" قر قراره بحسب أقواله ، على « أن يقهقر الجيشين (جيشه وجيش وارتنزلبن) خطوة فخطوة دون أن يتورط فى معركة ثم ينتهز أول فرصة تسنح لضمهما معا لكى يلقى بنفسه على أحد جيشى العدو وهو متفوق عليه أو مساوله على الأقل » . على أن ضـغط هذين الجيشين لم يسمح له بفرصة ينفذ فيها هذه الاستراتيجية « الخطوط الداخلية » التى هى عادية ومباشرة الا اذا كانت بفكرة ترك أراضى — الى أن تحولت الى اقتراب غير مباشر حقيقى بفعل بريجـا دير الفرسان " نوينـدرف " الذى قام به من تلقاء نفسه . فان استطلاع هذا الضابط الذى توسع فيه أراه أن الفرنسيين يقومون بحركة تحول ليتلاقوا بعدها ويتجمعوا على "وارتنزلبن" ليبيدوه . فأرسل الرسالة الالهامية القائلة « اذا شاء سموكم الملوكى أو استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى ليزحفوا على مؤخرة جوردان لكان فى ذلك ضياعه » . واذا كان تنفيذ الأرشدوق لم يكن بالجرأة التى قامت عليها فكرة مرءوسه فانها كانت كافية لاحباط حركة الفرنسيين التعرضية . وكان من أثر تقهقر جيش " جوردان " الذى تمزق شمله ورجوعه بغير انتظام الى نهر " الرين " وعبوره الى الجـانب الآخر ، أن اضطر "مورو" لأن يترك أعماله الموفقة فى " بافاريا " ويرجع كما رجع هو .

ولكن بينما خاب المسعى الرئيسى على نهر " الرين " . وخاب ايضا مرة أخرى فيما بعد ، فان الحسم جاء من مسرح ثانوى — هو ايطاليا — حيث تمكن بونابارت من تحويل حركات دفاعية مشكوك فيها الى اقتراب حاسم غير مباشر أدى الى اختتام الحرب بالنصر. والخطة التى انتهجها كانت جاهزة فى عقله منذ سنتين حينما كان من ضباط أركان الحرب فى هذه المنطقة وصارت بعدها جزءا فى نظريته عن الحرب لما كان فى باريس . فقد كان ككبار المتنبئين يعبر عن أفكاره الحادثة بالأحاجى وكان أتباعه كأتباعهم من عادتهم أن يفسروا هذه الأحاجى على غير حقيقتها . فمثلا قال فيما قال من أقواله المأثورة ، وربما كان أكثرها مغزى : «مبادئ فن الحرب هى نفس مبادئ الحصار . فيجب فيها تركيز النيران (أى جمعها) فى نقطة واحدة وبمجرد شق ثغرة يختل التوازن . أما الباقى فهو لاشىء » . أما النظرية العسكرية التى أتت بعده فقد وضعت نبرة التوكيد على الشطر الأول من هذه العبارة بدلا عن الشطر الثانى . وعلى الخصوص على كلمة « نقطة واحدة » بدلا من « التوازن » فالأول لا يخرج من كونه كناية ، فى حين ان الثانى يعبر عن النتيجة النفسية التى تحقق « ان الباقى لاشىء » . وهذا التوكيد يشاهد فى المجرى الاستراتيجى لحملاته الحربية .

أما لفظة « نقطة » فقد بلغت بها الحالة أن أصبحت منشأ ارتباك كثير وجدل أكثر . فطائفة تقول ان الذى يقصده نابليون هو أن الضربة المركزة يجب أن توجه الى أقوى نقطة لدى العدو بحجة أن هذا ، وهذا وحده ، هو الذى يكفل النتائج الحاسمة . لانه متى انكسرت مقاومة العدو الرئيسية فان انكسارها يسرى على أية مقاومة أقل منها . وهذا القول يغفل عامل الكلفة كما يغفل الواقع . وهو أن المنتصر قد يكون من الضعف فى درجة لايستطيع معها استغلال ما ناله من الفوز — حتى ان المقاومة التى هى أقل قد تتطلب قوة مقاومة أعظم مما تطلبته المقاومة الأصلية . والطائفة الأخرى وهى المتشبعة بفكرة الاقتصاد فى القوة أكثر من الفريق الأول ولكن بدرجة محدودة فيما يختص بالتكاليف الأولى فقط . (هذه الطائفة تقول ان الغرض المقصود يجب أن يكون هو أضعف نقطة عند العدو . على أن النقطة التى يظهر أنها تركت فى حالة ضعف تكون عادة تركت كذلك لبعدها عن أى شريان حيوى أو أى مركز حساس . أو أنها تترك ضعيفة قصدا لتجر العدو الى شرك منصوب .

وهنا أيضا نجد التفسير فى الحملة التى نفذ فيها نابليون هذا القول فعلا . وفيها يتضح بجلاء أن الذى قصده نابليون ليس فى الحقيقة كلمة «نقطة» بل «مفصل» أى نقطة الاتصال ، وأنه فى هذه المرحلة من مراحل حياته العسكرية كان متشبعا بفكرة الاقتصاد فى القوة بدرجة لا يستطيع معها التفريط فى قوته المحدودة فيستخدمها كالمطرقة يطرق بها نقطة العدو القوية . أما المفصل فهو حيوى من جهة . وعرضة للأضرار من جهة أخرى .

وفى ذلك الحين ايضا قال نابليون عبارة أخرى اعتبرت فيما بعد مبررا لأكثر الطرائق تهورا وطيشا وهى تركيز الجهود ضد قوات العدو المسلحة الرئيسية . تلك هى قوله : "النمسا هى العدو الكبير فتى سحقت النمسا سقط كل من ألمانيا ، وأسبانيا ، وايطاليا من تلقاء نفسها . فيجب علينا ألا نتفرق ، بل نركز هجومنا". غير أن تنفيذه لهذه الفكرة يبين لنا أنه لم يقصد بها الهجوم على النمسا مباشرة . بل قصد بها اقترابا غير مباشر عن طريق ايطاليا . وحتى فى هذا المسرح الثانوى جعل هدفه ضرب الشريك الأصغر وهو جيش سردينيا . واخراجه من الحرب قبل أن يلتفت الى الشريك الأكبر .

وكان بونابارت فى "رفييرا" و "جنوا" . والنمساويون والسردينيون على الجانب الآخر من الجبال الواقعة شمالا . فربح بونابارت الميزة الافتتاحية . وكان الفضل فى ذلك للحظ وللتصميم سـواء بسواء ، وعلى كل حال فان ذلك لم ينقص من مغزاها ، فانه غرر بالنمساويين لخولهم الى جهة الشرق و بالسردينيين لخولهم الى جهة الغرب . ثم أنزل ضربته بالمفصل ، أى مكان اتصال الجيشين ، الذى أصبح ضعيفا . ثم ضغط النمساويين فأرجعهم مرة أخرى نحو الشرق فتوافر لديه الوقت والمسافة اللازمين لحشد جنوده نحو الغرب ضد السردينيين . "فاختلت الموازنة" فكان لذلك من التأثير النفسانى على السردينيين أكثر من تأثير الهزيمة المادية فرفعوا أصواتهم طالبين عقد هدنة أخرجتهم من الحرب .

فأصبح الآن متفوقا على النمساويين عددا وهم بمفردهم (٣٥,٠٠٠ مقابل ٢٥,٠٠٠) . فهل هو زحف عليهم مباشرة ؟ كلا . فانه فى اليوم التـالى لعقد الهدنة مع السردينيين اتخذ "ميلانو" غرضا له . غير أن طريقه اليها غير المباشر كان طريق "تورتونا" و "بياشنزا" أو هو الطريق الموصـل الى مؤخرتها فى الحقيقة . وبعد أن خدع النمساويين وجعلهم يحتشدون فى "فالنزا" لمقاومة زحفه المنتظر شمالا — بشرق ، سار شرقا بدلا من سيره على طول الشاطىء الجنوبى لنهر "البو" . وبذا عند ما وصل الى "بياشنزا" كان قد دار حول كل خطوط المقاومة التى كان فى امكان النمساويين أن يهيئوها . غير أن عدم وجود معدات انشاء الجسور (قطر الكبارى) معـه أخره فى "بياشنزا" حينما اتجه شمالا . فأسرع النمساويون بالرجعة ونجوا والتجأوا الى "مانتاو" ومربع القلاع المشهور قبل أن يتمكن بونابارت من استخدام نهر "الادا" لسد خط رجعتهم . وحتى فى هـذه الحالة كان قد استولى على "ميلانو" وسهول لومبارديا الغنية واكتسبها بلا ثمن لجنوده الذين كانوا جياعا عراة .

وبعد ذلك أنف وترفع عن الزحف نحو النمسا مباشرة التى هى العدو الرئيسى ، كما كانت تستوجبه الدواعى العسكرية الأصولية . ثم أبى أن يسير الى ايطاليا الوسطى امتثالا لأمر (الديركتوار) الذى صدر له ، لأسباب سياسية . وبدلا من هذا أو ذاك وفق بين الغاية التى يقصدها والوسائل التى لديه توفيقا يشف عن الدهاء واستخدم "مانتا" و بمثابة طعم لجر قوات الانقاذ

النمساوية التى كانت تتوارد على التوالى . وابعادها عن قاعدتها لتقع فى يده . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يستحكم فى متاريس ينشئها فى موقع ساتر كما كانت عادة القادة التقليدية . بل أبقى قواته جوالة خفيفة الحركة متخذة من الأوضاع مجموعات طليقة الارتباط مترامية الأبعاد يستطاع حشدها فى أى اتجاه كان . ففى أول محاولة قام بها النمساويون لخلاص "مانتاو" تعرضت طريقة "بونابارت" للخطر بسبب عدم رغبته فى ترك حصار "مانتاو" والتجاوز عنه . ولذلك فهو لم يتمكن من استخدام خفة حركاته للتغلب على النمساويين فى "كاستليونى" الابعد أن تخلص من هذه الربطة . وفى ذلك الحين صدر له أمر (الديركتوار) بالزحف واجتياز مقاطعة "التيرول" والتعاون مع جيش "الرين" الرئيسى . فانتفع النمساويون بهذا الزحف المباشر وانسلوا متجهين شرقا بكتلة قوتهم مجتازين وادى "سوجانا" وهبطوا سهل فينيسيا (البندقية) ثم اتجهوا غربا الى "مانتاو" . على أن بونابارت بدلا من موالاته الزحف نحو الشمال . أو رجوعه ليحرس "مانتاو" . انقلب وراء النمساويين وطارد مؤخرتهم مطاردة حارة من خلال الجبال . وبذلك أجاب على اقتراب العدو غير المباشر بمثله ولكن اقترابه هو كان له غاية حاسمة ، فى حين أن الآخر كانت غايته محدودة . فلحق مؤخرتهم وسحقها فى "باسانو" ولما برز الى سهل فيذيسيا متعقبا بقيتهم كان مما هو جدير بالذكر أنه أرشد المطاردين الى الحيلولة بين العدو "وتريستا" ،وقطع خط رجعتهم الى النمسا . وأن لايمنعوهم من المسير الى "مانتاو" . وبهذه الوسيلة انضموا الى الموجودين بمستودع "بونابارت" فى "مانتاو" . فحبس هذا المقدار من رأس مال النمسا العسكرى اضطرها الى البذل من جديد . وفى هذه المرة ، وهى ليست المرة الأخيرة كان من شأن اقتراب تكتيكات "بونابارت" اقترابا مباشرا، ان جعل اقترابه الاستراتيجى غير المباشر فى خطر بعد ان صادف نجاحا . فلما قرب النمساويون من "فيرونا" وهى المركز الذى كان يحرس منه "مانتاو" ألقى بنفسه على طليعة قولاتهم الرئيسية فصدته صدة عنيفة . ولكنه بدلا من أن يتقهقر اختار القيام بمناورة متسعة ،منطوية على الجرأة ، حول جناحهم الجنوبى ليأتى على مؤخرتهم . وقد زاد الخطر على مناورته بسبب المستنقعات ومجارى المياه التى أخرت سيره . ولكن اتجاهها ،على الأقل، أوقع العدو فى حيرة . ولما كانت كفتا المعركة ،معلقتين بالميزان فى "اركولا" ، لجأ بونابارت الى حيلة تكتيكية حاسمة ، ندر أن استعملها — هى أنه أرسل بضعة من نافخى الأبواق (بروجية) الى مؤخرة النمساويين لينفخوا نوبة الهجوم . وبعدها ببضع دقائق اندفعت الجنود النمساوية التى كانت ثابتة القدم فى القتال ،وانسابت كالسيل لاجئة للفرار ، وبعد ذلك بشهرين فى يناير سنة ١٧٩٧ حاول النمساويون للمرة الرابعة والأخيرة أن ينقذوا "مانتاو" ،ولكنها خابت فى "ريفولى" حيث أدت جنود بونابارت بتشكيلها المؤلف من مجموعات غير مرتبط بعضها ببعض ،عملها على وجه يكاد يبلغ غاية الدقة ، فكانت كشبكة منتشرة ، أركانها مثقلة بأحجار ، متى اصطدم بها قول من قولات العدو انضمت حول

نقطة الضغط واصطدمت الأحجار ببعضها على العدو . وهذا التشكيل الواقى لنفسه بنفسه الذى يصير تشكيلا هجوميا مركزا عند الاصطدام كما مر بيانه ، كان نتيجة ترقية بونابارت لنظام الفرق الحديث الذى بموجبه ينقسم الجيش دائما الى أجزاء يتحرك كل منها مستقلا عن غيره ، بدلا من بقائه كتلة واحدة كما كان سابقا ، تنفصل عنه الأقسام الصغيرة موقتا فقط . أما تشكيل المجموعات فى حملات بونابارت الايطالية فقد صار عبارة عن "مربعات الأورط" التى تطورت بدرجة أرقى . ثم حل الفيلق محل الفرقة فى حروبه التى جاءت بعدها . ولكن بالرغم من أن هذه الشبكة كانت هى الوسيلة التى سحقت جناح النمساويين الذى كان يقوم بالمناورة فان مما يستحق التنويه هو أن قهر مقاومتهم الرئيسية جاء من جرأة بونابارت وارساله آلايا واحدا مؤلفا من ٢٠٠٠ جندى فعبر بحيرة "جاردا" فى القوارب واستقر على خط رجعة جيش بأكمله . فعند ذلك سلمت "مانتاو" . ثم ان النمساويين الذين أضاعوا جيوشهم فى المجهود الذى بذلوه لانقاذ هذا الباب الخارجى لبلادهم اضطروا الآن ، ولا حيلة فى يدهم ، أن يراقبوا اقتراب "بونابارت" السريع من الباب الداخلى المجرد من وسائل الدفاع . فأدى هذا الحال الى اغتصاب الصلح من النمسا بينما كانت الجيوش الفرنسية مازالت لم تتجاوز الجانب الآخر من نهر "الرين" الا ببضع أميال .

وفى خريف سنة ١٧٩٨ تكون الائتلاف الثانى من الروسيا ، والنمسا ، وانجلترا ، وتركيا ، والبرتغال ، ونابولى ، والبابا ، لفك قيود معاهدة هذا الصلح . وكان بونابارت غائبا فى مصر ولما عاد كانت فرنسا قد أفل نجم سعدها . فكانت جيوش الميدان ناقصة نقصا كبيرا ، وكانت الخزينة خاوية . وأفواج المجندين آخذة فى التناقص . أما "بونابارت" فانه بعد أن قلب الديركتوار على أثر عودته وصار أول قنصل فانه أمر بتشكيل جيش من الجنود الاحتياطية فى "ديجون" يتألف ممن يستطاع جمعهم من الجنود الموجودين بأرض الوطن . فهل هو استخدم هذا الجيش لتعزيز مسرح الحرب الرئيسى والجيش الرئيسى على نهر "الرين" ؟ كلا . فانه بدلا من ذلك رسم خطة هى أكثر كل اقتراباته غير المباشرة جراءة — هى حركة كاسحة على قوس مهول تصل الى مؤخرة الجيش النمساوى بايطاليا . فان هذا الجيش كان قد طرد الجيش الفرنسى الصغير «جيش ايطاليا» وأرجعه الى الحدود الفرنسية بوجه التقريب ثم حجزه فى الركن الشمالى الغربى من ايطاليا . وكان بونابارت ينوى أن يجتاز "سويسرا" الى "لوسرن" أو "زوريخ" ثم يهبط الى ايطاليا فى مكان يبعد نحو الشرق بعد ممر "سان جوتارد" بل وبعد التيرول . غير أن أخبار مضايقة جيش ايطاليا مضايقة شديدة أدت به لأن يسلك طريق "سان برنار" الذى هو الطريق الأقصر . وعلى ذلك فانه لما برز من جبال "الألب" فى "ايفريا" فى آخر أسبوع من شهر مايو سنة ١٨٠٠ كان ما يزال على جبهة الجيش النمساوى الحقيقية . فبدلا من أن يندفع نحو الجنوب الشرقى لنجدة "ماسينا" مباشرة اذ كان منحبسا

فى "جنووا" ، أرسل حرسه الأمامى جنوبا الى "شيراسكو" ثم استتر هو بنفسه ومعه الجيش الرئيسى وراء هذا «التحويل» وتسلل نحو الشرق الى "ميلانو" . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يزحف لملاقاة العدو «فى موقعــه الطبيعى» ، اتجه نحو الغرب فى " الساندرية " وتوصل الى «موقع طبيعى» يعترض مؤخرة النمساويين — وذلك هو الحاجز الاستراتيجى الذى كان الغرض الافتتاحى فى أشد مناوراته خطرا على مؤخرة العدو . لأن هذا الموقع بمــا فيه من الموانع الطبيعية يهيئ له مركزا أمينا يستعد منه لتلقى العدو بين ذراعيه ،ذلك العدو الذى يكون ميله «الطبيعى» حينما ينقطع عليه خط رجعته وتموينه أن ينقلب راجعا نحوه فى جماعات صغيرة بحكم العادة . وقد كانت هــذه الفكرة ، فكرة الحاجز الاســتراتيجى ، أعظم ما قدمه بونابارت لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر .

وفى "ميلانو" كان قد سد أحد طريقى رجعة النمساويين . والآن بعــد أن مدّ حاجزة جنوبى نهر "البو" حتى مضيق "ستراديللا" فانه سدّ الطريق الآخر . على أن فكرته هنا كانت قد تجاوزت حدود وسائله فى ذلك الحين بعض التجاوز . لأنه كان لديه ٣٤٠٠٠ جندى فقط وبسبب عدم رضاء "مورو" تأخر وصول الفيلق البــالغ عدده ١٥,٠٠٠ جندى الذى كان "بونابارت " أمر جيش "الرين" بارساله اليــه عن طريق "سان جوتارد" . فازداد القلق من جراء رقة هذا الحاجز . وفى ذلك الحين سلمت "جنووا" فزال بسقوطها العامل "الثابت" ثم ان عدم التأكد من الطريق الذى قد يسلكه النمساويون الآن ، وخصوصا الخوف من أنهم قد يبقون محصورين فى "جنووا" حيث تستطيع البحرية البريطانية تجديد تموينهم كانا سببا فى ضياع قسم كبير من الميزة التى كان حصل عليها . لأنه قدّر لأعدائه من القوة الانشائية أكثر ممــا لهم . فترك "موقعه الطبيعى" فى "استراديللا" واندفع نحو الغرب ليستطلع طلعهم . ويقطع الطريق من "الساندريه" الى "جنووا" . فباغته العدو فى ظرف ليس فى صالحه ولم يكن معه اذ ذاك الا جزء من جيشه حينما خرج النمساويون من " الساندرية " فجأة وزحفوا لملاقاته فى سهول "مارنجو" (فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) وبقيت المعركة بينهما فى شك مدة طويلة وحتى حينما رجع القسم الذى كان تحت قيادة " دسيه" الذى كان أرسل الى طريق "جنووا" لم يزد التأثير عن ارجاع النمساويين الى الوراء . على ان موقع بونابارت الاستراتيجى ظهر تأثيره ومكنه من انتزاع هدنة من القائد النمساوى الذى خارت قواه المعنوية ، من شروطها جلاء النمساويين عن "لومبارديا" ورجوعهم الى ما وراء نهر "المنشيو" . ومع أن الحرب استؤنفت واستمرت متقطعة وراء "المنشيو" فان رد الفعل الذى أحدثته معركة "مارنجو" ظهرت آثاره فى شروط الهدنة التى اختتمت بها حرب الائتلاف الثانية بعدها بستة أشهر .

وبعد انقضاء عدة سنين فى صلح مزعزع ارتفع الستار الذى كان أسدل على حروب الثورة الفرنساوية عن فصل جديد — هو الحروب النابليونية . ففى سنة ١٨٠٥ تجمع جيش نابليون

البالغ عدده ٢٠٠,٠٠٠ جندى فى "بولونيه" مهددا بالهبوط على الشاطئ الانجليزى ، واذا هو يتجه بجافة نحو نهر "الرين" بالسير الجبرى . ولم يتأكد بعد ، ما اذا كان نابليون ينوى غزو بلاد الانجليز مباشرة بصورة جدية . أو أن تهديده كان مجرد الحركة الأولى فى اقترابه الى النمسا اقترابا غير مباشر . فكان حسابه أن النمساويين يرسلون جيشا الى "بافاريا" ، كما هى عادتهم . لسد منافذ الخروج من الغابة السوداء . وعلى هذا الأساس رسم خطة مناورته المتسعة النطاق للالتفاف حول جناحهم الشمالى عبر نهر "الدنوب" ومنه الى نهر "اللخ" — الذى هو الحاجز الاستراتيجى الذى ينوى ايجاده ليعترض مؤخرتهم . فكان تكرارا لمناورة "استرادللا" ، فى نطاق أعظم . وقد أكد ذلك نابليون نفسه لجنوده . وفضلا عن ذلك فان تفوقه فى القوة مكنه من تحويل هذا الحاجز بمجرد تأسيسه الى حاجز متحرك . وهذا الحاجز بتضييقه على مؤخرة الجيش النمساوى أدى الى تسليمه فى "أولم" تسليما يكاد يكون دون سفك دماء . وبعد أن أجهز نابليون على هذا "الشريك الأضعف" اضطر أن يعالج الجيش الروسى الذى كان تحت قيادة "كوتوزوف" الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهر "الإن" بعد أن اجتاز بلاد النمسا وجمع أقساما نمساوية صغيرة . وكان هناك اذ ذاك تهديد آخر يقل قربا عن تهديد الروس . ذلك هو عودة الجيوش النمساوية الأخرى من ايطاليا "والتيرول" . وفى ذلك الحين صار حجم قوات نابليون ، لأول مرة وان لم تكن الأخيرة ، مما يسلبه راحة البال . فان المسافة الكائنة بين نهر الدنوب والجبال الواقعة الى الجنوب الغربى كانت تضيق بجيوشه الجرارة لدرجة تعوق اقترابه من العدو محليا اقترابا غير مباشر . ولم يكن لديه وقت كاف للقيام بحركة متسعة النطاق كمناورته فى "أولم" . غير أنه طالما أن الروس يبقون على نهر "الإن" فهم فى «موقع طبيعى» لا يدرأون منه عن الأراضى النمساوية فحسب ، بل يكونون بمثابة وقاية تستتر وراءها الجيوش النمساوية الأخرى وهى قادمة من الجنوب مخترقة "كارنثيا" لتنضم اليهم فيتعاونون معا على اقامة سد منيع يقاوم نابليون . فلما رأى نابليون نفسه أمام هذه المسألة قام بسلسلة من التغييرات الدالة على منتهى الدهاء فى الاقتراب غير المباشر . فكانت غايته الأولى دفع الروس الى جهة الشرق بقدر ما فى امكانه حتى يفصلهم عن الجيوش النمساوية التى كانت عائدة إذ ذاك من ايطاليا . وعلى ذلك بينما كان هو يزحف نحو الشرق تماما فى اتجاه "كوتوزوف" و"فينا" أرسل فيلق "مورتيير" ليسير على طول الشاطئ الشمالى لنهر الدنوب . فهذا التهديد الموجه الى مواصلات "كوتوزوف" مع بلاد الروسيا كان كافيا لتحريض "كوتوزوف" على التقهقر بالميل نحو الشمال الشرقى الى "كرمز" على الدنوب . وعند ذلك بعث نابليون قائده "موراث" ليسرع فى سيره قاصدا "فينا" مارا أمام الجبهة الجديدة التى اتخذها "كوتوزوف" .

ولما وصل "موراث" الى فينا جاءته تعليمات بالتوجه شمالا نحو "هولابرون" . وبهذه الكيفية بعد أن هدد نابليون جناح الروس الأيمن فى بادئ الأمر أصبح مهددا لميسرة مؤخرتهم .

فهذه الحركة وان كانت قد اخفقت فى فصل الروس عن بلادهم وقطع مواصلاتهم اليها بسبب الخطأ الذى وقع فيه " موراث" واتفاقه معهم على عقد هدنة وقتية ، إلا أنها طردتهم فتقهقروا مسرعين نحو الشمال الشرقى ، أكثر مما كانوا ، حتى وصلوا الى "أولمتس" بالقرب من حدودهم. على أنهم وان كانوا الان قد "تحولوا" عن الامدادات النمساوية وابتعدوا عنها ، فانهم ازدادوا قربا من امداداتهم الروسية وجاءهم قسم كبير منها فى أولمتس فعلا . فزيادة الضغط عليهم وارجاعهم الى الوراء لاتؤدى الا الى توطيد قوتهم فضلا عن أن الوقت قد أزف وأصبح دخول بروسيا الحرب قريبا . ولذلك فان نابليون لجأ الى "اقتراب" غير مباشر هو اغراء الروس على انتهاج خطة التعرض بأن استعمل الدهاء وتظاهر بمظهر الضعف . فحشد ٥٠,٠٠٠ جندى فى "برون" لمواجهة ٨٠,٠٠٠ من جيش العدو . ومنها بعث أقساما منفصلة نحو أولمتس . ثم انه عزز الاعتقاد بضعفه بأن أرسل " رسل الصلح " الى كل من قيصر الروسيا وامبراطور النمسا . ولما جازت هذه الحيلة على العدو ارتد من أمامه و رجع الى موقع فى "أوسترلتز" هيئته الطبيعة للشرك الذى نصبه . وفى المعركة التى نشبت على أثر ذلك استخدم ضربا من أمثلته النادرة فى الاقتراب التكتيكى غير المباشر ليستعيض به عن ضعفه العددى الذى كان هو أيضا نادرا فى ميدان المعركة . واستدرج العدو لأن يمد ميسرته ليهجم على خط رجعته ثم دار حول مركزه وقابل " المفصل " الضعيف ففاز بنصر حاسم لدرجة أن امبراطور النمسا طلب الصلح فى ظرف ٢٤ ساعة .

ولما التفت نابليون الى بروسيا بعد ذلك ببضعة أشهر ليناقشها الحساب كانت لديه الكثرة العددية بنسبة اثنين الى واحد تقريبا ، اذ كان لديه جيش «عظيم» من وجهتى الكم والنوع ، يقابله جيش ناقص التعليم ذو منظر عتيق مهجور . فكان تأثير هذا التفوق المضمون لنابليون ظاهر الأثر فى استراتيجيته وكان لهذا الأثر مفعول أخذ يزداد وضوحا فى ادارة حملاته الأخيرة . ففى سنة ١٨٠٦ كان ما يزال يبحث عن مزية المفاجأة الافتتاحية وقد أحرزها . فهو لهذه الغاية كان قد أسكن جنوده بالقرب من نهر الدنوب ، ومن هناك حشدها على عجل الى جهة الشمال وراء الستار الطبيعى المكون من غابة تورنجن . ثم خرج بجأة من منطقة الغابات و برز الى الأرض الفضاء الواقعة وراءها . واندفعت جنوده وهى بتشكيل «مربعات الأورط» قاصدة قلب بلاد العدو . وبهذه الكيفية وجد نابليون نفسه — لا وضع نفسه — وراء قوات البروسيين . ولما دار دورته ليسحقها فى "جينا" كان يظهر أنه اعتمد مبدئيا على مجرد قوته الدافعة . أما التأثير الأدبى لموقعه الذى كان فيه فقد جاء عرضا عن غير قصد وان كان من الأهمية بمكان .

وكذلك أيضا فى الحملة التى قام بها ضد الروسيين فى بولندا ، وفى بروسيا الشرقية كان هم نابليون الرئيسى والغاية الوحيدة التى كان يرمى اليها ، على ما يظهر ، هو استدراج عدوه الى

الاشتباك فى معركة ، لثقته بأنه لو تم له ذلك كان فى امكان آلته (أى جيشه) أن تتغلب على العدو . فكان ما يزال يستخدم المناورات التى يقصد بها مؤخرة العدو . على أن ذلك كان وسيلة يرمى بها الى توثيق قبضته على العدو حتى يجذبه و يجعله بين فكيه أ كثر منه وسيلة لاذابة قوته المعنوية حتى يسهل ازدراده .

فالاقتراب غير المباشر هنا هو وسيلة لتشتيت أفكار العدو وتحويلها الى جهة غير الجهة المقصودة ، ووسيلة « لجره » من الوجهة المادية أ كثر من كونه لتشتيت أفكاره وزحزحته من الوجهة المعنوية .

وهكذا كان يقصد بالمناورة التى قام بها فى "بولتوسك" أن يجر الروس نحو الغرب حتى انه متى زحف شمالا من بولندا يتيسر له أن يقطع خط رجعتهم الى روسية و يفصلهم عنها . ولكن الروس أفلتوا من بين فكيه . وفى يناير سنة ١٨٠٧ تحرك الروسيون نحو الغرب بمحض ارادتهم متجهين نحو البقية الباقية من حلفائهم البروسيين الموجودين "بدانتسج" فأسرع نابليون وانتهز هـذه الفرصة لقطع مواصلاتهم مع بروسيا . على أن التعليمات التى أصدرها وقعت فى أيدى جنود القوزاق فتقهقر الجيش الروسى قبل فوات الأوان . وعند ذلك اتبعهم نابليون فى الحال . فلما وجدهم متخذين موقعا جبهيا فى "إيلاو" ومستعدين لقبول المعركة لجأ الى مناورة تكتيكية بحتة وجهها الى مؤخرتهم . على أن العواصف الثلجية تدخلت فى أعمال جيشه وأعاقتها فلم يزدرد الروسيين بالرغم مما تكبدوه من الأضرار . و بعد ذلك بأر بعة أشهر كان كل من الفريقين قد استعاد نشاطه وتحرك الروسيون فجأة نحو الجنوب قاصدين " هايلزبورج" زاحفين عليها ، فما كان من نابليون الا أن أدار "مربعات أورطة" نحو الشرق ليحول بينهم وبين " كونيجزبرج" التى كانت قاعدتهم القريبة . ولكنه على ما يظهر كان فى تلك المرة متشبعا بفكرة المعركة لدرجة أنه لما جاءه بلاغ من فرسانه الذين كانوا يقومون باستطلاع جناح طريقه بأن الروس موجودون فى موقع قوى فى "فريد لند" . أدار قوته نحوهم وقصـدهم فى الحال . ففاز بالنصر التكتيكى لا بفضل المفاجأة أو خفة الحركة بل بالقوة الهجومية المحض .

والذى يفسر ذلك هو حشد كتلة من المدافع فى نقطة مختارة طبق تكتيكات المدفعية التى وضعها نابليون حديثا . وكان مقدرا لهـذه التكتيكات أن تصير القوة الدافعة لآلته التكتيكية أ كثر فأ كثر على مدى الأيام . وهى وان كانت قد كفلت النصر فى "فريد لند" كما كفلته مرارا بعدها الا أنها لم تكن ذات أثر يذكر فى نجاة الأنفس . ومن الغريب أن مفعول السلطة المطلقة فى تجنيد الجنود فى سنة ١٨٠٧ — ١٨١٤ وجد له شبيها فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ومن الغريب أيضا أن كلتا هاتين الحالتين كانت مقترنة بطريقة استخدام ضرب المدافع بشدة متناهية .

فهل الذى يفسر ذلك هو أن التبذير يؤدى الى الطيش وتجاوز الحد، على نقيض الاقتصاد فى القوة من الوجهة العقلية — الاقتصاد الذى يقوم على وسيلتين هما المفاجأة وخفة الحركة ؟

هذه الفكرة يؤيدها تشابه النتائج ، كما شوهد فى سياسة نابليون .

فقد تمكن نابليون من استخدام أبهة النصر الذى أحرزه فى "فريدلند" لتعزيز أبهته الشخصية فى التغرير بقيصر روسيا وفصله عن رفقائه فى الائتلاف الرابع . على أنه جازف حينذاك بالميزة التى كانت له وأخيرا جازف بامبراطوريته بتجاوزه الحد فى استغلاله ذلك الحادث . ذلك أن صرامة الشروط التى وضعها لبروسيا قوضت أركان السلم . أما سياسته مع انجلترا فكانت لا ترمى الى شىء أقل من دمارها . ثم ان اعتداءاته أضافت كلا من اسبانيا والبرتغال الى أعدائه . وانه لجدير بالذكر فى هذا المقام أن "الهجمات المتقطعة" التى قام بها "سير جون مور" القصيرة الأجل الموجهة الى "بورغوس" ومواصلات القوات الفرنسية فى أسبانيا كانت اقترابا غير مباشر فزحزحت خطط نابليون فى أسبانيا ومهدت السبيل للثورة الوطنية وأوجدت لها الزمان والمكان لاستجماع قوتها . ومن ثم جعلت شبه جزيرة "ايبريا" شوكة فى خاصرة نابليون من ذلك الحين فما بعد . وفوق كل ذلك فان التأثير الأدبى لهذه الخيبة التى صادفها نابليون لأول مرة بعد ان كان لا يقاوم ، كان لها معنى خاص . أما نابليون فلم يكن لديه أقل أمل فى استرجاع مركزه لأنه رجع بسبب تهديد بروسيا بالثورة والنمسا بدخول الحرب من جديد . أما تهديد النمسا فقد صار أمرا واقعا . واننا نرى نابليون فى حملة سنة ١٨٠٩ يحاول مرة أخرى القيام بمناورة ليصل بها الى مؤخرة العدو فى "لاندسهوت" و"فينا" غير أن نابليون اذا صادفته عوائق أثناء تنفيذه هذه المناورات ينفد صبره و يغامر باقتراب مباشر تتلوه معركة . وهكذا أصابته أول هزيمة كبرى فى "أسبرن ـ إسلنج" من جراء ذلك . واذا كان نابليون قد انتقم لها بالنصر الذى أحرزه فى "واغرام" فى نفس النقطة بعد ستة أسابيع فانه دفع ثمنا غاليا فضلا عن أن الصلح الذى أعقبه لم يستقر على أساس ثابت .

حرب شبه الجزيرة

على أن نابليون توافرت لديه مهلة سنتين قضاها فى معالجة تلك "القرحة الاسبانية" وكما أن تدخل "مور" خيب مساعى نابليون لاخماد نار الثورة فى أوائل مراحلها ، كذلك أعاق "ولنجتون" فى السنين التى أعقبت ذلك كل تدابير علاجها حتى تهيج الجرح ودب فيه الفساد وسرى منه السم الى سائر أجسام النظام النابليونى . نعم ان الفرنسيين كانوا قد تغلبوا وما زالوا يتغلبون على أية قوة نظامية أسبانية . على أن شدة هذه الهزائم جاءت بأعظم الفوائد — للمهزومين . لانها كفلت تحول مساعى الاسبانيين الرئيسية الى حرب العصابات حتى تغيرت الحال وحلت محل الجنود النظامية التى كانت تؤلف أهدافا عسكرية عرضة للاصابات ، عصابات كان يقودها قادة ممتلئون نشاطا لا يذعنون لنظم خاصة فكانوا يقومون بالعمليات بدلا عن الجنرالات

الاسبانيين الذين كانوا يخضعون لأشد درجات التقييد . أما كارثة الكوارث التى نزلت بأسبانيا ، وبانجلترا بالتالى ، فكانت فى النجاح الموقت الذى صادفته محاولة تشكيل قوات نظامية من جديد . ولكن لحسن الحظ لم يلبث الفرنسيون أن تغلبوا على هذه القوات وشتتوا شملها فشتتوا معها حسن حظهم وانتشر السم مرة أخرى بدلا من تجمعه فى نقطة واحدة . وفى هذه الحروب العجيبة بذلت انجلترا أقصى ما لها من النفوذ فى مضاعفة هذه المتاعب وتشجيع بواعثها . فقد ندر أن سببت لخصومها "تشتيتا" لأفكارهم أكثر مما سببته لهم فى هذه الحرب بمثل هذا الثمن الضئيل من المجهود العسكرى . ثم ان النتائج التى حصلت فى أسبانيا كانت ذات مغزى خاص متى قورنت بالنتائج التى جاءت على نقيضها . تلك النتائج الضئيلة ، بل النتائج السيئة ، التى نجمت عن محاولة انجلترا التعاون مباشرة مع حلفائها فى القارة الأوربية من جهة . ومن تجريداتها التى أرسلتها الى نقط غير المحيط الاتلنطى من جهة أخرى . فقد كانت تلك النقط بعيدة بدرجة لا تؤثر على خصمها من الوجهتين الجغرافية والنفسية . ومع ذلك فقد كان لتجريدات النوع الثانى ما يبررها من وجهة نظر السياسة القومية والرخاء فانها أضافت للامبراطورية البريطانية مستعمرة الكاب ، وجزيرة موريتيوس ، وسيلان ، وعدة جزائر من جزر الهند الغربية .

على ان النتيجة الحقيقية للاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى الذى قامت به انجلترا فى اسبانيا قد ألقى عليها المؤرخون حجابا من الغموض بسبب نزعاتهم التقليدية . اذ كان الذى يملك عليهم مشاعرهم انما هى المعارك . وفى الواقع فانهم بمعالجتهم حرب شبه الجزيرة بصفتها بيانا تاريخيا لمعارك "ولنجتون" وحصاراته قد جعلوها عديمة المعنى . ولقد جاهد سير " جون فورتسكيو " فى اصلاح هذه النزعة وهذه السفسطة بالرغم من أن مهمته الرئيسية كانت قاصرة على وضع "تاريخ الجيش البريطانى" . ومما له مغزى خاص أنه حينما تعمق فى أبحاثه أخذ ينوه بلهجة التأكد ، أكثر فأكثر ، بما كان للعصابات الأسبانية من الأثر الظاهر فى النتيجة التى انتهى اليها النضال .

فاذا كان وجود قوة التجريدة البريطانية هو الأساس الجوهرى لذلك الأثر ، فمن المحتمل أن معارك" ولنجتون "كانت هى القسم الذى كان أقل أثرا فى عملياته . أى الشطر الذى كان أقل تأثيرا فى تلك العمليات . فهو بهذه العمليات قد أوقع بالفرنسيين خسائر لا تزيد على ٤٥,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير فى مدة السنين الخمس التى قضاها فى الحملة الى أن طردهم من أسبانيا ، فى حين أن الجنرال " ماربوت " قدر عدد الموتى فقط من الفرنسيين فى تلك المدة بمعدل مائة فى اليوم . ومن ثم يستنتج استنتاجا لا غموض فيه ولا ابهام أن الكثرة الساحقة من الخسائر التى استنزفت قوة الفرنسيين العددية وأكثر منها قوتهم المعنوية ترجع الى عمليات حرب العصابات والى "ولنجتون" نفسه باستعجاله الفرنسيين واتلافه كل شىء فى البلاد حتى أصبحت

صحراء لايلقون بها سوى الموت جوعا لو بقوا . وما لا يقل عن ذلك مغزى هو أن "ولنجتون" فى كل هذه الحملات الطويلة لم يشتبك الا فى قليل من المعارك. فهل كان ذلك يرجع الى ما تصف به من " سلامة الذوق " التى قال عنها كاتبو تاريخ حياته انها كانت سر أخلاقه وأمانيه . فقد قال عنه أحدث واضعى تاريخه "ان الاعتقاد بالحقائق الثابتة اعتقادا مباشرا ضيق الحدود كان روح ولنجتون الخلق . واليه ترجع عيوبه ومناقصه . ولكنه فى المراحل الكبرى من حياته العامة بلغ حد العبقرية " فهذا التشخيص يتفق تمام الاتفاق مع الأعراض التى ظهرت على استراتيجية ولنجتون فى شبه الجزيرة ، جيدة كانت أو سيئة .

ثم ان التجريدة التى قُدر لها من النتائج مابلغ هذا الشأو البعيد كانت فى حد ذاتها قسما من القوة التى وجهت عبثا للقيام بالمجهود الرئيسى على نهر "الشلت"، وكان الباعث على المجهود هو الأمل فى انقاذ بلاد البرتغال أكثر من مراعاة ماله من القيمة من وجهة الاستراتيجية العظمى وماتستطيع أن تؤديه مما يزيد "القرحة الاسبانية" وخامة . فان الدفاع الشاق الذى قام به "كاسلريه" (وزير الحربية) أيده الرأى الذى أبداه "ولزلى" وهو أنه لو أن الجيش والمليشيا البرتغاليين عززتا بـ ٢٠,٠٠٠ من الجنود البريطانية لاحتاج الفرنسيون الى ١٠٠,٠٠٠ جندى لفتح البرتغال . وليس فى استطاعتهم الاستغناء عن هذا العدد اذا استمر الاسبانيون على المقاومة. وبعبارة أخرى معنى ذلك هو أن ٢٠,٠٠٠ من البريطانيين تكفى (لتشتيت) أى تحويل مايقرب من ١٠٠,٠٠٠ من الفرنسيين قسم منهم على أقل تقدير يأتى من المسرح الرئيسى للحرب فى بلاد النمسا .

فأما من وجهة معاونة النمسا فقد كانت هذه التجريدة على غير جدوى . وأما بصفتها وقاية تقى البرتغال فلم تكن مقبولة ومرضيا عنها تماما من وجهة نظر البرتغاليين . وأما من وجهة كونها مضايقة لنابليون ومفيدة لانجلترا فانها قد أثمرت عشرة أضعاف ما كان مقدرا لها .

فأخذ "ولزلى" ٢٦,٠٠٠ جندى وفى أبريل سنة ١٨٠٩ وصل الى "لزبون" . وكان الفرنسيون مشتتين فى كل أنحاء شبه الجزيرة بسبب الثورة الأسبانية من جهة ، وبسبب زحف "مور" على "بورغوس" ثم رجوعه الى "كورونا" ، من جهة أخرى . وكان "نى" يحاول عبثا اخضاع "غاليسيا" فى منتهى الركن الشمالى — الغربى . وكان "صولت" فى "اوبورتو" الواقعة جنوبى "نى" ولكنها فى شمال البرتغال وكان جيشه ذاته مقسما أقساما مشتتا بعضها عن بعض . أما "فكتور" فكان حوالى "مريدة" متجها نحو الطريق الجنوبى الموصل الى البرتغال .

أما "ولزلى" فانه استفاد من موقعه المتوسط ، ومن حضوره على غير انتظار ، ومن تشتت العدو ، وتحرك نحو الشمال قاصدا "صولت" . ومع أنه أخفق فى فصل أبعد أقسام "صولت" الى جهة الجنوب عن بقية جيشه طبقا للخطة التى رسمها ، الا أنه فاجأ "صولت"

نفسه قبل أن يتمكن من جمع قوته . فقلب أوضاعه رأسا على عقب بأن عبر نهر "الدورو" فى مكان أعلى . ثم توسع فى هذه الزحزحة الابتدائية بأن أبعد "صولت" عن خط رجعته الطبيعى . وتمثل "بتورين" فى سنة ١٦٧٥ فكان يذيب المقاومة دون أن يتيح لها فرصة تتجمد فيها وتتصلب . وفى نهاية الرجعة التى رجعها "صولت" مرغما مجتازا الجبال السوداء شمالا الى "غاليسيا" تكبد جيشه من الخسائر والمشاق ما لا يتعادل مع ما قام به من القتال .

على أن العملية الثانية التى قام بها "وليزلى" لم تعد بالفائدة المرجوة كما لم تكن قائمة على فكرة صائبة من وجهة التوفيق بين الغاية والوسائل . أما "فكتور" الذى بقى "بمريدة" لايبدى حراكا فانه استدعى الى "طالافيرا" بعد (اختفاء) "صولت" ، لتغطية طريق الاقتراب المباشر الى "مدريد". وبعد ذلك بشهر صمم "وليزلى" على السير الى "مدريد"من هذا الطريق مندفعا فى قلب أسبانيا وملقيا بنفسه بين فكى الأسد . لأنه كان هدفا تستطيع كل الجيوش الفرنسية أن تتجمع عليه بسلوكها أسهل الطرق . وفضلا عن ذلك فان هذه الجيوش بتجمعها على مركزها المتوسط بهذه الكيفية توفرت لديها الفرصة لربط المواصلات بين بعضها بعد أن كادت تكون أعظم أسباب ضعفها وهى متفرقة . فزحف "وليزلى" ومعه ٢٣,٠٠٠ جندى مضافا اليها مثلها من الأسبانيين تحت قيادة "كويستا" الضعيف فى حين أن "فكتور" أثناء رجعته كان قد اقترب من المدد الذى يصله من قوتين فرنسيتين آخريين قريبتين من "مدريد" ثم انه من جهة أخرى كان المتوقع أن يبلغ حشد العدو مايربو على ١٠٠,٠٠٠ لأنه كما قال "فورتسكيو" (قد حصل عرضا لا قصدا) أن قوات "نى" و "صولت" و "مورتييه" كانت قد انحدرت من الشمال نحو "مدريد" . واذا كان الحظ يبسم للحاسب الجسور ، فانه يتنكر أحيانا للطائش . أما "وليزلى" فانه لم يتمكن من الاتصال "بفكتور" الا بعد أن انضم اليه "جوسف بونابارت" قادما من مدريد . والسبب فى ذلك هو أن "وليزلى" كان مثقلا بمؤنه من جهة وتردد "كويستا" من جهة أخرى . ولما اضطر "وليزلى" لأن يتقهقر هو الآخر بدوره كان خارجا بشىء من الحظ من معركة دفاعية نشبت فى "طالافيرا" ولكنه كان ينوى أن يزحف مرة أخرى لولا امتناع "كويستا" . فكان ذلك من حسن حظه لأن "صولت" كان هابطا على مؤخرته . فلما انفصل "وليزلى" عن الطريق الذى سلكه فى زحفه نجا بالتسلل جنوبى نهر "التاجوس" ولكنه لم يتمكن من الوصول الى حمى الحدود البرتغالية الا بعد مقاساة رجعة كلفته كثيرا وزعزعت قوى جنوده المعنوية ونهكتهم . أما الفرنسيون فان قلة الطعام شلت حركة تعقبهم . وهذه كانت خاتمة حملة سنة ١٨٠٩ التى علمت "وليزلى" أن الجنود الأسبانية النظامية عديمة القيمة — وهو درس كان يجدر به أن يتعلمه من تجارب "مور". وقد كوفئ على ذلك بأن صار "فيكونت ولنجتون" . وكان مقدرا له أن يحرز هذا اللقب بدرجة أكثر جدارة فى السنة المقبلة .

ففى سنة ١٨١٠ بعد أن أرغمت النمسا على الصلح انطلقت يد نابليون واستطاع أن يحول كل التفاته الى أسبانيا والبرتغال حتى سنة ١٨١٢ ، وهاتان السنتان هما أشد الأوقات حرجا فى حرب شبه الجزيرة . فعجز الفرنسيين عن ادراك مقصدهم له مغزى من الوجهة التاريخية أكثر بكثير مما أصابهم من الهزائم فيما بعد ، ومن الانتصارات التى أحرزها ولنجتون فى سنتى ١٨١٢ و ١٨١٣ . أما أساس ما أحرزه البريطانيون من الفوز فهو الحساب الدقيق المبنى على الفطنة والدهاء الذى حسبه " ولنجتون " للعامل الاقتصادى — وهو قلة ما لدى الفرنسيين من وسائل الاعاشة — ثم انشاؤه خطوط "طورس فدراس" . فكانت استراتيجيته فى جوهرها عبارة عن اقتراب غير مباشر الى قصد وغرض عسكريين اقتصاديين . ففى الفصل الأول من الرواية عاونته القوات الأسبانية النظامية على طريقتها المعتادة . فابتدأوا بحملة فى فصل الشتاء وسحقهم الفرنسيون سحقا بدد شملهم لدرجة أن الفرنسيين لما لم يجدوا هدفا ينزلون به ضرباتهم تدرجوا الى الانتشار فى كل أنحاء أسبانيا وغزوا أقاليم " اندلوسيا " النهرى الواقع جهة الجنوب .

وهنا تسلم نابليون السيطرة ولو أنه كان يمارسها عن بعد ، ولم يحل آخر فبراير من سنة ١٨١٠ حتى كان قد حشد فى أسبانيا ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ جندى يأتى بعدهم غيرهم . فتخصص من هؤلاء الجنود "لمسينا" ٦٥,٠٠٠ مهمتهم طرد البريطانيين من بلاد البرتغال . فهذا العدد وان كان كبيرا يتفوق على جنود " ولنجتون " الا أن صغره بالنسبة للمجموع فيه الدليل القاطع على ما لحرب العصابات فى أسبانيا من الخطر . ثم ان " ولنجتون " أخذ يدمج معه البرتغاليين ويدربهم على التعليم البريطانى حتى أوجد قوة يبلغ عددها ٥٠,٠٠٠

أما غزو " مسينا " فجاء من الشمال مارا " بكويداد رودريجو " فهيأ " لولنجتون " أطول وقت وأبعد مسافة تعمل فيها استراتيجيته . وأصبحت الخطة التى احتاطها بتجريد البلاد من كل ما بها من المؤن بمثابة "فرملة تعطيل" لزحف "مسينا" بينما كانت وقفته التى وقفها فى منتصف الطريق فى "بوساكو" بمثابة فرملة القدم . وهذه الفرملة قواها "مسينا" بحماقته اذ ورط جنوده فى اقتحام مباشر لا مبرر له . وبعد ذلك تقهقر "ولنجتون" الى خطوط "طورس فدراس" التى كان قد أنشأها بعرض شبه الجزيرة الجبلية المكونة من نهر " التاجوس " والبحر لتستر " لزبون " وفى ١٤ أكتوبر أشرف "مسينا" على هذه الخطوط بعد أن قضى أربعة أشهر قطع فيها ما لا يزيد عن مائتى ميل . فلما شاهدها وقع منظرها لديه موقع الدهشة . ولما كان عاجزا عن اقتحامها بقى يحوم بالقرب منها مدة شهر الى أن اضطره الجوع الى الرجوع الى "سانتارم" الواقعة على نهر " التاجوس" على مسافة ثلاثين ميلا الى الوراء . أما "ولنجتون" فانه التزم الدهاء ولم يحاول الضغط عليه أثناء رجعته أو يتسبب فى نشوب معركة ، بل جعل همه التضييق على " مسينا " وحصره فى حدود أقل مساحة ممكنة حتى يجد أشد الصعوبات

فى الحصول على طعام لجنوده . وقد حافظ " ولنجتون " على هـذه الاستراتيجية بكل ثبات بالرغم عن خطر غير مباشر هو تغير الحكومة فى بلاده ، وخطر آخر مباشر هو زحف "صولت" فى الجنوب بطريق " باداجوس " فى حركة تحويلية يخفف بها عن " مسينا " ثم انه قاوم كل مساعى "مسينا" لاستدراجه للهجوم . وقد بررت الحوادث سلوكه وكوفئ عليه لأن "مسينا" اضطر أخيرا الى الرجوع فى شهر مارس . ولما أعادت انقاض جيشه الجائع اجتياز الحدود كان قد خسر ٢٥٠٠٠ لم يزد عدد من سقط منهم فى القتال عن ٢٠٠٠

وفى نفس الوقت كانت العصابات الأسبانية تزداد نشاطا وعددا . ففى " أراجون وقطالونيا " وحدهما شل بضعة آلاف من رجال العصابات والجنود المستخدمة فى قتال العصابات حركات فيلقين فرنسيين كاملين يبلغ مجموع رجالهما ٦٠٠٠٠ شللا تاما بدلا من أن يعاون هذان الفيلقان جيش مسينا فى البرتغال ، واستمر ذلك عدة أشهر . وفى الجنوب أيضا حيث كان الفرنسيون يحاصرون مدينة "قادس" قصّر الحلفاء فى استغلال النصر الذى أحرزوه فى "باروسا" ولم يفكوا الحصار . فعاد ذلك عليهم بفائدة اذ بقى المحاصرون حيث كانوا فى مهمة لاطائل تحتها . وفى أثناء تلك السنين كان هناك عامل مستديم يشتت الأفكار ويحولها هو تهديد البريطانيين بانزال جنودهم الى البر ونزولهم فعلا مرارا عديدة فى نقط على السواحل المترامية الأطراف بفضل قوتهم البحرية .

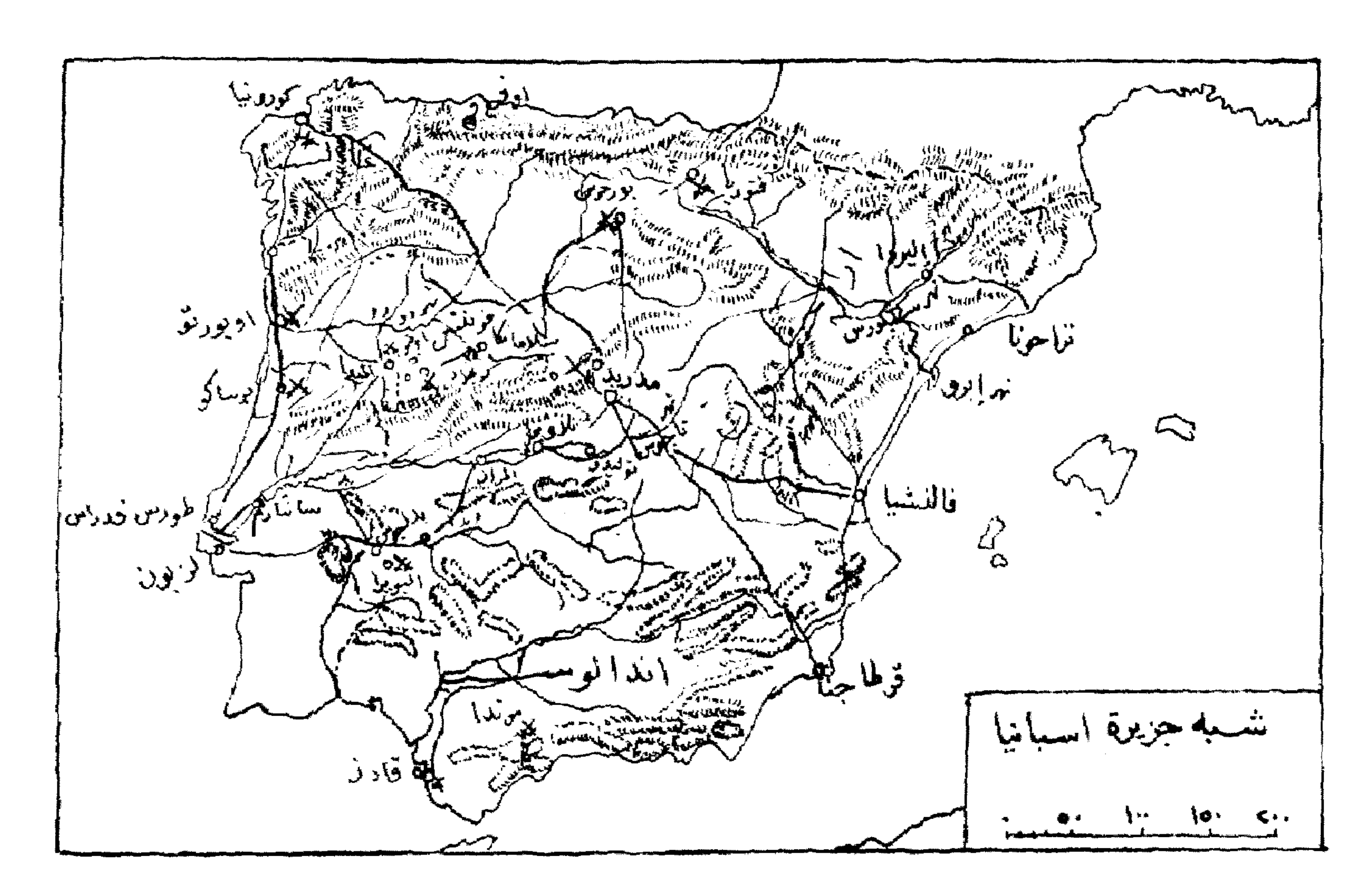
ومن ثم كان أعظم نفوذ ناله "ولنجتون" ناشئا عن تهديده أكثر منه عن ضرباته . لأنه كلما هدد نقطة اضطر الفرنسيون لأن يسحبوا جنودا من جهات أخرى ليوجهوهم اليها فيتسع بذلك المجال أمام العصابات فى تلك الجهات . ومع كل فان " ولنجتون " لم يكتف بالتهديد بل انه اتبع " مسينا " فى تقهقره الى " سلامانكا " واستخدم جيشه لتغطية الحصر المضروب على قلعة " الميضا " على الحدود من جهة الشمال بينما بعث "بيرزفورد" ليحاصر "باداجوس" فى الجنوب . فهو بذلك قيد حركاته وقسم قوته الى شطرين متساويين تقريبا . على أن الحظ ابتسم له . فان " مسينا " بعد أن جمع شتات جيشه وعززه بشىء من الامداد رجع ليخلص " الميضا " ويفك عنها الحصار . ولكن " ولنجتون " تمكن فى " فيونتس — دو — أونيورو " من صد الهجوم مع أن قوته أقل فضلا عما كان يحيط به من الأخطار الجسيمة . وكذلك خرج "بيرزفورد" ليلاقى قوة الخلاص التى كانت قادمة تحت قيادة "صولت" الذى بعد أن أساء ادارة القتال واعترف بالهزيمة فى "البويرا" (البحيرة) كان الفضل فى انقاذ موقفه لمرؤوسيه وجنوده بعد أن كلفهم ذلك ثمنا فاحشا . وعند ذلك صمم "ولنجتون" على محاصرة "باداجوز" دون أن يكون معـه معدات الحصار (قطار الحصار) الى أن اضطر الى رفع الحصار بسبب تحرك جيش " مسينا " نحو الجنوب من غير أن يلقى معارضة . وكان هـذا الجيش حينذاك

تحت قيادة "مارمونت" لينضم الى "صولت" فوضع الاثنان خطة للزحف معا على "ولنجتون" ولكن لحسن الحظ لما اجتمعا دب بينهما دبيب الشقاق وداخل "صولت" الفزع بسبب اشتداد حرب العصابات واضطرام لهيبها من جديد فى مقاطعة "اندلوسيا" فرجع اليها بقسم من جيشه تاركا السيطرة "لمارمونت" و بفضل تطرف "مارمونت" فى التزام الحيطة والحذر انتهت حملة سنة ١٨١١ فى سكون .

"فولنجتون" باشتباكه فى المعارك كان يجازف بشىء كثير ، بل كان فى الواقع مجازفا بكل شىء . ومن الصعب أن يقال ان هذه المعارك أكسبته مزية فوق المزية التى أوجدتها استراتيجيته السابقة والتى كانت مؤملة منها . فهى لم تكن من قبيل البذل المثمر اذا روعى ما كانت عليه قوته الاحتياطية من رقة الحال . فان خسائره فيها كانت أقل من خسائر الفرنسيين بشىء يسير ولكنها كانت أعظم منها كثيرا اذا روعيت النسبة العددية . غير أنه قد تدارك الفترة التى كانت أشد الأوقات حروجة . أما الآن فان نابليون والأسبانيين جاؤوه بالعون وساعدوه على احراز ميزته . أما نابليون فكان يتأهب لغزو الروسيا . فحول اليها التفاته وقوته ابتداء من ذلك الحين . فهذا التطور الحديث والموقف الذى أكسبته أعمال العصابات شدة كانا سببا فى تغيير الخطة فى أسبانيا حيث غير الفرنسيون خط مساعيهم الرئيسية الى محاولة اخضاع اقليمى "فالنشيا واندلوسيا" تماما قبل أن يحتشدوا من جديد للزحف على البرتغال . فالجنود الفرنسية نقص عددها ٧٠٠٠٠ عما كانت عليه فى سنة ١٨١٠ والذين بقوا استخدم منهم ما لا يقل عن ٩٠٠٠٠ جندى فى خدمة قاصرة فى الواقع على المحافظة على خط المواصلات مع فرنسا ، كانوا موزعين من "طاراجونا" على ساحل البحر الأبيض المتوسط الى "أوفيدا" على ساحل المحيط الاتلانطى لصيانتها من العصابات .

فلما أصبح المجال حرا أمام "ولنجتون" وضعفت أمامه المقاومة وثب بغتة الى "كويداد رودريجو" واقتحمها بينما كان قسم تحت قيادة "هل" يحرس جناحه ومؤخرته الاستراتيجيتين . أما "مارمونت" فكان عاجزا عن التدخل ، عاجزا عن استرجاع القلعة لأن معدات حصاره (قطار حصاره) كان قد سبق الاستيلاء عليها هناك ، عاجزا عن اقتفاء أثر "ولنجتون" بسبب محل البلاد الواقعة بينهما التى سبق تجريدها من كل مواد الغذاء . فانتهز "ولنجتون" فرصة وجود هذا الساتر الذى أقامه الجوع وتسلل جنوبا واقتحم "باداجوز" واستولى عليها بدورها وان كان استيلاؤه عليها كلفه أكثر مما كلفه استيلاؤه على الأولى بكثير ولم يترك له من الوقت الا شيئا يسيرا . وفى "باداجوز" استولى على معدات الفرنسيين لانشاء الجسور (قطر الكبارى الطافية) . ثم انه لم يتمهل بل أعقب هذا الربح باتلاف الجسر (الكوبرى) الفرنسى المؤلف من قوارب مصفوفة عبر نهر "التاجوس" فى (المعرض) "المازاز" ففصل بذلك جيش "مارمونت" عن جيش "صولت" فصلا استراتيجيا قطعيا

فأصبحت أقرب مواصلات "صولت" عن طريق الجسر (الكوبرى) الموجود فى "توليدو" (طليطلة) وهى تربو مسافتها على ثلثمائة ميل من مصب نهر التاجوس . وبقطع النظر عن ذلك فان "صولت" صار مقيدا فى "اندلوسيا" بسبب قلة المؤن من جهة وازدياد العصابات ازديادا فوق الطاقة من جهة أخرى . وغدا "ولنجتون" حرا يستطيع القيام بالعمليات وهو آمن شر التدخل . فحشد ثلثى قوته للزحف على "مارمونت" فى "سلامانكا" على أن اقترابه من "مارمونت" اقترابا مباشرا رد "مارمونت" نحو مورد امداداته فتعادلت بينهما الموازنة العددية . فشرع "مارمونت" فى المناورات قاصدا مواصلات "ولنجتون" ولديه الميزة الكبرى بسبب عدم وجود مواصلات له تقلق باله وتشغله . على أن افراطه فى الثقــة أدى به الى هفوة زحزحت قوته موقتا فانتهزها "ولنجتون" على الفور واستغلها وعززها باقتراب تكتيكى غير مباشر كان سببا فى هزيمة الجيش الفرنسى هزيمة صارمة قبل أن تصله امدادات أخرى . على أن ولنجتون لم يتمكن من تشتيته تمـاما وكان ما يزال أضعف من الفرنسيين فى شبه الجزيرة بأجمعها . وقد وجه اليه اللوم بسبب عدم تعقبه للفرنسيين الذين صاروا الآن تحت قيادة "كلاوزل" ولكن بمـا أن الفرصة الوقتية أفلتت من يده فلم يكن محتملا أنه كان يتمكن من تشتيتهم قبل أن يصلوا الى "بورغوس" فيلجأون اليهـا . فضلا عن أن مثل هذه الحركة كانت تعرضه الى خطر هبوط "جوسف" (بونابارت) فى أية لحظة على مؤخرته ومواصلاته قادما من "مدريد" ولكنه بدلا عن ذلك صمم أن يزحف على "مدريد" لمـا لهذه الحركة من التأثير المعنوى والسياسى . فكان دخوله عاصمة أسبانيا رمزا مشجعا للأسبانيين ، وخرج "جوسف" منهـا خروج الهارب . على أن عيب هذه الضربة هو فى أن بقاء "ولنجتون" فى "مدريد" لا يكون الا التجاء اذا تجمعت قوة الفرنسيين . وليس هناك شىء أكثر احتمالا لأن يدعو جيوشهم المتفرقة فى شكل محيط دائرة الى التجمع على الوسط من ضياع "مدريد" أما "ولنجتون" فانه جعل اقامته فى "مدريد" قصيرة وخرج منهـا طائعا مختارا وسار الى "بورغوس". غير أن الطريقة الفرنسية وهى "اعاشة الجنود من البلاد" كانت لا تجعل لأية ضربة توجه الى مواصـلاتهم مع فرنسـا تأثيرا على موقفهم . وحتى التأثير الضعيف كان منعدما نظرا لعدم كفاية طرائق الحصار ووسائله الموجودة مع "ولنجتون" فانها كانت تقتضى استغراق وقت ليس فى مقدوره أن يضيعه . لأن ما أحرزه من الفوز فى معركة "سلامانكا" وبعدها حرض الفرنسيين على ترك مهامهم وأراضيهم فى أسبانيا لكى يتجمعوا عليه من كل حدب وصوب . فموقفه بالنسبة لجيوشهم كان أشد خطرا من موقف "مور" الذى سبقه . على أنه تقهقر قبل فوات الأوان. وما انضم اليه "هل" حتى شعر بالاطمئنان بدرجة جعلته يدعو الجيوش الفرنسية المتحدة الى نزاله فى معركة "بسلامانكا" أما ميزتهـم العددية فكانت طفيفة اذا قورنت بمـا كانت عليه فى الأيام المـاضية . اذ كانت ٩٠٠٠٠ مقابل ٦٨٠٠٠ فلم



شبه جزيرة اسبانيا
كورونيا
اوفيدو
بورجوس
اوبورتو
مدريد
تراجونا
نهر ابرو
فالنشيا
قرطاجنا
اندالوس
موندا
قادز
لزبون
طورس فدراس
ساتارم
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠

يشعروا بميل الى قبول تحديه اياهم الى معركة فى ميدان اختاره "ولنجتون" ولذلك والى "ولنجتون" تقهقره الى "كويداد رودريجو" و بوصوله أسدل الستار على حملة سنة ١٨١٢ .

فمع أنه رجع بالثانى الى الحدود البرتغالية ولم يتجاوزها الى الأمام بحسب الظواهر ، الا أن حرب شبه الجزيرة كانت قد فصل فيها فعلا . لأن الفرنسيين بتركهم القسم الأعظم من أسبانيا ليتجمعوا عليه أخلوها للعصابات ولم يبق لديهم أى أمل فى زحزحتها . ثم زاد الطين بلة أن جاءت فوق هذه الكارثة أخبار رجوع نابليون من "موسكو" وما ترتب عليها من انسحاب جنود فرنسية أخرى من أسبانيا . وعلى ذلك لما افتتحت الحملة التالية كان الموقف قد تغير تغيرا كليا . فالآن جاء المدد الى "ولنجتون" حتى بلغ عدد جنوده ١٠٠٠٠٠ أقل من نصفهم بريطانيون . فبادر بالعداء والتحدى وكان هو المتفوق فى حين أن الفرنسيين بعد أن زعزعت حرب العصابات التى لم تنقطع قواهم المعنوية أكثر مما زعزعتها الهزائم العسكرية اضطروا لأن يسرعوا بالرجوع الى ماوراء نهر "الابرو" واكتفوا بمحاولة البقاء بأطراف أسبانيا الشمالية . بل حتى فى هذه الأطراف رجحت كفة العصابات على كفتهم فانها كانت تضغط عليهم من الخلف فى نواحى "بسكاى" "والبرينيس" ، واضطر الفرنسيون لأن يفصلوا من قوتهم الضعيفة أربع فرق لمقاومة الضغط الآتى من الخلف ، ثم ان زحف ولنجتون تدريجيا على جبال "البرينيس" ومنها على فرنسا ، وان كان لا يخلو من حوادث سيئة كانت تقع أحيانا و يؤخذ ثأرها بنجاح . كل ذلك لم يكن سوى خاتمة استراتيجية لقصة حرب شبه الجزيرة .

فهذه النتيجة الميمونة ماكان من السهل أن تتأتى لولا العون الأدبى والمادى الذى كان الفضل فيه لوجود " ولنجتون " فى شبه الجزيرة . فان نشاطه فى استجلاب انتباه الفرنسيين وتحويل أفكارهم نحوه بقدرما ، كثيرا ما سهل انتشار حرب العصابات . ومع ذلك فهناك مسألة موضوع تضارب آراء يهتم لها أصحابها . تلك هى : ألم تكن انتصاراته التى أحرزها فى سنة ١٨١٢ وكان من شأنها أن تستحث الفرنسيين على ترك ما فقدوه وتضييق منطقة أعمالهم ، مما جعل آمالهم أقرب من التحقيق ، وزادت زحفه صعوبة فى سنة ١٨١٣ ؟ لأنهم كلما اتسعوا فى الانتشار فى جميع أنحاء اسبانيا و بقوا مشتتين فيها كانت هزيمتهم فى نهاية الأمر تامة ومحققة . فحرب شبه الجزيرة كانت مثالا تاريخيا بارزا نفذته سلامة الذوق الغريزية أكثر مما نفذ عن قصد ، باستراتيجية من الطراز الذى أخرجه "لورنس" (الكاونيل لورنس) وحوله الى نظرية معقولة طبقت فعلا وان كانت لم تتم على وجه قطعى .

ولندع الآن " القرحة الأسبانية " ونرجع الى فحص طراز آخر من طرز الاستراتيجية كان يمو فى مخلة نابليون بصورة خادعة .

نابليون من " فلنا " الى " ووترلو "

كانت الحملة الروسية فى سنة ١٨١٢ هى الغاية الطبيعية التى انتهت اليها النزعات التى شوهد تطورها وازديادها فى استراتيجية نابليون — وهى اعتماده بالأكثر على الكتلة لا على خفة الحركة . وعلى التشكيل الاستراتيجى أكثر من اعتماده على المفاجأة . ثم جاءت الظروف الجغرافية فأبانت أوجه ضعفها وأكدتها .

فحجم قوات نابليون التى بلغ عددها ٤٥٠,٠٠٠ يدعوه الى اتخاذ توزيع خطى بوجه التقريب . وهذا التوزيع يستلزم اقترابا مباشرا على طول خط الانتظار الطبيعى . نعم انه فعل ما فعله الألمان فى سنة ١٩١٤ ، فقوى أحد طرفى خطه — الطرف الأيسر — وأراد أن يدور به دورة واسعة النطاق فيكتسح الروس الموجودين فى فلنا . ولكن هذه المناورة كانت متعبة وفى اتجاه مباشر بدرجة متجاوزة الحد تجعلها لا تصلح لأن تكون وسيلة مؤثرة فى تشتيت أفكار العدو وزحزحته الا اذا كان غبيا بدرجة فوق المعتاد ، حتى بقطع النظر عن ضعف همة أخيه " جيروم " وعجزه عن الدور الذى كلف به وهو تثبيت العدو فى مكانه . وفى هذه الحالة ظهر ضعفها بانتهاج الروس استراتيجية التفادى والانزواء . ولما تمادى نابليون وتوغل فى بلاد الروسيا بعد أن ضرب ضربته الأولى "فى الهواء" ضم خطه واتخذ تشكيل "مربعات الأورط " وحاول أن يدور به تكتيكيا الى مؤخرة العدو . ولكن حتى حينما استبدل الروس بخطتهم الأولى سياسة قبول " المعارك" وأظهروا حماقتهم بأن دفعوا رؤوسهم نحو فكى نابليون فان هذين الفكين انطبقا فى " سمولنسك " ، على ما يظهر ، حتى ان الروس أفلتوا منهما ، فى حين أن فى "بورودينو" حطم الفكان أسنانهما . فكان ذلك أحسن مثال لاظهار عيوب حركة التجمع والتلاقى من اتجاهات مختلفة اذا قورنت باقتراب غير مباشر حقا . أما النتائج الأثيمة التى كانت لرجوعه من موسكو على أثر ذلك فكانت بسبب خور قوى الجيش الفرنسى المعنوية ، أكثر من كونها مسببة عن صرامة الطقس — لأن الصقيع فى تلك السنة جاء متأخرا عن المعتاد — والذى سبب ذلك هو أن الروس بانتهاجهم استراتيجية التفادى من المعارك قد أفسدوا استراتيجية الفرنسيين التى كانت ترمى الى نشوب المعارك مباشرة . فكانت خطة الروس عبارة عن طريقة استراتيجية اتبعوها فى تنفيذ سياسة حربية تنطوى على اقتراب غير مباشر .

وفضلا عن ذلك فان ما أصاب نابليون من سوء الطالع بسبب هزيمته فى روسيا زاد اضعافا بسبب النتائج الأدبية والمادية التى نجمت عن اخفاق جيوشه فى أسبانيا . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام مع تقدير التأثير المهلك الذى كان لعمل انجلترا ، هو ان انجلترا بهذا العمل كانت متبعة سياستها الحربية التقليدية التى هى عبارة عن استئصال الجذور .

وفى سنة ١٨١٢ لما وجد نابليون نفسه بقواته الجديدة التى كانت أكبر حجما وأثقل حركة من كل ما سبقها ، أمام ثورة بروسيا ، والجيوش الروسية الغازية ، أراد أن يسحق أعداءه بطريقته التى أصبحت الآن عادة له أى بثقل " مربعات أورطه " المتجمعة من اتجاهات مختلفة متلاقيـة فى نقطة واحدة . ولكن لامعركة "لوتسن" ولا معركة " باوتسن " كانت حاسمة فى نتائجها . ولذلك فان الحلفاء خيبوا كل مساعى نابليون لاستدراجهم الى الاشتباك فى معركة ، اذ أخذوا يتقهقرون تقهقرا يزداد طولا مرة بعد أخرى . وهذا " التفادى " دعا نابليون لأن يطلب وقف الحرب لمدة ستة أسابيع وفى نهاية هـذه المدة انضمت النمسا أيضا الى أعدائه . ثم ان حملة الخريف التى أعقبت ذلك ألقت ضوءا عجيبا على ماطرأ على عقلية نابليون من التغير . فكان معه ٤٠٠,٠٠٠ جندى وهذا العدد يعادل مجموع جنود أعدائه بوجه التقريب . فاستخدم منهم ١٠٠,٠٠٠ فى الزحف على برلين من طرق متفرقة بحيث يلتقون فى برلين . غير أن هذا الضغط المباشر لم يؤد الا الى توطيد المقاومة التى أبدتها قوات "برنادوت" فى تلك الساحة وارتد الفرنسيون مدحورين . وفى نفس الوقت كان نابليون نفسه قد أخذ موقعا متوسطا ساترا " درزدن " فى " سكسونيا " بالجيش الرئيسى . ولكنه لم يصبر وشرع بفجاءة فى الزحف نحو الشرق مباشرة قاصـدا قوة" بلوخر " البـالغ عددها ٩٥,٠٠٠ فتقهقر " بلوخر " أمامه خدعة واستدرجه الى داخل " سليسيا " فى حين أن "شوارتسنبرج" ومعه ١٨٥,٠٠٠ شرع فى التحرك شمـالا هابطا على نهر " الإلبه " من " بوهيميا " واجتاز جبال " بوهيميا " ودخل " سكسونيا " وأتى على مؤخرة نابليون فى " درزدن " . فـترك نابليون قسما من جيشه فى موقعه وأسرع بالرجوع بنية مقابلة هـذا الاقتراب غير المباشر بآخر من مثله أشد منه خطرا . فكانت خطته أن يتحرك جنوبا ـــ وغربا ، ويجتاز جبال "بوهيميا" ثم يضع نفسه فى حاجز (أى سدّ) استراتيجى بالغ حد الكمال يعترض خط رجعة "شوارتسنبرج" حينما يخترق الجبال متقهقرا . غير ان أخبار قرب العدو منه أهاجته فصمم فى آخر لحظة على أن يستبدل خطته باقتراب مباشر على " درزدن " و " شوارتسنبرج " . فأدى هذا التصميم الى معركة انتصر فيهـا . ولكن هـذا النصر لم يكن حاسمـا الا من الوجهة التكتيكية ورجع " شوارتسنبرج " نحـو الجنوب فى أمان مجتازا الجبال . وبعـد ذلك بشهر شرعت الجيوش الثلاثة المتحالفة تطبق على نابليون وكان قد رجع من " درزدن " الى " دوبن " بالقرب من "لايبسج" بعـد أن أضعفته المعارك . أما " شوارتسنبرج " فكان فى الجنوب " وبلوخر " كان فى الشمال . ثم ان " برنادوت " كان قد دار حول جناح نابليون الواقع الى جهة الشمال وأتى وراءه بوجه التقريب دون أن يعلم به نابليون . فصمم نابليون على أن يقترب اقترابا مباشرا يعقبه اقتراب غير مباشر ـــ ليسحق " بلوخر " أولا ثم يقطع مواصلات " شوارتسنبرج " مع " بوهيميا " . فالذى يظهر على ضوء التجاريب التاريخية بحسب ما مر بيانه فى هذا الكتاب هو أن هذا الترتيب خطأ . فان حركة زحف نابليون على " بلوخر " مباشرة لم تؤد الى ارغامه

على الدخول فى معركة ، ومع ذلك فقد كانت لهـا نتيجة عجيبة ومما يجعل لهذه النتيجة مغزى خاصا هو أنها جاءت عفوا لا قصدا . لأن الزحف على بلوخر مباشرة تصادف أنه كان زحفا غير مباشر على مؤخرة " برنادوت " . فلما شعر " برنادوت " بضعف مركزه أسرع بالتقهقر نحو الشمال فانزاح عن خط رجعة نابليون . وبهـذه الكيفية نجا نابليون من كارثة جائحة تامة بعد ذلك ببضع أيام والذى نجاه منها هى ضربته التى قصد بها "بلوخر" وجاءت فى الهواء . لأنه لمـا أطبق عليه كل من " بلوخر " و" شوارتسنبرج " فى " لايبسج " قبل تحديهما واشتبك معهما فى معركة انهزم فيها . ولكنه لمـا ضاق به الحـال وجد أمامه طريقا للنجاة فانسحب فى سلام وعاد الى فرنسا .

وفى سـنة ١٨١٤ لمـا كان الحلفاء متفوقين عددا بدرجة كبيرة وقاموا بغزو فرنسا متلاقين فى نقطة واحدة بعد تفرق ، اضطر نابليون لأن يلجأ الى سلاحيه القديمين وهما المفاجأة وخفة الحركة ، بسبب قلة جنوده التى كان قد استهلكها — بثقته الامبراطورية فى قوة الكتل — ومع أنه قد أحسن استخدامهما الا أن لهجة التوكيد يجب وضعها على كلمة « سلاحيه » لأنه كان قليل الصبر وقد تملكت فكرة المعارك عليه مشاعره بدرجة كان لا يستطيع معها استخدام هـذين السلاحين بدهاء " هانيبال " أو " سبيو " أو " كرومول " أو " مارلبورو " . وعلى كل حال فانه باستخدامهما أجل ما كان مكتوبا له فى لوح القدر ، فترة طويلة . ولمـا استخدمهما وفق بين غايته ووسائله بمـا ينم عن بعد النظر . فانه لمـا أدرك أن وسائله قد تضعضعت بدرجة لا يسـتطيع معها الحصول على حسم عسـكرى ، وجه مساعيه الى زعزعة التعاون بين الحلفاء واستغل خفة الحركة لهذه الغاية بدرجة مدهشة ليس لهـا نظير فى أعماله السابقة . ومع كل فان نجاحه فى اعاقة العـدو عن بلوغ غايتـه وان كان يستحق التنويه ، الا أنه من المحتمل أنه كان يبقى أعظم أثرا وأكثر ثباتا لولا أن مقدرته على الاستمرار فى هـذه الاستراتيجية قد نقصت بسبب نزعته الطبيعية لأن يتم كل فوز استراتيجى بآخر تكتيكى . فهو بحشده جنوده عدة مرات ليلاقى بهـا أقسام العدو المتفرقة — وقد امتازت خمس من هـذه المرات بمناورات « أصابت » الهدف من الخلف — قد أنزل بها سلسلة من الهزائم الى أن داخله الطيش لدرجة أنه قام باقتراب وهجوم مبـاشرين على " بلوخر " فى " لاون " فانهزم هزيمة لا طاقة له بها . ثم انه بعد ان لم يبق معه سوى ٣٠,٠٠٠ جندى صمم على أن يطلق آخر سهم فى كنانته وتحرك شرقا الى " سان دزييه " وجمع ما اسـتطاع جمعه من الحاميات التى وجدها وأثار أهالى البـلاد على الغزاة . فبهـذه الحركة كان يصبح معترضا مواصـلات " شوارتسنبرج ". ولكنه كان مضطرا لأن لا يكتفى بأن يكون على مؤخرة العدو ، بل لا بد له من تأليف جيش وهو فى مكانه قبل أن يشرع فى العمل. ثم ان المسألة تعقدت لا من جراء قلة الجنود وقلة الوقت فحسب بل بسبب ما للقاعدة التى كشفها بحركته من الحساسية الأدبية

الخاصة أيضا . لأن باريس ليست كبقية قواعد التموين العادية . و زاد الطين بلة أن وقعت تعليماته فى يد العدو فضاعت منه كل من المفاجأة والوقت . ومع ذلك فقد بلغ « المجهود » الاستراتيجى لحركته درجة جعلت الحلفاء يتناقشون مناقشة حادة قر قرارهم بعدها على أن يسيروا الى باريس — لينزلوا ضربتهم الأدبية « القاضية » — بدلا عن أن يرجعوا لملاقاة نابليون . ولقد قيل ان العامل الذى أثر عليهم فى هذا القرار هو خشية أن يتحرك " ولنجتون " من الحدود الأسبانية فيصل باريس قبلهم . فاذا كان ما قيل هو الحقيقة فيالها من خاتمة ساخرة مؤيدة لانتصار استراتيجية الاقتراب غير المباشر « ومجهوده » الحاسم .

وفى سنة ١٨١٥ بعد أن رجع نابليون من جزيرة " إلبا " كان يظهر أن قواته قد بلغت حجما أثار « الدم » الى رأسه مرة ثانيــة على ما يظهر . ومع ذلك فانه كان يستخدم كلا من المفاجأة وخفــة الحركة ، على طريقته الخاصة و بسبب ذلك كان على مقربة من احراز نتيجة حاسمة . واذا كان اقترابه من جيشى " بلوخر " و " ولنجتون " وقع مباشرا من الوجهة الجغرافيــة فان توقيته كان مفاجأة . ثم ان اتجاهه زحزح « وصلة » (أى نقطة الاتصال بين الجيشين) العــدو . على ان " ني " قصر فى " ليني " فى القيام بالدور الذى كان مطلوبا منــه فى المناورة — وهو اقتراب تكتيكى غير مباشر — فأفلت البروسيــون من الهزيمة الحــاسمة . ولما رجع نابليون على " ولنجتون " فى " ووترلو " كان اقترابه مباشرا محضا وبذا أدى الى خسارة فى الوقت وفى الرجال زادت المشاق التى نشأت عن تقصير " جروشى " فى ابقاء " بلوخر " بعيدا عن ميدان المعركة « بتحويل » فكره . وعلى ذلك فان ظهور " بلوخر " كان اقترابا غير مباشر من الوجهة النفسية لأنه كان على غير انتظار ، حتى ولو أنه لم يصــل الا الى جناح نابليون . وبهذه الصفة كان حاسما ضد نابليون .

الباب الثامن

من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٩١٤

لما كان المعرض الأكبر الذى أقيم «للصلح» فى سنة ١٨٥١ فاتحة عصر جديد كثرت فيه الحروب، كانت أول حرب من سلسلة الحروب الجديدة غير حاسمة لا فى مجراها العسكرى ولا فى غايتها السياسية. ومع ذلك ففى الامكان اقتباس دروس سلبية، على الأقل، من حرب "القريم" وما كانت عليه من الوخامة والحماقة. ومن أشهر هذه الدروس عقم الاقتراب المباشر. فمتى وضع الجنرالات غمائم على أعينهم كان من الطبيعى أن يقوم أحد (الياوران) رجال الحاشية بتوجيه اللواء الخفيف (من فرسان البريطانيين) ودفعه الى مدافع الروس مباشرة. فقد كان كل شىء فى الجيش البريطانى فى كل دائرة من دوائر العمل يجرى على طريقة مباشرة مطابقة للأصول بدرجة متناهية دهش لها القائد الفرنساوى "كانروبير" حتى انه لما حضر حفلة راقصة فى بلاط ملوكى بعد الحرب ببضع سنين، تذكر فصاح قائلا «البريطانيون يحاربون كما ترقص فكتوريا». ولكن من حسن الحظ كان الروسيون متشبعين بغريزة اجراء أعمالهم بطريقة مباشرة أيضا — لدرجة أنهم اذا حاولوا القيام بمناورة بخائية فان الآلاى من آلاياتهم بعد أن يمشى طول النهار كان يعود فيجد نفسه أمام "سيواستوبول" كما كان وقت الفجر.

وإنا فى فحص أدلة حرب "القريم" المكدرة يجب ألا يفوتنا الواقع، والا نبالغ فيه، وهو أن فى الأربعين سنة التى انقضت منذ معركة "ووترلو" كانت كل جيوش أوربا قد أصبحت جيوشا محترفة بأدق معنى للكلمة. وذلك لا يعنى الاعتراض على الجيوش المحترفة، ولكن فيه تصوير لما ينطوى عليه جو الاحتراف من الأخطار. وهذه الأخطار تتأكد فى المقامات العالية، لامحالة، ومع طول مدة الخدمة مالم تقاوم بالاتصال بعالم الأعمال والأفكار الخارجى اتصالا يعيد النشاط ويجدده. ومن جهة أخرى فان المراحل الأولى من الحرب الأهلية الأميركية قد أبانت ضعف الجيش الذى لايكون محترفا. فان التعليم جوهرى لصوغ آلة فعالة يديرها الجنرال. فالحرب المستطيلة الأجل او السلم القصيرة الأجل هما أكثر الظروف ملاءمة لاخراج آلة من هذا القبيل. ولكن اذا كانت الآلة أرقى من رجل الفن الذى يديرها كان هناك عيب فى النظام. والحرب الأهلية الأميركية التى وقعت فى ١٨٦١ — ١٨٦٥ تبين لنا العكس بكل وضوح سواء فى ذلك وفى غيره. فالقادة العسكريون، خصوصا فى جيوش الجنوب، كان القسم الأعظم منهم ممن اتخذ الجندية مهنة. على أن ممارسة هذه المهنة كانت قد تخللتها فى أغلب الحالات ممارسة الأعمال المدنية أو الفراغ الذى انقضى فى الدراسة الفردية. ولم تكن ساحة التعليم هى الأرض التى ربت فيهم الأفكار الاستراتيجية ولا كانت هذه التربية محدودة بهذه الأرض. ومع ذلك فبالرغم من اتساع دائرة الاطلاع المنعش وغزارة المادة التى

استقوا منها ماقد يسمى بالاستراتيجية المحلية فان العمليات الكبرى كانت تدار فى بادئ الأمر طبقا للغاية المتفق عليها بحكم العادة . ففى الحملة الافتتاحية كانت الجيوش المتحاربة يقصد الواحد منها خصمه و يزحف عليه مباشرة . فكانت النتيجة غير حاسمة كما حصل فى (ولاية) "فرجينيا" وفى (ولاية) "ميزورى". ثم ان "ماككليلان" لما تعين قائدا عاما لجيوش الشمال فكر فى سنة ١٨٦٢ وابتكر خطة الانتفاع بالقوة البحرية لنقل جيشه الى الجناح الاستراتيجى لعدوه — لا الى مؤخرته . فهذه الحركة وان كان لاشك فى أنها مما يؤمل فيه النجاح أكثر من الزحف على العدو مباشرة بطريق البر، الا أنها على مايظهر، ابتكرت كوسيلة للاقتراب من "رتشموند" عاصمة العدو من طريق أقصر، أكثر من كونها اقترابا غير مباشر بالمعنى الحقيقى. على أن هذه الآمال خيبها الرئيس "لنكلن" بامتناعه عن قبول مجازفة مقصودة . وبناء على ذلك أبقى فيلق "ماكدوويل" لوقاية "واشنطن" مباشرة وبذلك حرم "ماككليلان" لا من قسم من قوته فحسب، بل حرمه من عنصر تشتيت أفكار العدو الذى هو جوهرى لنجاح خطته . ومن ثم فانه بعد إنزال جنوده الى البر ضاع منه شهر وهو أمام "يوركتاون" واضطر لتغيير خطته بجعلها اقترابا بالتقاء جنوده فى نقطة واحدة بعد السير متفرقة أى اقترابا شبه مباشر بالاتحاد مع "ماكدوويل" الذى لم يسمح له الا بالزحف برا على طول الطريق الموصل من "وشنطن" الى "رتشموند" مباشرة . ومع ذلك فان العمليات غير المباشرة التى قام بها "ستونوول" جاكسون فى وادى "الشنندو" كان لها من التأثير الأدبى فى حكومة "واشنطن" ماجعلها تؤجل مرة أخرى حصة "ماكدوويل" فى الزحف الرئيسى . وحتى مع ذلك كانت مقدمة جنود "ماككليلان" على مسافة أربعة أميال من "رتشموند" على قدم الاستعداد للوثبة النهائية قبل أن يتقوى "لى" بالدرجة الكافية لأن يتدخل . ثم ان الميزة الاستراتيجية كانت فى جانب "ماككليلان" حتى بعد فشله تكتيكيا فى المعارك التى استمرت سبعة أيام . وربما كانت هذه الميزة أعظم مما كانت قبلا لأن تعطيل سيره الجانبى لم يمنعه من تحويل قاعدته نحو الجنوب الى نهر "الجيمس". فهو والحالة هذه لم يكفل سلامة مواصلاته فقط، بل انه اقترب من مواصلات العدو المتجهة جنوبا من "رتشموند"، بدرجة خطرة. غير أن هذه الميزة زالت بتغيير الاستراتيجية . فان "هليك" تعين قائدا عاما متخطيا "ماككليلان" لأسباب سياسية، وأمر باعادة أركاب جيش "ماككليلان" بالسفن والانسحاب الى جهة الشمال ليتحد مع جيش "پوپ" فى زحف مباشر بطريق البر. فكما يحصل كثيرا فى التاريخ، ليس معنى ازدواج القوة ازدواجا مباشرا أنها تصبح أقوى مما كانت بمثلين، بل انه ينقص تأثيرها بمقدار النصف لأنه يجعل «خطوط انتظار» العدو أبسط . ومع ذلك فان استراتيجية "هليك" تطابق التفسير الظاهرى لمبدأ الاحتشاد فيتبين منها الزلل الذى يقع فيه الذين يستسهلون هذا العلاج المألوف لكل الحالات العسكرية . أما استراتيجية الاقتراب المباشر التى كانت سائدة طول النصف الثانى لسنة ١٨٦٢ وما كان يلازمها من العجز، فقد انتهى أمرها بالخيبة التى صادفتها فى المعركة

الدموية التى نشبت فى ١٣ ديسمبر "بفريدريكسبورج". ثم ان استمرار هذه الاستراتيجية ودوامها فى سنة ١٨٦٣ لم يؤد الى زيادة الاقتراب من "رتشموند"، بل انه أدى الى غزو الجنوبيين أراضى الشمال على أثر انهيار الحركات التعرضية التى قام بها جنود الشمال . ثم ان هذا الغزو المباشر صد هو الآخر فى "جتزبورج". وفى نهاية السنة كانت الجيوش قد رجعت الى مواقعها، وكان كلا الطرفين قد سفك من دمائه ما أضعفه بدرجة لا يستطيع معها سوى الوقوف أمام خصمه وجها لوجه عبر نهرى "الرابيدان" و"راباهانوك" ويحدق فيه بعين الحقد . ومما له دلالة خاصة هو أن فى هذه الحملات التى كان الطرفان يتبادلان فيها الاقتراب المباشر كان ما يحصل من المزايا يكون فى جانب الفريق الذى ينتهج خطة الدفاع مكتفيا بصد زحف خصمه . لأن فى مثل هذه الظروف الاستراتيجية يبقى الدفاع هو الصورة الأقل استقامة من الأخرى لأنها تقتصر على تجنب بذل مجهود لا طائل تحته .

والمتفق عليه بصفة عامة هو اعتبار صدّ الغزو الذى قام به "لى" فى "جتزبورج" مبدأ انقلاب حالة الحرب وتغيرها. على أن هذا الزعم لا مبرر له الا بالمعنى المسرحى . أما حكم الرأى التاريخى السديد فقد أكد مرة بعد أخرى أن المؤثرات الحاسمة جاءت من جهة الغرب . وأولها كان فى أبريل سنة ١٨٦٢ حينما مرت العمارة البحرية التى كانت تحت قيادة "فاراجوت" أمام الطوابى التى كانت تحرس مصب نهر "المسيسيبى" وتمكن بها "فاراجوت" من الفوز بتسليم "نيواورلينز" بدون سفك دماء . فكانت هذه فى الواقع رأس السهم الذى نفذ بين شطرى ولايات الجنوب على طول الخط الحيوى المكوّن من هذا النهر العظيم صعدا على مجراه .

أما المؤثر الحاسم الثانى فقد أحرز أبعد من ذلك صعدا فى "المسيسيبى" فى نفس ذلك اليوم أى ٤ يوليه، عند ماشرع "لى" فى رجعته من "جتزبورج" . وهو استيلاء "جرانت" على "فيكزبورج" التى أعطت الشمال السيطرة التامة على هذا الشريان الحيوى . وبذلك أصبحت ولايات الجنوب محرومة حرمانا دائما من تغذية جنودها بالامدادات والمؤن من الولايات الواقعة وراء "المسيسيبى" . على أن تأثير هذا الاحتشاد، القائم على الاستراتيجية العظمى، ضد الشريك الأصغر، يجب ألا يغطى على الوسائل الاستراتيجية التى أوجدته . فان أول اقتراب الى "فيكزبورج" فى ديسمبر سنة ١٨٦٢ كان مباشرا فى جوهره وقد أخفق . وفى فبراير ومارس سنة ١٨٦٣ حاولوا عبثا أربع مرات الوصول الى الغاية بمناورات ضيقة ترمى الى تجاوز الجناح. وبعد ذلك لجأ "جرانت" الى اقتراب غير مباشر واسع النطاق كان شبيها بحركة "وولف" النهائية فى "كويبك" (كندا) لا من حيث جرأتها فقط . فمر قسم من أسطول الشمال ونقالاته من أمام بطاريات "فيكزبورج" ليلا وسار نحو الجنوب الى نقطة تبعد عن القاعدة بمسافة ثلاثين ميلا . ثم تحرك معظم الجيش الى تلك النقطة برا بطريق الشاطئ الغربى

"لمسيسبي" وتحت ستر الحركات التى كان قام بها "شيرمن" لتشتيت أفكار العدو متجها نحو الشمال — الشرق من "فيكزبورج" . ثم نقل الجيش الى الشاطئ الشرقى فى مواجهة مقاومة ضعيفة . ولما انضم "شيرمن" الى "جرانت" ثانيا قام هذا بمجازفة مقصودة هى انفصاله عن قاعدته الوقتية الجديدة وتحرك شمالا متوغلا فى أراضى العدو ، ووضع نفسه على مؤخرة "فيكزبورج" معترضا مواصلاتها مع الولايات الشرقية الرئيسية من بلاد حكومة الجنوب بعد أن دار من النقطة التى بدأ منها دورة تكاد تكون تامة . فكان الظاهر والحالة هذه أنه وضع نفسه فى منتصف المسافة الكائنة بين فكى العدو — لأن قواته كانت محتشدة فى "فيكزبورج" وفى "جاكسون" . وعلى مسافة أربعين ميلا شرقا توجد نقطة اتصال السكة الحديدية الجانبية الجارية شمالا وجنوبا بالخط الرئيسى المار شرقا فغربا . ولكنه فى الواقع زحزح عمل هذين الفكين . ومما هو جدير بالذكر أنه حينما وصل الى هذه السكة الحديدية رأى من المستحسن أن يبدأ بنقل جيشه بأجمعه نحو الشرق ليلجئ العدو الى اخلاء "جاكسون" . وفى ذلك بيان للتغيير التى طرأ على الظروف الاستراتيجية بسبب تطور السكك الحديدية . لأنه بينما كان نابليون يستخدم خط نهر أو سلسلة تلال كحاجزه (سده) الاستراتيجى . كان حاجز "جرانت" الاستراتيجى ينشأ عن تملكه نقطة واحدة — نقطة اتصال الخطوط الحديدية . وبعد أن استولى على هذه النقطة دار الى الوراء وتحرك زاحفا على "فيكزبورج" وكانت اذ ذاك قد انفصلت وبقيت منفصلة مدة من الزمن كانت كافية لتسليمها بعد ذلك بسبعة أسابيع . وكانت النتيجة الاستراتيجية على أثر ذلك فتح طريق "تشاتانوجا" الى "جورجيا" التى هى مورد الغلال لولايات الجنوب . ومنها الى الولايات الشرقية بأجمعها .

فكانت هزيمة الجنوب حينذاك تكاد تكون أمرا لامفر منه . ومع ذلك فان جنود الشمال كادوا يفقدون النصر الذى كان مضمونا لهم . لأن ولايات الشمال استولى عليها الملل فى سنة ١٨٦٤ تحت تأثير الشدة وأصبحت الكلمة للعنصر الأدبى وأخذ حزب الصلح يزداد يوما بعد يوم بانضمام الذين ملوا الحرب الى صفوفه . وكان موعد انتخاب الرئيس فى نوفمبر فكان لابد من اعطاء وعد صريح بتعجيل النصر وإلا ينتخب رئيس غير "لنكان" يسعى للاتفاق مع العدو على عقد الصلح . ولهذا السبب استدعى "جرانت" من الغرب ليتولى القيادة العليا . فكيف كان سعيه فى الحصول على النصر المطلوب عاجلا؟ بالاستراتيجية التى كان يتبعها دائما أولئك القادة المتمسكون بالأصول العتيقة المتفق عليها بين رجال الجندية — أى باستخدام قوته المتفوقة على العدو تفوقا هائلا بأن يلقى ثقله على جيش العدو فيحطمه تحطيما ، أو أن ينهكه « بالطرق المستمر » . فقد شاهدنا أنه فى حملة "فيكزبورج" لم يستخدم الاقتراب غير المباشر المتطرف الا بعد أن انتهج الاقتراب المباشر أكثر من مرة ثم فشل . وعندها نفذه بمهارة الأستاذ . ولكن يظهر أن ذلك الدرس لم ينطبع على ذهنه .

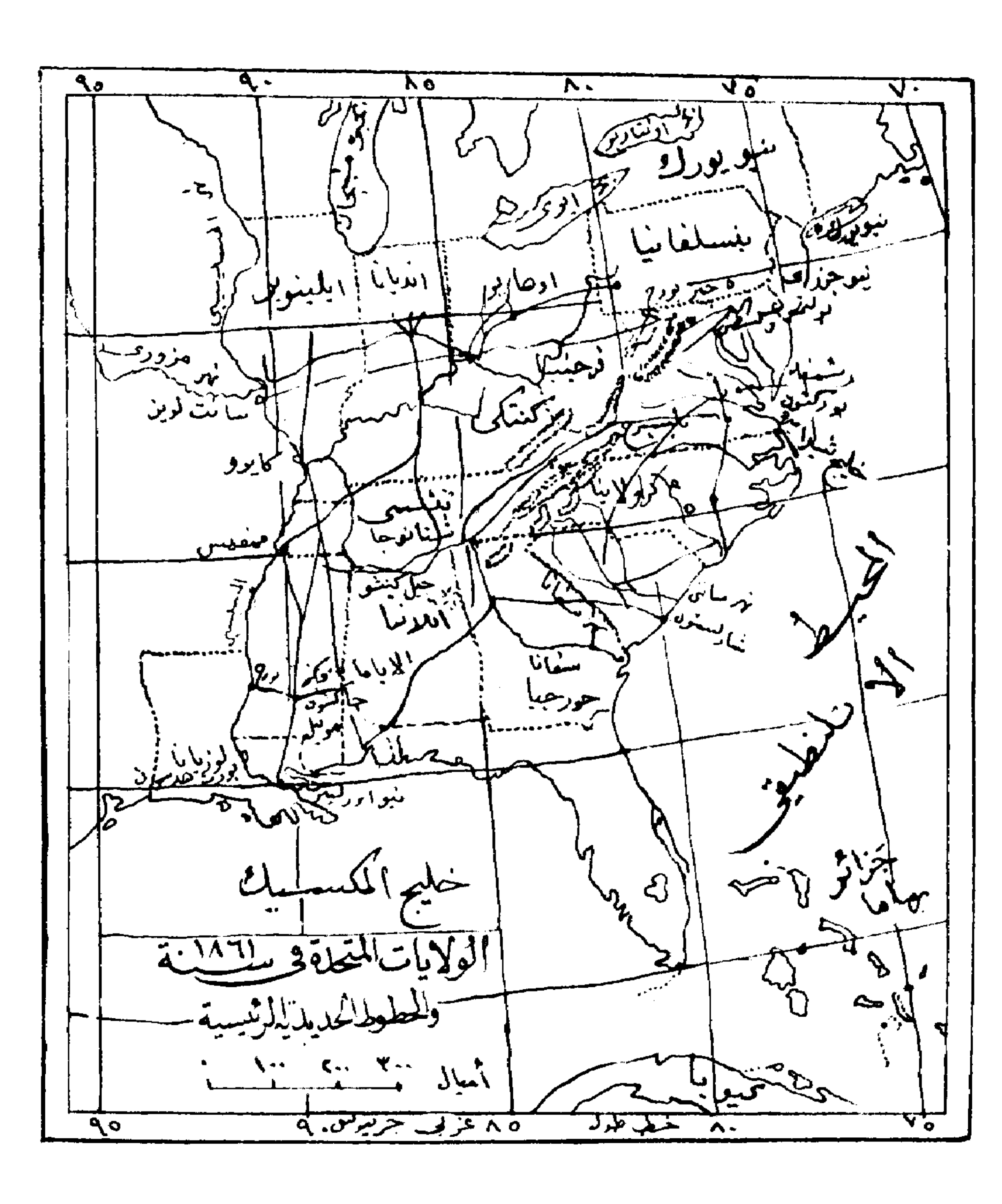
فالآن وهو فى منصب القيادة العليا جاءت أعماله مطابقة لطبيعته . فقد صمم على انتهاج الاقتراب المباشر القديم نحو الجنوب من نهر "الرباهانوك" متجها نحو "فرجينيا" . على أن ذلك كان يرمى الى شيء آخر — لأن غرضه الحقيقى هو جيش العدو أكثر من كونه عاصمة العدو . فوجه مرؤوسه "ميد" وزوده بقوله "أينما يذهب" لى "عليك أنت أيضا أن تذهب" وانصافا "لجرانت" أيضا يجب القول انه وان كان اقترابه مباشرا بالمعنى الشامل فهو لم يكن بمعنى مجرد اندفاع جبهى مطلقا ، وفى الحقيقة انه كان يسعى دائما للالتفاف حول جناح عدوه بالمناورات وان كانت فى محيط ضيق . وزيادة على ذلك فانه استوفى كل الأصول العسكرية الصحيحة من الاحتفاظ باحتشاد جيشه ، وملازمة ابقاء غرضه نصب عينيه لايحوله عنه فزع آت من جهة أخرى . وكانت "ارادته للنصر" لا تفوقها حتى ارادة "فوش" . ويحق للذين اتبعوا طريقته فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يحسدوه على ما لاقى من رئيسه السياسى من سخاء العون الذى أمده به والثقة التى لا تنقطع . فمن المؤكد أن ظروفه كانت من أكمل ظروف الاستراتيجية الأصولية بأحسن طرقها المنطوية على الاقتراب المباشر .

ومع ذلك ففى نهاية صيف سنة ١٨٦٤ ذبلت فى أيدى رجال الشمال ثمرة النصر التى كانت ناضجة . ففى الشمال كان الصبر والجلد قد بلغ النهاية حتى يئس "لنكان" من اعادة انتخابه — وهذا جزاء مؤلم على الثقة المطلقة التى أودعها فى منفذه العسكرى وجزاء سخرى على صدق العزيمة التى أدار بها "جرانت" قوته المتفوقة التى انكمشت الآن بشكل مرعب على أثر المعارك الطاحنة التى وقعت فى "البرية" وفى "كولدهاربور" وفشلت فشلا تاما فى سحق جيش العدو . وفى حين أن النتيجة الرئيسية — وهى الميزة الجغرافيــة التى توفرت بالدوران الذى تم حتى بلغ ما يقرب من مؤخرة "رتشموند"، أحرزتها المناورات التى لم تسفك فيها دماء والتى حصلت أثناء زحفــه . وعلى ذلك فقد كان على شيء من الرضاء لوجوده بعــد الخسائر الجسيمة فى الموقع الذى احتله "ماككيلان" فى سنة ١٨٦٢ . على ان الجو الذى كان يظهر أنه فى أشد درجات الحلوكة أضاء فجأة . فان "لنكلن" أعيد انتخابه فى نوفمبر وعاد الى مركز القوة . فما هو العامل الذى أغاثه وحال دون احتمال انتخاب "ماككيلان" مرشح الحزب الديمقراطى الذى كان يطلب الصلح ليحل محله ؟ ليست حملة "جرانت" التى لم تتقدم فى الواقع بين يوليه وديسمبر بل أخفقت اخفاقا مزدوجا فى منتصف أكتوبر كلفها كثيرا . انما العامل الذى كان سبب النجاة هو باقرار المؤرخين استيلاء . "شيرمن" على "اطلنتا" فى سبتمبر . فان "جرانت" عندما استدعى ليتولى القيادة العليا . خلفه فى القيادة فى الغرب "شيرمن" الذى اشترك بمقدار غير يسير فى الفوز الذى أحرزه "جرانت" فى "فيكزبورج" . وكان هناك تناقض بين أمانى كل منهما . فبينما كان الغرض الأولى الذى يرمى اليــه "جرانت" هو جيش العــدو كان "شيرمن" يرمى الى الاستيلاء على النقط الاستراتيجية . وكانت "اطلنتا" التى هى قاعدة

جيش العدو الذى يقاومه ليست نقطة الاتصال بين أربعة خطوط من خطوط السكك الحديدية الهامة فحسب ، بل كانت أيضا مستودعا لمؤن حيوية . وكما قال ”شيرمن“ كانت ”مليئة بدور صب المعادن (المسابك) ، والترسانات ، ودور الصناعة (الورش) الميكانيكية“ . فضلا عن كونها رمزا أدبيا . وفى رأيه أن ”الاستيلاء عليها يكون نذير الموت لولايات الجنوب“ وسعى لأن يضربها بالمناورات بقدر الامكان بدلا عن ضربها بمعركة — اذ كان متشبعا بفكرة الفوز بأرخص ثمن ممكن . ومهما وجد من تشعب الآراء فى تقدير قيمة الغرض الذى قصده ”جرانت“ والغرض الذى قصده ”شيرمن“ فان الظاهر هو أن الأخير منهما أكثر ملاءمة للنفسية الديموقراطية . وربما كان الحاكم المطلق وحده الواثق من مركزه هو الذى فى وسعه أن يأمل أن يحافظ على المثل الأعلى للفكرة العسكرية بأن يجعل ”القوات المسلحة“ الغرض الذى يرمى اليه . وان كان حتى هو نفسه يلتزم الحكمة فيوفق بين هذا المثل الأعلى وحقائق الموقف . ويزن الظروف المتوقعة لتنفيذه بميزان العقل . ولكن الاستراتيجى الذى يخدم حكومة ديموقراطية لا يتسع له المجال بهذا القدر . فهو يعتمد على ما يمده به مخدمه من العون وما يوليه من الثقة فيضطر لأن يعمل فى حدود من الوقت والتكاليف أقل من الحدود التى يعمل فيها الاستراتيجى ”المطلق“ . وتطلب منه مكاسب سريعة بالحاح أكثر . ومهما كان ما يأتى به المستقبل فى آخر الأمر فانه لا يستطيع تأجيل تقديم الحساب . ومن ثم قد تلجئه الضرورة لأن يحيد عن غرضه موقتا ، أو على الأقل ، يعطيه شكلا آخر بأن يغير خط عملياته . فمع هذه العوائق التى لا مفر منها يجدر بنا التساؤل عما اذا لم يكن من الواجب أن تكون النظرية العسكرية فى مثلها العليا أكثر تطابقا مع الحقيقة المقلقة وهى أن المجهود العسكرى يقوم على الأساس الذى يرتضيه الشعب — أى أن تقديم الرجال والذخائر ، بل وحتى موالاة القتال أو قطعه كل ذلك يتوقف على رضاء ”رجل الشارع“ . فان الذى يأجر الزمار يختار النغمة . وليس ما يمنع أن يُعطى الاستراتيجيون أجرا ، من النوع والصنف ، أكثر اذا هم أصلحوا نغماتهم بقدر ما فى امكانهم حتى تقبلها أذن الشعب (يريد أن لا مانع من تقديم الجنود والذخائر مادام القائد يعمل ما يرضى الشعب) .

وقد كان اقتصاد ”شيرمن“ فى القوة بالمناورات أكثر ظهورا لأنه خلافا لما كان عليه ”جرانت“ فى ”فرجينيا“ ، كان مقيدا فعلا بخط حديدى واحد لاستيراد مؤنه . ومع ذلك فانه تجنبا لتوريط جنوده فى هجوم مباشر ترك هذا الخط وابتعد عنه . فلم يسمح بهجوم جبهى فى كل هذه الأسابيع التى انقضت فى المناورات الامرة واحدة فى ”جبل كنيصو“ . ومما هو جدير بالذكر أنه سمح بهذا الهجوم ليوفر على جنوده مشقة موالاة السير الجانبى فوق طرق مغمورة بالمياه . وأن هذا الهجوم صُد — وقد خف تأثير هذه الصدمة لأن المجهوم أوقف

بمجرد اعاقته لأول مرة . وكانت هذه فى الواقع هى المرة الوحيدة التى حصلت أثناء الزحف الذى قطع فيه "شيرمن" ١٣٠ ميلا مجتازا بلادا جبلية تتقاطع فيها الأنهر وورط فيها جنوده فى معركة هجومية . وهو فى الحقيقة كان يقوم بالمناورات بمهارة استدرج بها جنود الجنوب المرة بعد المرة الى جهات لا طائل تحتها فان ارغامه عدوا متخذا خطة الدفاع الاستراتيجى على انتهاج سلسلة من الحركات التكتيكية التعرضية التى تكلفه خسائر كثيرة كان فوزا فى المهارة الفنية الاستراتيجية لم يسبق له مثال فى التاريخ . ومما يرفع من شأن هذه المهارة بصفة خاصة هو أن "شيرمن" كان مرتبطا فى مواصلاته بخط واحد لا غير . وحتى مع مراعاة أضيق قواعد القياس العسكرية ، وغض النظر عن التأثير الجسيم أدبيا واقتصاديا الذى أحدثه هذا العمل . فانه عمل مجيد لأن "شيرمن" أوقع بالعدو من الخسائر أكثر مما أصابه هو . وليس ذلك نسبيا فقط . بل فى الواقع — اذا "قورن" عمله بعمل "جرانت" فى فرجينيا . ثم ان "شيرمن" بعد استيلائه على "اطلانتا" جازف مجازفة لم يسبق له مثلها ، وانتقده عليها كثيرا الشراح العسكريون فقد فكر فى أنه اذا استطاع أن يخترق "جورجيا" سيرا و يدمر نظم سككها الحديدية بما أنها "مورد الغلال فى ولايات الجنوب" ، ومنها يسير الى "كارولاينا" الجنوبية "فكارولاينا" الشمالية فان التأثير الأدبى الذى يحدثه غزو بلاد الجنوب على هذه الصورة ، ووقف تسيير المؤن شمالا الى "رتشموند" والى جيش "لى" ، يحدثان انهيار مقاومة ولايات الجنوب . ولذلك فانه أهمل جيش "هود" الذى كان ألجأه الى الجلاء عن "اطلانتا" ثم شرع فى سيره المشهور "السير الى البحر" مخترقا "جورجيا" وهو يموّن جيشه من البلاد ويدمر السكك الحديدية فقام من "اطلانتا" فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٤ وفى ١٠ ديسمبر وصل الى ضواحى "سافانا" وفيها أعاد فتح مواصلاته وجعلها هذه المرة بحرا ، وحرم الجنوب من ثغوره الشهيرة التى كانت باقية له . و بعد ذلك تحرك شمالا مجتازا ولايتى "كارولاينا" وجاء على مؤخرة "لى" أما "جرانت" فانه لم يستأنف الزحف الا بعد ذلك بثلاثة أشهر ونيف ، فى أوائل أبريل . وهذا الزحف أحرز فوزا مسرحيا . وتسليم "رتشموند" أعقبه تسليم جيش "لى" فى ظرف أسبوع . فأما من حيث الظاهر فان هذا التسليم جاء فوزا مبررا لاستراتيجية "جرانت" المباشرة واتخاذه "المعركة" غرضا . وأما من حيث الحكم الجدى المبنى على النظر والرأى السديد فان عامل الوقت من أهم العوامل . فان تدهور مقاومة ولايات الجنوب سببه الجوع الذى كان له رد فعل فى القوة المعنوية . فقد كان الاقتراب غير المباشر الى مؤخرة العدو الاقتصادية والمعنوية حاسما فى الطور الأخير كما كان فى التنقلات المتوالية التى مهدت للحسم فى جهة الغرب . وهذه الحقيقة تتضح لمن يدرس هذه الحرب دراسة دقيقة شاملة . وقد قدرها حق قدرها الجنرال "إدموندس" المؤرخ الحالى الرسمى الذى وضع تاريخ الحرب العالمية . وذلك منذ أكثر من عشرين سنة حيث قال فى قراره ما يأتى :



الولايات المتحدة في سنة ١٨٦١
والخطوط الحديدية الرئيسية
خليج المكسيك
المحيط الاتلنطيق
نيويورك
بنسلفانيا
ايلينويز
اندبانا
اوهايو
فرجينيا
كنتكى
تنسى
الاباما
جورجيا
كارولاينا
لويزيانا
نيواورلينز
منفيس
سانت لويز
كايرو
شاتانوجا
سفانا
شارلستون
ريشمند
واشنطون
بلتيمور
نهر مزوري
ميشيغان
ايري
اونتاريو
جزائر بهاما
كيوبا
أميال
٩٥
٩٠
٨٥
٨٠
٧٥
٧٠
خطوط طول غربي جرينتش

"ان العبقرية العسكرية التي اتصف بها قائدا الجنوب الكبيران "لى" و "جاكسون" والمقدرة الحربية التى اتصف بها جيش فرجينيا الشمالية التى لا مثيل لها . وقرب العاصمتين المتنافستين احداهما من الأخرى . كل ذلك كان سببا فى تركيز الالتفات على المسرح الشرقى للحرب بدرجة لا مبرر لها . أما الدرجات الحاسمة فقد وقعت فى الغرب . فان الاستيلاء على "فيكزبورج" و"بورت هندرسون" فى يوليه سنة ١٨٦٣ كان النقطة الحقيقية التى طرأ فيها الانقلاب على الحرب كما كانت العمليات التى قام بها جيش "شيرمن" الغربى الأكبر هى التى أدت فى الحقيقة الى انهيار الجنوب فى "دار محكمة أبوماتوكس" — المكان الذى سلم فيه "لى" فى الشرق .

وذلك الالتفات الذى لا مبرر له يرجع بعضه الى فخفخة المعارك التى تسحر الجندى العادى الذى يدرس التاريخ ، وبعضه الى تأثير حماسة "هندرسون" فى كتابه المسمى "ستونوول جاكسون" — الذى ربما كان شعرا حماسيا أكثر منه تاريخا . وذلك لم يقلل من قيمة الكتاب الحربية . بل على العكس فانه زادها . وربما كانت هذه الزيادة راجعة الى بيان آراء هندرسون فى الحرب أكثر منها الى سرد أعمال "جاكسون" التنفيذية ولكن هذا الكتاب قد اجتذب التفات الطالب الحربى البريطانى الى حملات "فرجينيا" بما حواه من البيانات الشيقة ، وأهمل المسارح الغربية حيث وقعت الأعمال الحاسمة . وفى مقدور الجنرال "أدموندس" بصفته واضع تاريخ حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يؤدى خدمة للأجيال المقبلة بتحليله للتأثير المتولد عن هذا "الالتفات الذى لا مبرر له" فى أفكار البريطانيين قبل سنة ١٩١٤ ، وبالتالى ما كان له من أثر فى الاستراتيجية البريطانية . فان كلاهما لم يكن متحيزا فقط بل كان قائما على قياس خاطئ .

وعند ما ننتقل من الحرب الأهلية الأمريكية الى الحروب الأوربية التى وقعت على أثرها فان الذى ينطبع على مخيلتنا أكثر من غيره هو وضوح التناقض بينهما . فأول نقيض هو أن فى حربى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ كان كلا الفريقين المتحاربين متأهبا للحرب ولو اسميا على الأقل . والنقيض الثانى أن النضال كان بين جيوش محترفة . والثالث أن الرياسة العليا لدى الفريقين كان عند كل منها كشف ببيان الأخطاء والزلات لم تتوصل اليه القيادة العليا فى الحرب الأمريكية . والرابع أن الاستراتيجية التى اتبعها كلا الطرفين فى كلا الحربين كانت ناقصة نقصا جوهريا فى الفن . والخامس أنه بالرغم من كل ما ذكر كان الحسم سريعا . فاستراتيجية "مولتكه" كانت فى جوهرها استراتيجية الاقتراب المباشر وليس فيها من الخدعة الا شيء يسير ، معتمدة على مجرد قوة التحطيم التى تتوافر فى تفوق القوة المحشودة . فهل نستنتج من ذلك أن هاتين الحربين هما الاستثناء الذى يضرب به المثل على اثبات القاعدة ؟ نعم انهما مستثنيان فى الواقع ولكن لا يمكن القول بأنهما استثناء للقاعدة التى نتجت عن الحالات الكثيرة

التى سبق فحصها . لأنه ليس فى واحدة منهما ان كان كل من ضعف القوة و بلادة العقل كلاهما فى جانب الفريق المهزوم فكانا يثقلانه من أول الأمر . فكثيرا ما شوهد أحدهما أو الآخر (الضعف أو البلادة) ولكن لم يشاهدا كلاهما مطلقا . أما فى سنة ١٨٦٦ فكان ضعف قوة النمساويين من بادئ الأمر فى كون أسلحتهم أقل قيمة من أسلحة عدوهم — لأن البندقية التى تحشى من الخلف أعطت البروسيين ميزة على بندقية النمساويين التى تحشى من الفوهة كما ثبت فى ميدان القتال بما لا يدع شكا ، ولو أن آراء المجامع العلمية العسكرية فى الجيل التالى كانت تميل الى اغفال ذلك . وأما فى سنة ١٨٧٠ فكان ضعف قوة الفرنسيين يرجع بعضه الى أقليتهم العددية ، وبعضه الى انحطاط درجة التعليم كما فى سنة ١٨٦٦ . فهذه الحالات المزدوجة فيها أكثر مما يكفى لتفسير أسباب حاسمية هزيمة النمساويين فى سنة ١٨٦٦ ، وأكثر منه لتفسير أسباب حاسمية هزيمة الفرنسيين فى سنة ١٨٧٠ ، أمام اقتراب مباشر . أما الدرس الحقيقى المكتسب من هذه الأمثلة فهو ليس فى أن الاقتراب الاستراتيجى فيها كان استثناء للقاعدة ، بل ان الاستثناء من التجارب السالفة كان فى الظروف . فقد كانت ظروفا استثنائية حقا . وفى المناقشات أو الاستعدادات التى تسبق الحرب لا يجرؤ جندى على تأسيس خططه على افتراض أن عدوه سيكون ضعيفا عقلا وجسما كالنمساويين فى سنة ١٨٦٦ والفرنسيين فى سنة ١٨٧٠ ، ومع ذلك فان الواقع فى سنة ١٩١٤ هو أن الخطط التى وضعتها هيئات أركان الحرب المختلفة وبينت تفصيلاتها وقبلتها للحرب كانت مؤسسة على الاقتراب المباشر . ومن ثم فان الاستنتاج الوحيد الممكن ، وان كان لا يصدق ، هو انها افترضت دون أن تشعر أن ظروف سنة ١٨٧٠ كانت ظروفا عاديه لا استثنائية .

وفى نفس الوقت فان مما يستحق البيان قبل الانتهاء من هذه الأمثلة هو أن الاستراتيجية الألمانية وان كانت مباشرة فى تصميمها الا أنها كانت أقل من المباشرة فى تنفيذها . فان الحاجة الى توفير الوقت فى سنة ١٨٦٦ باستخدام كل السكك الحديدية الموجودة أدت "بمولتكه" لأن ينزل القوات البروسية من القطارات على جبهة متسعة جدا تزيد على ٢٥٠ ميلا وكان فى نيته أن يجمعها الى الداخل بأن تتلاقى معا بزحف سريع مجتازة منطقة الحدود الجبلية ويضم جيوشه فى بوهيميا الشمالية . ولكن ضياع الوقت بسبب امتناع ملك بروسيا عن أن يكون هو المعتدى خيب نية "مولتكه" وذلك أكسب استراتيجيته اقترابا غير مباشر لم يكن فى تصميمه . لأن الجيش النمساوى احتشد واندفع الى الأمام فى تلك الفترة فحرم "مولتكه" من الساحة التى كان يريد أن يحتشد فيها . ثم ان ولى عهد بروسيا ، لاعتقاده بأن زاوية "سليسيا" الخارجة مهددة انتزع منه اذنا على غير رضاه لتحريك جيشه الثانى نحو الجنوب لتأمين "سليسيا" وبذا ازداد انفصالا عن الجيوش الاخرى ، وبذا أيضا تحرك على طول

القسم العلوى لحرف L (الافرنجية) فوضع نفسه فى موقع يهدد جناح ومؤخرة الكتلة النمساوية وقد سكب الأدعياء كثيرا من المداد فى إدانة "مولتكه" على إذنه للأمير بهذا الانتشار المتسع مع أن هذا الامتداد كان فى الحقيقة عبارة عن بذور النصر الحاسم وان كان لم يبذره هو عن قصد .

فهذا القرب أخل بتوازن القيادة النمساوية العقلى بدرجة مكنت البروسيين ، بالرغم مما ارتكبوه من الأخطاء الجسيمة ، أن ينفذوا أولا من الجبال على كلا الجانبين . ثم يحرزوا النصر الذى أحرزوه فى "كونيجراتس" — حيث وقعت أخطاء أخرى صيرت الاقتراب غير مباشر فأصبح حاسما . غير أن القائد النمساوى غلب قبل افتتاح المعركة . فانه كان قد بعث الى امبراطوره رسالة برقية يلح فيها بطلب صلح عاجل .

وفى سنة ١٨٧٠ كان فى نية "مولتكه" أن يحدث معركة حاسمة على نهر "الصار" حيث تحتشد جيوشه الثلاثة مطبقة على الفرنسيين فتسحقهم سحقا . وهـذه الخطة قلبت رأسا على عقب لا بفعل الفرنسيين ولكن بفعل الشلل الذى أصابهم . وسبب هـذا الشلل هو مجرد وصول أخبار تنبىء بأن الجيش الألمانى الثالث الموجود فى نهاية الميسرة قد عبر الحدود مبتعدا نحو الشرق وأحرز فوزا تكتيكيا صغيرا على قسم فرنساوى فى "وايسنبورج" وفى النتيجة كان التأثير غير المباشر الذى أحدثه هذا الاشتباك الصغير حاسما بدرجة أعظم مما كان يحتمل أن يتأتى من المعركة الكبرى التى كان فى النية احداثها . لأن الجيش الثالث كان سمح له بأن يتخذ طريقا يسوده السكون متطرفا نحو الشرق خارج منطقة الجيوش الرئيسية المتناضلة بدلا من دورانه الى الداخل ليعزز الكتلة الرئيسية . ولذلك لم يشترك فى المعركتين الطائشتين "فيونفيل" "وجرافيلوط" — فان موقع الفرنسيين كان فى وضع يجعل اشتراكه فيها اشتراكا مثمرا أمرا غير محتمل لو أنه كان أقرب مما كان — ولهذا السبب كان هو العامل الحيوى فى الطور التالى الحاسم . لأن الجيش الفرنسى الرئيسى — الذى كان قد ازداد نشاطا ، لا فتورا ، بنتيجة معركة جرافيلوط — لما تقهقر وارتد جناحه ودخل الى قلعة "متس" كان فى ميسوره أن يفلت من الجيشين الأول والثانى الألمانيين للذين كان الاعياء قد أخذ منهما كل مأخذ . ولكن احتمال تدخل الجيش الثالث حرض "بازان" على البقاء آمنا فى "متس" وبذا توافر الوقت للألمان لجمعوا شتاتهم ، وللفرنسيين ليفقدوا اتصال بعضهم ببعض بمجهودهم الذى أعقب تركهم الميدان المكشوف . وكانت نتيجة ذلك أن حرض "ماكماهون" محرض أو ضغط عليه سياسيا لأن يقوم بحركته لتخليص "متس" تلك الحركة الدالة على تدبير عقيم وادارة أكثر عقما . وبهذه الكيفية تواجدت فرصة ، لم تكن مقصودة ولا متوقعة ، للجيش الثالث الذى كان ما يزال مواليا سيره "حرا" نحو باريس ، أن يقترب من جيش "ماكماهون" اقترابا غير مباشر . فما كان منه الا أن غير اتجاهه تغييرا تاما من جهة الغرب الى جهة الشمال وتحرك

هابطا على جناح "ما كماهون" ومؤخرته فكانت نتيجة ذلك معركة "سيدان" حتى فى الحرب الذى كان فيه الاقتراب المباشر ظاهرا أكثر مما فى غيره كان الطور الحاسم ينطوى على أساليب غير مباشرة أكثر مما تدل عليه الظواهر . على أن المشاهد فى جملة الأبحاث النظرية العسكرية التى وضعت بعد سنة ١٨٧٠ ، أن الظواهر هى التى كانت تتأثر بها هذه الأبحاث ، دون الاستنتاجات العميقة . وهذا التأثير هو الذى كان يسود الحرب التالية التى كانت فى نطاق واسع — وهى الحرب الروسية — اليابانية . فان الاستراتيجية اليابانية كانت تنطوى على الاقتراب المباشر الصرف اذ كانت تابعة لمستشاريها الألمانيين بغاية الدقة . فلم تحصل أية محاولة للاستفادة من الظروف التى كانت ملائمة بدرجة فوق المعتاد . ظروف كون مجهود الروسيا الحربى متوقفا على خط حديدى واحد ، هو خط سكة حديد سيبريا . وليس فى التاريخ بأجمعه أن جيشا كان يتنفس الهواء من حنجرة طويلة ضيقة كما كان الجيش الروسى الذى كان حجمه يزيد تنفسه صعوبة . غير أن كل ما كان استراتيجيو اليابان يفكرون فيه هو ضربة ينزلونها بالجيش الروسى موجهة الى أسنانه مباشرة ، فأبقوا جنودهم متجمعة مجموعات أكثر تلاصقا مما كانت جنود مولتكه فى سنة ١٨٧٠ . نعم انهم حاولوا أن يقوموا باقتراب تتلاقى فيه جنودهم أمام "لياو — يانغ" ولما اتصلوا بالعدو سعوا مرارا لأن يتجاوزوا جناحه . ولكن اذا كانت هذه الحركات التى يقصد بها تجاوز الجناح تظهر على الخريطة كأنها متسعة نسبيا فانها فى منتهى الضيق بالنسبة لحجم القوات . ومع أنه لم يكن لديهم جيش "حر" ثالث كالذى كان لدى "مولتكه" لحسن حظه ، ولا طعم مغرى مثل "متس" ولا "ماكماهون" ليبتلع هذا الطعم — لأنهم ابتلعوا طعمهم بأخذهم "بورت أرثر" — فانهم كانوا ينتظرون "سيدان" فكانت النتيجة أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم بعد معركة "موكدن" النهائية التى لم تكن حاسمة لدرجة أنهم فرحوا ، وساعدهم الحظ ، لعقد الصلح مع عدو مل النضال مع أنه لم يشرك فيه عشر القوات الموجودة لديه بعد .

هذا التحليل التاريخى يعالج الحقائق ، لا الآراء الفرضية ، أى ما وقع فعلا وما نتج عنه لا ما كان يمكن أن يقع . فان نظرية الاقتراب غير المباشر البارزة منه يجب أن تستقر على الأدلة المجسمة المأخوذة من التجارب الفعلية بأن الاقتراب المباشر غير حاسم وهذا التحليل لا دخل له مطلقا بالجدل فيما يختص بالصعوبات التى تعترض القيام باقتراب غير مباشر فى حالة معينة ، اثباتا كان أو نفيا . فليس من المناسب فى وجهة نظر هذا الموضوع الأساسى أن نبحث عما اذا كان فى استطاعة القائد أن يسلك سبيلا غير الذى سلكه . وعما اذا كان السبيل الآخر يؤدى الى نتائج أحسن لو أنه سلكه .

على ان التبصر من وجهة المعلومات العسكرية العامة يسترعى الالتفات دائما . وكثيرا ما يكون ذا قيمة . ولذا فاذا تحول الانسان عن الموضوع الحقيقى لهذه الدراسة وخرج عنه فانه قد يلاحظ العراقيل التى لاقاها اليابانيون من جراء قلة المواصلات ووعورة الأراضى فى "كوريا" و"منشوريا" ومع ذلك يلاحظ التشابه العظيم بين "بورت — أرثر" و"مانتاو" فان كانت الظروف أكثر صعوبة من بعض الأوجه . فانها كانت أفضل من أوجه أخرى . فضلا عن أن الآلة (الجيش) أحسن . وعلى ذلك فقد يتساءل الانسان عما اذا لم يكن فى امكان الاستراتيجية اليابانية فى الطور الأول من الحرب أن تستغل طعم "بورت — أرثر" بالطريقة الدالة على الدهاء التى استغل بها نابليون "مانتاو" وفى الطور الأخير ألم يكن هناك مجال لاستخدام قسم من القوة على أقل تقدير ضد تلك الحنجرة الضعيفة بين "هاربين" "وموكدن".

الباب التاسع

النتيجة

لقد اشتملت مطالعاتنا على الحروب التسع التى كان لها أثر حاسم فى مجرى التاريخ الأوروبى فى الأعصر الحالية . وحروب التاريخ الحديث الكبرى الثمانية عشرة — معتبرين النضال الذى قام ضد نابليون حربا واحدة هى التى كانت تخمد نارها تارة فى مكان ، وتعود الى الالتهاب تارة أخرى فى مكان آخر فكانت فى الواقع لا تنقطع . فهذه الحروب البالغ عددها سبعة وعشرين حربا تضمنت أكثر من ٢٤٠ حملة حربية . وفى ست من هذه الحملات فقط — هى الحملات التى انتهت بمعارك "إيسوس" . و"جاوجا ميلا" و"فريدلند" و"واغرام" و"سادووا" و"سيدان" — أمكن الحصول على نتيجة حاسمة بواسطة الاقتراب الاستراتيجى المباشر من الجيش الرئيسى للعدو . وفى الحملتين الأوليين منها كان الاقتراب الاستراتيجى المباشر الذى قام به الاسكندر قد سبقه التمهيد باستراتيجية عظمى مؤسسة على اقتراب غيرمباشر هز الامبراطورية الفارسية من أساسها وزعزع ثقة أتباعها فيها . وليس ذلك فحسب بل انه كان مضمونا بامتلاك آلة تكتيكية متفوقة تفوقا لا يوصف . ثم نفذ باقتراب تكتيكى غير مباشر . والحملتين الثانيتين كان نابليون شرع فيهما بأن حاول القيام باقتراب غير مباشر . ثم عدل من الاقتراب غير المباشر الى اقتراب مباشر . وعدوله هذا يرجع بعضه الى قلة صبره ، وبعضه الى ثقته فى تفوق آلته (جيشه) . وهذا التفوق كان يرتكز على المدفعية المتجمعة كلا . فكان الحسم فى كل من "فريدلند" و"واغرام" راجعا بصفة رئيسية الى هذه الطريقة التكتيكية الحديثة . على أن الثمن الذى اشترى به فوزه فى هاتين المعركتين وما كان له من الأثر فى حظ نابليون ليس مما يشجع على العودة الى مثل هذا الاقتراب المباشر حتى ولو بتفوق تكتيكى مثل هذا التفوق . أما فى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ فقد شاهدنا مما مر بيانه أن هاتين الحملتين ولو أن تصميمهما كان على طريقة الاقتراب المباشر . الا أنهما تحولتا على غير قصد الى اقتراب غير مباشر — عززه تفوق الألمان التكتيكى فى كلتا الحالتين — السلاح الذى يحشى من الخلف فى سنة ١٨٦٦ ، والتفوق العددى فى سنة ١٨٧٠ . ولا شك فى أن هاته الحملات الست ليست إلا حجة واهية لتبرير أى شخص يستحق اسم جنرال فى الرضاء بانتهاج استراتيجية الاقتراب المباشر . ومع ذلك ففى كل عصور التاريخ كان الاقتراب المباشر هو الصورة المعتادة دائما للاستراتيجية . وكان الاقتراب غيرالمباشر المقصود بالذات الاستثناء النادر . فقليل هم القادة ، حتى بين مشاهيرهم الذين انتهجوا الاقتراب غيرالمباشر فى استراتيجيتهم الافتتاحية ، وفى أغلب الأحيان انتهجوه كآخر حيلة بل وكآخر مغامرة ومع ذلك فقد أدى

بهم الى الحسم فى حين أن الاقتراب المباشر كان قد انتهى بهم الى الفشل فتركهم بحالة من الضعف لا يقوون معها على محاولة انتهاج الاقتراب غير المباشر . والفوز الحاسم الذى يحصل فى مثل تلك الظروف التى تكون قد ازدادت سوءا له أهمية ذات مغزى خاص .

ولقد أبانت مطالعتنا عن ست وعشرين حملة حربية كان فيها الاقتراب الحاسم والاقتراب غير الحاسم ظاهرين ظهورا لا يقبل جدلا وهى حملات "ليساندر" فى البحر "الايجى" (القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط) فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد و "إيبامينونداس" فى "البلوبونيز" فى سنة ٣٦٢ قبل الميلاد و "فيليب" فى "بوئيوتيا" فى سنة ٣٣٨ قبل الميلاد والاسكندر على نهر "الهيداسپس" (الهند) وضد "كاساندر" و "ليسيماكوس" فى الشرق القريب سنة ٣٠٢ قبل الميلاد وهانيبال فى حملة "ترازيمين" فى "إتروريا" وحملة "سبيو" فى "يوتيكا" و "زاما" بأفريقيا و "سيزار" فى حملة "إليردا" فى أسبانيا .

وفى التاريخ الحديث حملات "كرومويل" فى "پرستون" و "دنبار" و "ورسستر" . وحملة "تورين" فى الالزاس سنة ١٦٧٤ — ٧٥ وحملة أوجين فى ايطاليا سنة ١٧٠١ وحملة "مارلبورو" فى "فلاندرز" سنة ١٧٠٨ وحملة "فيلالار" سنة ١٧١٢ وحملة "وولف" فى "كويبك" وحملة "جوردان" على نهرى "الموزيل" و "الموز" سنة ١٧٩٤ وحملة الأرشدوق "شارلس" على نهرى "الرين" و "الدنوب" سنة ١٧٩٦ وحملات بونابارت فى ايطاليا سنة ١٧٩٦ وسنة ١٧٩٧ وسنة ١٨٠٠ وحملاته فى "أولم" و "أوسترلتز" سنة ١٨٠٥ ، وحملة "جرانت" فى "فيكسبورج" ، وحملة "شيرمن" فى "اطلانتا" ، فكل هذه الحملات رجحت كفة الميزان فى الحرب التى وقعت فيها ، وزيادة على ذلك فان مطالعتنا أبانت عدة أمثلة "للحد الفاصل" أى الأمثلة التى كان فيها الاقتراب أو تأثيره أقل وضوحا من غيره .

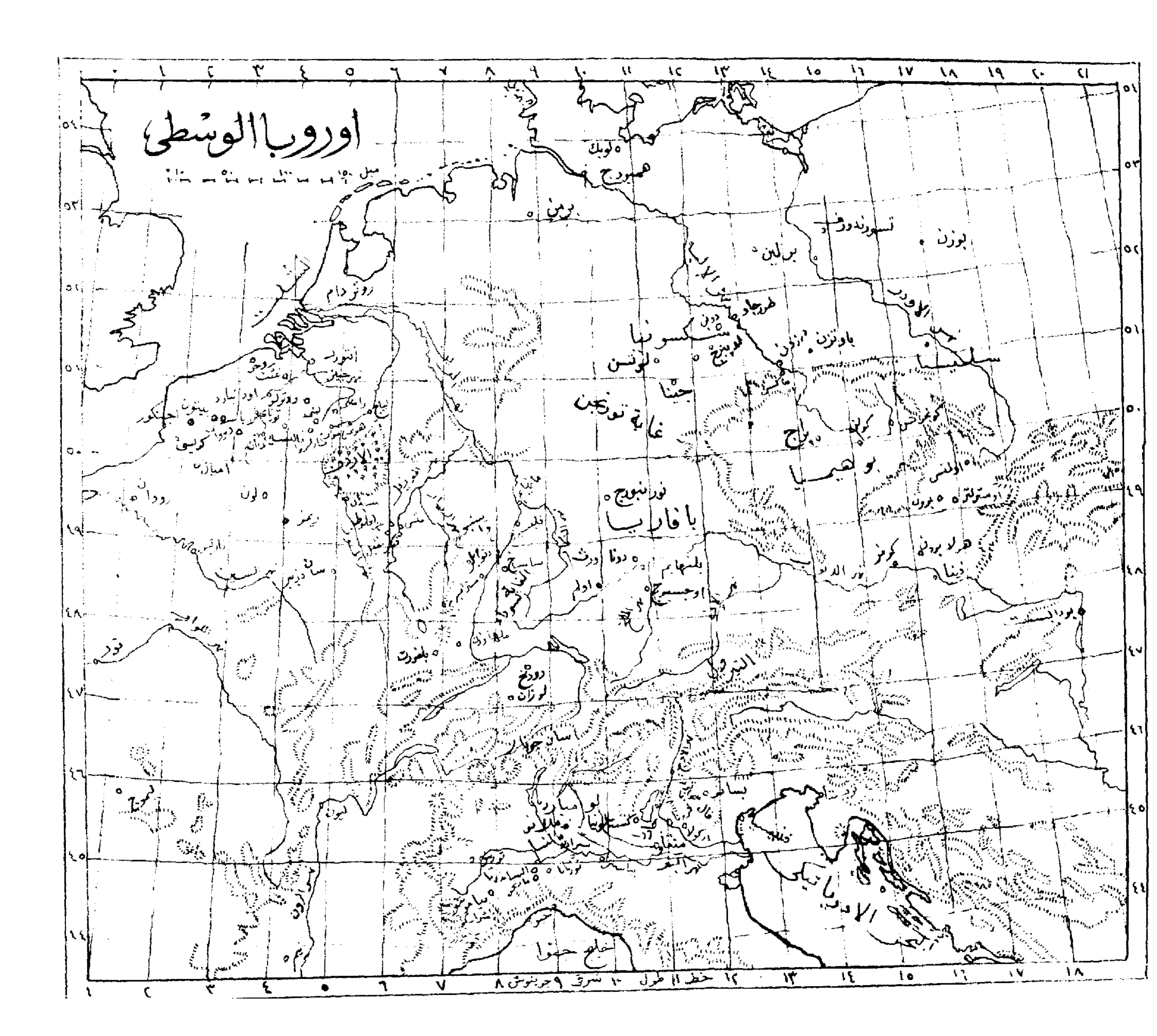
فهذه النسبة العظيمة لحملات التاريخ الحاسمة التى زادتها قيمة ندورة الاقتراب غير المباشر نسبيا تجبرنا على أن نستنتج أن الاقتراب غير المباشر هو صورة الاستراتيجية التى تتوافر فيها أعظم درجات الأمل والاقتصاد عن غيرها بكثير ، وهل فى استطاعتنا أن نستنتج من التاريخ ماهو أقوى وأقطع للدلالة على ذلك مما مر ، نعم ذلك أن كبار قادة التاريخ ، ماعدا الاسكندر الذين أحرزوا الفوز بصورة منتظمة حينما كانوا يواجهون عدوا مستحكما فى موقع قوى سواء كانت قوته طبيعية أو مادية ما كانوا يهاجمونه مباشرة مطلقا إلا فى النادر جدا ، وأنهم اذا اضطروا بحكم الظروف القاسية أن يجازفوا بمهاجمته مباشرة على غير رضاء منهم كانت النتيجة فشلا تاما يشوه تاريخهم ، فان "مارلبورو" لم يحد عن طريق الاقتراب غير المباشر تماما إلا مرة واحدة فمحى فيها النتائج التى أحرزها بفوزه سنين ، وحاد عنه سيزار عدة مرات

وتكبد بنسبتها ، أما "سبيو" وكرومويل فلم يحيدا مطلقا فكانا هما القائدين الكبيرين الوحيدين اللذين انتصرا دائما أبدا ، ما عدا الاسكندر وحتى الاسكندر نفسه بالرغم من تفوق آلته تفوقا لاحصر له كان يستخدمها دائما باقتراب تكتيكى غير مباشر .

وزيادة على ذلك فان التاريخ يبين أن القائد الكبير يقدم على المجازفة بالاقتراب غير المباشر الذى تكتنفه أشد الأخطار بدلا من أن يستسلم لاقتراب مباشر — فاذا قضت الضرورة اجتاز الجبال ، أو الصحارى أو المستنقعات بقسم صغير من جيشه ، بل وانفصل عن مواصلاته وابتعد عنها فيواجه ، فى الواقع ، كل الظروف والحالات المعاكسة بدلا من قبول الغلب الذى ينتج من الاقتراب المباشر فان المجازفات الطبيعية مهما عظمت هى فى الحقيقة أقل خطرا وأقل تأكدا من مجازفات القتال ، وكل الظروف فى الاستطاعة أن يحسب حسابها ، وكل العوائق أكثر قابلية للتخطى من ظروف وعوائق المقاومة البشرية . ففى الامكان التغلب عليها بالحساب والاستعداد القائمين على التبصر بحيث تكاد تنتظم طبقا "لجدول مواعيد" ولكن حينما تمكن نابليون من عبور جبال الألب "طبقا لخطته" أعاقته طابية "بارد" الصغيرة وأعاقت حركات جيشه إعاقة جدّية جعلت كل خطته فى خطر .

ولنرجع الآن الى قلب ترتيب خصمنا فنطالع معارك التاريخ الحاسمة بالدور فنجد فى جميع هذه المعارك بوجه التقريب أن الظافر كان قد وضع خصمه فى حالة نفسية غير مرضية قبل نشوب القتال وأمثلة ذلك "ماراثون" و "سالاميس" و "إجوسبوتامى" و "مانتينيه" و "خيرونيه" و "كانّ" و "ميتاووروس" و "زاما" و "برستون" و "دنبار" و "وورسستر" و "بلنهايم" و "أودينارد" و "دينين" و "كو بيك" و "فلوروس" و "ريفولى" و "اوسترلتز" و "جينا" و "فيكسبورج" و "كو نيجراتس" و "سيدان" .

واذا جمعنا بين الفحص الاستراتيجى والفحص التكتيكى نجد أن معظم الأمثلة واحدة من إحدى فئتين . إما أنها حصلت من استراتيجية دفاع مرن — التقهقر المقصود — أعقبه هجوم تكتيكى ، وإما من استراتيجية هجوم (أى تعرضية) يرمى بها الهاجم الى وضع نفسه فى موقع "محير" للعدو يعقبه دفاع تكتيكى . فكل من هاتين الصورتين المشتركتين تكون اقترابا غير مباشر . والأساس الذى تقوم عليه كل منهما من الوجهة النفسية (نسبة الى علم النفس البشرية) يصح التعبير عنه بكلمة واحدة هى "الخدعة" وفى الحقيقة يصح القول بمعنى أعمق وأوسع من المعنى الذى أراده "كلاوزيفتز" إن الدفاع هو أقوى صورة للاستراتيجية وأكثرها اقتصادا ، لأن التركيب المبين بالفئة الثانية وان كان عبارة عن حركة تعرضية فى ظاهرها قائمة على الحساب اللوجستيكى (الحساب اللوجستيكى هو العلم الذى يبحث فى تحركات الجنود وتموينها) إلا أن الحافز اليها هو جرّ العدو الى هجوم "مختل التوازن" .



اوروبا الوسطى
لوبك
همبورج
برمن
برلين
بوزن
سكسونيا
بوهيميا
بافاريا
نورنبورج
لوزان
خليج جنوا

والاقتراب غير المباشر الوارد فى التاريخ كان يشتمل عادة على حركة عسكرية قائمة على الحساب اللوجستيكى موجهة الى هدف اقتصادى — هو المورد الذى تستمد منه أى البلادين أو الجيشين المتحاربين مؤنه — وكان يحصل أحيانا أن تكون الحركة ذاتها اقتصادية .

وهناك استنتاج آخر من مطالعاتنا ربما لم يكن إيجابيا ولكنه بالقرينة على أقل تقدير ، هو أن مما يعود بثمرة أكثر فى الحملة الحربية الموجهة ضد أكثر من بلاد واحدة أو جيش واحد أن يحصل الاحتشاد أولا ضد الشريك الأضعف بدلا من محاولة قهر الشريك الأقوى اعتقادا بأن هزيمة الأقوى يترتب عليها انهيار الآخرين من تلقاء أنفسهم .

ففى النضالين البارزين فى العالم القديم — تغلب الاسكندر على الفرس وتغلب "سپيو" على "قرطاجه" — وتم كل منهما على أثر قطع الجذور . وهذه الاستراتيجية العظمى المؤسسة على الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على إيجاد امبراطوريتى "مقدونيا" و "روما" من العدم بل انها خلفت أعظم خلفلها وهى الامبراطورية البريطانية وعليها تأسس حظ نابليون بونابارت وقوته الامبراطورية . ثم حصل بعد ذلك أن قام على هذا الأساس ذلك البناء العظيم الثابت الدعائم وهو الولايات المتحدة . أما فن الاقتراب غير المباشر فلا يمكن الإلمام به إلماما تاما ولا تقدير غايته تقديرا تاما إلا بالدراسة الشاملة لكل تاريخ الحرب وامعان النظر فيه ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نحوّل هذه الدروس الى صورة مجسمة ونضعها فى كلمتين إحداهما سلبية والأخرى ايجابية .

الأولى هى أنه أمام أدلة التاريخ التى لا تنقض لا يوجد مبرر يبرر القائد فى دفع جنوده الى هجوم مباشر على عدو ثابت فى موقعه . والثانى أنه بدلا عن السعى الى قلب موازنة العدو رأسا على عقب بواسطة الهجوم ، يجب قلبها قبل الشروع فى الهجوم الحقيقى ، أو قبل أن يستطاع الشروع فيه بنجاح .

ولقد لاحت الحقيقة الأساسية أمام بصيرة "لنين" حين قال "الاستراتيجية التى هى أكثر سدادا فى الحرب هى إرجاء العمليات الى أن يحل الانحلال الأدبى بالعدو فيجعل انزال الضربة القاضية عليه أمرا ممكنا وسهلا" . وذلك لا يتيسر دائما ، وطريقة دعايته لا تثمر فى كل الأحيان ولكن هذا القول يقبل التعديل الى هذه الصورة :

"أسد استراتيجية فى أية حملة حربية هى ارجاء المعركة ، وأسد تكتيك هو ارجاء الهجوم الى أن تتزحزح قوة العدو الأدبية فتجعل انزال الضربة الحاسمة أمرا ممكنا" .

الباب العاشر

البناء

بعد أن استنتجنا من تحليل التاريخ ما استنتجناه يلوح لنا أن من المفيد أن نقيم على الأسس الجديدة مسلكا للتفكير الاستراتيجي .

ولنبدأ أولا بفهم معنى الاستراتيجية فهما لا يشوبه غموض ولا ابهام . فقد عرفها "كلاوزيفتز" فى كتابه الأثرى المسمى "عن الحرب" بأنها "فن استخدام المعارك كوسيلة للحصول على الغرض المطلوب من الحرب . وبعبارة أخرى الاستراتيجية عبارة عن الخطة الموضوعة للحرب . فهى ترسم المجرى المنوى اتخاذه للحملات الحربية المختلفة التى تتكون منها الحرب ، وتنظم المعارك التى تقع فى كل منها " .

فمن عيوب هذا التعريف أنه يتعدى على دائرة السياسة ، أى الادارة العليا للحرب التى يجب أن تسأل عنها الحكومة بحكم الضرورة ، لا القادة العسكريون الذين تستخدمهم الحكومة ليكونوا عمالا أو أعوانا لها يقومون بالسيطرة التنفيذية على العمليات . وعيب آخر هو أنه يضيق معنى "الاستراتيجية" ويحصره فى مجرد استخدام المعركة فتتولد من ذلك فكرة أن المعركة هى الوسيلة الوحيدة للغاية الاستراتيجية . فكانت هذه خطوة سهلة خطاها أتباعه الذين كانوا أقل تعمقا فخلطوا بين الوسيلة والغاية ووصلوا الى نتيجة هى أن فى الحرب يجب أن يكون كل اعتبار آخر خاضعا للقصد الذى هو خوض غمار معركة حاسمة .

علاقتها بالسياسة — ان ازالة التمييز بين الاستراتيجية والسياسة لا تحدث فرقا كبيرا اذا كان كل من الوظيفتين منوطا بشخص واحد باشتراكهما معا كما هى الحال مع "فردريك" أو "نابليون" . ولكن بما أن وجود حكام عسكريين أو توقراطيين (مطلق التصرف) من أمثالهما كان دائما من الأشياء النادرة ، وأصبحوا لا وجود لهم فى القرن التاسع عشر فقد كان تأثير الجمع بين الاستراتيجية والسياسة خادعا ومضرا . لأنه شجع رجال الجندية على ذلك الزعم الباطل من أن السياسة يجب أن تكون فى خدمة ادارتهم للعمليات . وخصوصا فى البلاد الديموقراطية فان هذا الزعم جر رجال السياسة الى تخطى حدود دائرتهم تلك الحدود التى لا قيد لها وتدخلهم فى أعمال موظفهم العسكرى وهو يستخدم آلته فعلا .

أما "مولتكه" فانه توصل الى تعريف أكثر وضوحا وحكمة فى تعبيره عن الاستراتيجية بأنها "التوفيق الفعلى بين الوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد ، واحراز الغرض المطلوب" فهذا التعريف يضع مسئولية القائد العسكرى أمام الحكومة التى تستخدمه . وهذه المسئولية تنطوى على بذل القوة المخصصة له فى حدود مسرح العمليات المعين له بذلا تراعى فيه مصالح

السياسة الحربية العليا بأقصى درجات الربح. فاذا عنّ له أن القوة المخصصة له لاتكفى للقيام بالنصيب المحدد فله الحق أن يبين ذلك. واذا رفض رأيه ففى استطاعته أن يمتنع أو أن يستقيل من القيادة. ولكنه يتجاوز حدود دائرته المشروعة اذا هو حاول أن يملى على الحكومة مقدار القوة التى توضع تحت تصرفه.

ومن جهة أخرى يحق للحكومة التى ترسم سياسة الحرب وتوفق بينها و بين الظروف التى كثيرا مايطرأ عليها التغير أثناء الحرب، أن تتدخل فى استراتيجية الحملة ليس فقط باستبدال قائد فقدت ثقتها فيه بغيره، بل بتعديل الغرض الموضوع له بناء على ماتحتاج اليه سياستها الحربية. ومع أنه لا ينبغى لها أن تتدخل فى كيفية معالجته لآلاته واستخدامه اياها، يجب عليها أن تبين له نوع العمل المطلوب منه بيانا لا غموض فيه. وعلى ذلك فليس لزاما أن يكون غرض الاستراتيجية هو مجرد السعى لقهر قوة العدو العسكرية. واذا رأت الحكومة أن العدو يملك التفوق العسكرى بوجه عام أو فى مسرح خاص فقد يكون من الحكمة أن تأمر باتباع استراتيجية محدودة الغاية والقصد. ثم انها قد ترغب أن تنتظر حتى يتغير ميزان القوة بتدخل حلفاء لها أو بانتقال قوات من مسرح آخر. كما أنها قد ترغب الانتظار بل وأن تحدد مجهوداتها الحربية موقتا بينما تقوم الأعمال الاقتصادية أو البحرية بالفصل فى الحالة. وقد ترى أن التغلب على قوة العدو العسكرية عمل خارج عن طاقتها تماما، أو أنه لا يستحق بذل المجهود، وأن الغرض المقصود من سياستها الحربية يمكن ضمانه بالاستيلاء على أراض تستطيع الاحتفاظ بها أو استخدامها فى المساومة فى مفاوضات الصلح. ومثل هذه السياسة لها تعضيد من التاريخ أكثر مما اعترفت به الآراء العسكرية حتى الآن. وهى بطبيعتها سياسة أقل ضعفا مما يصوره مروجوها. فهى فى الحقيقة مرتبطة بتاريخ الامبراطورية البريطانية وقد برهنت مرارا على كونها مرساة النجاة لحلفاء بريطانيا، ومغنما دائما لنفسها. ومهما كانت هذه السياسة العسكرية متبعة دون ادراك ومعرفة فان هناك أسبابا تدعو الى التساؤل عما اذا كانت لا تستحق أن يؤبه لها فى نظرية ادارة الحرب.

على أن السبب الداعى عادة لانتهاج استراتيجية محدودة الغاية، أكثر من غيره من الأسباب هو انتظار حصول تغيير فى ميزان القوة. وهو تغيير كثيرا ما يطلب و يحرز بانهاك قوة العدو واضعافه بالوخز بدلا من المجازفة بالضربات. والشرط الجوهرى لمثل هذه الاستراتيجية هو أن يقع الانهاك على العدو بمقدار أعظم بما لا يقاس مما يصيب الانسان (أى الواخز). وهذا الغرض قد يمكن تحقيقه بالسطو والاغارة على مؤنه، أو بهجمات محلية تبيد أجزاء من قوته أو تنزل بها خسائر تزيد عن نسبة ما يصيبنا بمقدار عظيم، أو باغرائه على القيام بهجمات لا فائدة له منها، أو باستدراجه الى تشتيت قوته فى مسافات واسعة، أو بما لا يقل أهمية عن ذلك وهو انهاك قوته المعنوية ونشاطه الجثمانى.

والتعريف الأضيق يلقى ضوءا على المسألة التى سبق التساؤل عنها وهى مسألة استقلال القائد بتنفيذ استراتيجيته الخاصة فى حدود مسرح عملياته . لأنه اذا استقر رأى الحكومة على انتهاج سياسة حربية "فابية" (نسبة الى فابيوس وهى تنطوى على التفادى من المعارك) فان القائد الذى يسعى لأن يقهر قوة العدو العسكرية ، ولو فى حدود دائرته الاستراتيجية قد يضر السياسة الحربية التى انتهجتها الحكومة أكثر مما ينفعها . فالمعتاد أن السياسة الحربية المحدودة الغاية تحتم انتهاج استراتيجية محدودة الغاية أيضا . ولا تنتهج الغاية الحاسمة الا بترخيص الحكومة فهى وحدها التى تستطيع أن تبت فيما اذا كان الأمر يستحق ذلك .

فالآن نستطيع أن نعطى أفكارنا شكلا مجسما فنضع تعريفا للاستراتيجية أقصر مما سبق ذكره وأبسط وربما كان أدق فنقول : "هى توزيع الوسائل الحربية ونقلها الى حيث تؤدى غايات السياسة" لأن الاستراتيجية لا تقتصر مهمتها على تحريك الجيش — وهو الدور الذى يحدد لها فى أغلب الأحوال — بل تشمل أيضا ما تحدثه من الأثر . وحينما ينصرف تطبيق الآلة العسكرية الى القتال فعلا فان الأوضاع التى تتخذ لمثل هذا العمل المباشر والسيطرة عليه يسميان "تكتيكات" . فان الفئتين أى الحالتين وان كانتا يلائمان البحث والمناقشة ، لا يمكن فصل احداهما عن الأخرى فى الحقيقة لأن كلا منهما لا تؤثر على الأخرى فحسب بل تندمج فيها .

وكما أن التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية فى مستوى أدنى فكذلك الاستراتيجية هى تطبيق "الاستراتيجية العظمى" فى مستوى أدنى . وهذا الاسم الاصطلاحى "الاستراتيجية العظمى" وان كان فى الواقع مرادفا للسياسة التى يتقيد بها سير الحرب ، تمييزا لها عن السياسة المستديمة التى تحدد الغرض المطلوب منها ، فهو يبين المعنى المقصود من "سياسة التنفيذ" لأن مهمة الاستراتيجية العظمى هى وضع كل موارد الأمة على قدم المساواة ، أى التوفيق بينها كلها وتوجيهها نحو احراز الغرض السياسى من الحرب — أى الهدف النهائى الذى تحدده السياسة القومية . والاستراتيجية العظمى من واجباتها أن تحسب موارد الأمة الاقتصادية وقوة رجالها وتقدرهما وترقيهما لكى تعول الجنود المقاتلة وتكفل بقاءها . وتفعل ذلك أيضا بالموارد الأدبية لأن تربية قوة ارادة الربح والجلد وانعاشهما وحمايتهما لهما من الأهمية ما لامتلاك الصور الأخرى للقوة المادية المجسمة . وعليها أن تنظم توزيع القوة بين أفرع الخدمة المتعددة . وبين هذه الأفرع والصناعة . وليس ذلك كل ما عليها لأن القوة المقاتلة ان هى الا احدى آلات الاستراتيجية العظمى . ويجب عليها أن تحسب حساب قوة الضغط المالى ، والضغط الدبلوماتيكى ، والضغط التجارى وتستعملها . وكذلك ، ما لا يقل عن هذه القوى ، وهو الضغط الأدبى لاضعاف ارادة العدو . فان القضية الطيبة هى فى ذاتها سيف ودرع . وزيادة على ذلك فبينما أن الذى يحد أفق الاستراتيجية هو الحرب ، فان الاستراتيجية العظمى تلقى نظرها الى ما وراء

الحرب وهو الصلح الذى يعقبه. والذى يجب عليها ليس فقط اشراك الآلات المتنوعة بل تنظيم استخدامها على وجه تجتنب معه الاضرار بحالة السلم المستقبلة وبقائه مكفولا فى رخاء. فلا عجب اذا كان القسم الأعظم من مملكة الاستراتيجية العظمى "بلادا مجهولة" خلافا للاستراتيجية.

الاستراتيجية البحت — بعد أن مهدنا السبيل وأزلنا كل غموض صار فى امكاننا أن نبنى فكرتنا عن الاستراتيجية على أساسها الأصلى الحقيق — وهى أنها "فن القائد". ونجاحها يتوقف أولا وفوق كل شيء على صحة حساب الغاية المطلوبة والوسائل الموجودة والتوفيق بينهما ويجب أن تكون الغاية متناسبة مع مجموع الوسائل، وأن تكون الوسائل المستخدمة لاحراز كل غاية متوسطة من الغايات التى تمهد لاحراز الغاية النهائية، متناسبة مع ما لهذه الغاية المتوسطة من القيمة وما تحتاج اليه، سواء كانت احراز غرض أو انجاز تمهيد. فان التجاوز (أى الزيادة) قد يكون مضرا نفس الضرر الذى يحدثه النقص. والتعديل الحقيق بين الغاية والوسيلة يؤدى الى الاقتصاد فى القوة بأصح معنى لهذا الاصطلاح العسكرى الذى كثيرا ما أصابه التشويه. ولكن نظرا لطبيعة الحرب وما يحيط بها من الغموض وهو غموض يزداد جسامة بعدم دراستها دراسة علمية، فان التعديل الحقيق فوق مقدور الأشخاص حتى ذوى العبقرية العسكرية. أما النجاح فيحصل بالاقتراب من الحقيقة ما أمكن.

ووجود هذه العلاقة على هـذه الصورة سببه أن معلوماتنا عن علم الحرب، العلم الذى يكاد يكون فى الوقت الحاضر من الأشياء التى لم يتناولها الاكتشاف، مهما اتسعت فانه علم يتوقف تطبيقه على الفن. والفن ليس فى مقدوره أن يقرب بين الغاية والوسائل فحسب، بل انه برفعه قيمة الوسائل يمكن من ازدياد الغاية واتساعها. وهـذا يربك الحساب ويعقده لأنه ليس فى مقدور البشر حساب مقدرة العبقرية البشرية، وعجز البلادة، ولا عجز الارادة حسابا قرين الدقة.

العناصر والظروف — ومع ذلك فان الحساب فى الاستراتيجية أكثر بساطة منه فى التكتيك وفى الامكان أن يكون أقرب للحقيقة عما فى التكتيك. لان فى الحروب، العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه هو الارادة البشرية التى تتمثل فى المقاومة. والمقاومة هى فى دائرة التكتيك. أما الاستراتيجية فليس عليها أن تتغلب على مقاومة الا المقاومة الآتية من جهة الطبيعة. والقصد منها انقاص احتمال حصول المقاومة وهى تسعى لأداء هذا الغرض باستغلال عنصرى، "الحركة" و"المفاجأة". أما الحركة فهى فى دائرة الطبيعيات وتتوقف على حساب ظروف الزمان، والطبوغرافية، والمقدرة على النقل. وعبارة المقدرة على النقل يقصـد بها كل من الوسائل، والمقدار، اللذين يستطاع بهما نقل قوة واعاشتها.

وأما المفاجأة فهي فى دائرة النفسيات (علم النفس) وتتوقف على حساب أصعب بكثير مما فى دائرة الطبيعيات (الجثمانيـة) ، يختص بالظروف المتعددة التى تختلف فى كل حالة عنها فى الأخرى ، التى يحتمل أن تؤثر على ارادة العدو .

ولو أن الاستراتيجية قد ترمى الى استغلال الحركة أكثر مما ترمى الى استغلال المفاجأة او العكس بالعكس فان لكل من هذين العنصرين رد فعل على الآخر. فالحركة تولد المفاجأة . كما أن المفاجأة تعطى الحركة الحافز الذى يدفعها . لأن الحركة التى تزداد سرعتها أو التى تغير اتجاهها تحمل فى نفسها درجة فى المفاجأة لابد منها حتى لو كانت غير مختفية. فى حين أن المفاجأة تمهد طريق الحركة باعاقتها التدابير المقابلة التى يتخذها العدو وحركاته المقابلة .

أما فيما يختص بعلاقة الاستراتيجية بالتكتيك أثناء التنفيذ فان الحد الفاصل بينهما كثيرا ما يبقى غامضا ومن الصعب التحديد بالدقـة أين تنتهى الحركة الاستراتيجية وتبتـدئ الحركة التكتيكية ومع ذلك فان كلا منهما يمتاز عن الآخر نظريا . فالتكتيك يقع فى دائرة القتال ويملأها . أما الاستراتيجية فانها لا تقف عند الحـد فحسب ، بل ان من أغراضها انقاص القتال الى أقل قدر ممكن .

مرمى الاستراتيجية — هـذا القول سيجادل فيه الذين من رأيهم أن ابادة قوة العدو المسلحة هى الغاية الوحيدة السديدة فى الحرب . الذين يقولون ان هدف الاستراتيجية الوحيد هو المعركة والذين ملك عليهم مشاعرهم قول " كلاوزيفتز " ان « الدم ثمن النصر » . ومع كل فاذا سلم الانسان بذلك وقابل القائلين به فى جدلهم ، فان القول لا يتزعزع ولا يجرح . لانه حتى اذا كانت المعركة الحاسمة هى الهـدف الوحيـد فان الجميع يعترفون بأن غرض الاستراتيجية ، هو تهيئة المعركة فى أكثر الظروف ملاءمة لهـا . وكلما كانت الظروف ملائمة قل القتال نسبيا .

وبناء على ذلك فان ابلاغ الاستراتيجية حد الكمال يكون بالحصول على حسم — ابادة قوات العـدو المسلحة عن طريق نزع أسلحتها بالتسليم — من غير قتال . وفى التاريخ أمثلة شاهدنا فيها أن الاستراتيجية حينما ساعدتها ظروف ملائمة أحدثت مثل هذه النتيجة .

وفى العادة فان الرأى متروك للحكومة المسئولة عن الاستراتيجية العظمى فى الحرب ، فى البت فيما اذا كان واجب الاستراتيجية أن تقوم بنصيبها باحراز حسم عسكرى أو بغيره . وكما أن القوة العسكرية ليست سوى احدى وسائل غاية الاستراتيجية العظمى — احدى الآلات الموجودة بصندوق الجراح — فكذلك المعركة ليست الا وسيلة من وسائل الغاية الاستراتيجية. فاذا كانت الظروف ملائمة كانت هى أسرع تأثيرا عادة . ولكن اذا كانت الظروف ليست ملائمة فمن الحماقة استخدام المعركة. ولنفرض أن أحد الاستراتيجيين فوض فى السعى للحصول

على حسم عسكرى . فان مسئوليته تقضى بالسعى للحصول عليه فى أكثر الظروف ملاءمة لكى يحصل على النتيجة التى تكون أكثر مغنما. ومن ثم فان هدفه الحقيق ليس السعى للحصول على معركة بقدر ما هو السعى للحصول على موقف استراتيجى ملائم لدرجة أنه اذا لم يحدث الحسم هو بذاته فان استمراره بنشوب معركة يضمن حصول الحسم . وبعبارة أخرى فان الزحزحة هى هدف الاستراتيجية والذى يعقبها هو إما انحلال العدو وإما تشتيته فى معركة . والانحلال قد يتطلب مقدارا من القتال ولكنه لا يكون معركة بالمعنى الصحيح .

عمل الاستراتيجية — كيف تحصل الزحزحة الاستراتيجية؟ فى دائرة الطبيعيات الجثمانية «اللوجستيكية» تنتج الزحزحة عن حركة: (١) تقلب أوضاع العدو رأسا على عقب فتضطره الى « تغيير جبهته » بجأة ، وتزحزح توزيعاته وتنظيم قواته. (ب) تفصل قواته عن بعضها البعض. (ج) تجعل مؤنه فى خطر. (د) تهدد الطريق أو الطرق التى يستطيع سلوكها فى رجعته حين الحاجة ليستقر مرة أخرى فى قاعدته أو فى بلاده . فالزحزحة قد تحصل بتأثير احدى هذه الحالات ولكنها فى الغالب تنتج عن عدة منها. والتمييز بين احداها والأخرى أمر صعب فى الحقيقة لأن الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو من شأنها أن تحدث تأثير هذه الحالات كلها . أما التأثير الناشئ عن كل حالة منها فانه يختلف، وقد اختلف فى كل عصور التاريخ، باختلاف حجوم الجيوش وتعقد تنظيمها . ففى الجيوش التى « تعيش من البلاد » وتستمد مؤنها محليا بالسلب أو بالمصادرة يعد خط المواصلات شيئا لا أهمية له . وحتى فى مراحل التطور التى هى أرقى مما فى هذه الجيوش تكون القوة الصغيرة أقل اعتمادا على خط المواصلات وفى استطاعتها نقل المؤن معها لمدد محدودة. وكلما كبر حجم الجيش وازداد تنظيمه تعقيدا كان تهديد خط مواصلاته ذا أثر أسرع مفعولا وأعظم جسامة .

أما الحالات التى تكون فيها الجيوش غير معتمدة على المواصلات فان الاستراتيجية تجد أمامها عراقيل بنسبة عدم الاعتماد (اعتماد الجيوش على المواصلات) وتلعب النتيجة التكتيكية للمعركة دورا أعظم. ومع ذلك فحتى مع قيام العراقيل أمام الاستراتيجية فان الاستراتيجيين الفنيين كثيرا ما غنموا مزايا حاسمة قبل نشوب المعركة بتهديدهم لخط رجعة العدو ، أو توازن أوضاعه ، أو مؤنه المحلية .

ولكى يكون مثل هذا التهديد مؤثرا يجب استخدامه فى نقطة أقرب من جيش العدو ، من حيث الزمان والمكان ، مما فى حالة تهديد مواصلاته . ولذا ففى أوائل الحرب كثيرا ما يصعب التمييز بين المناورة الاستراتيجية والمناورة التكتيكية .

أما فى دائرة النفسيات (نسبة الى علم النفس) فان الزحزحة هى نتيجة ما انطبع فى ذهن القائد من الأثر المادى الذى أحدثته الحالات السالف بيانها . وهذا التأثير يتضاعف مفعوله متى أدرك القائد على حين فجأة أنه فى موقف غير مرض . واذا شعر بعجزه عن مقابلة حركات

العدو بما يعاكسها . فالزحزحة المعنوية (النفسية) أصل منشأها فى الواقع هو شعور القائد بأنه واقع فى شرك . وهذا هو السبب فى حصولها كثيرا على أثر الحركة المادية (الجثمانية) التى توجه الى مؤخرة العدو . فان الجيش ، كالرجل ، لايستطيع أن يدفع ضربة عن ظهره على الوجه الصحيح قبل أن ينقلب ويدور الى الوراء ليستعمل أسلحته فى الاتجاه الجديد . « والانقلاب » يفقد الجيش موازنته موقتا كما يفعل بالرجل . والوقت الذى يبقى فيه الجيش مختل التوازن أثناء انقلابه أطول بكثير من الوقت الذى يبقى فيه الرجل كذلك بحكم الضرورة . وينتج من ذلك أن تزداد حساسية العقل لأى تهديد يوجه الى الظهر عن حساسيته لأى تهديد يوجه الى جهة أخرى . وبالعكس فان التحرك نحو الخصم مباشرة يوطد توازنه من الوجهتين المادية والمعنوية . وفى توطيدها تعزيز لقوة مقاومته . لأنه اذا كان الخصم جيشا فان الحركة المباشرة تصده الى الوراء نحو جنوده الاحتياطية ، ومؤنه ، وامداداته حتى اذا ضعفت جبهته الأصلية وصارت رقيقة تواجدت وراءها طبقات جديدة . وغاية ما يمكن ايقاعه به هو ضغط لا صدمة .

وعلى ذلك فالحركة التى تجرى حول جبهة العدو وتوجه الى مؤخرته تشمل فى ذاتها غاية هى ليست فقط التفادى من لقاء المقاومة فى طريقها ، بل التفادى من نتيجتها . وبالمعنى الأكثر تعمقا تتخذ الخط الذى يلاقى أقل درجات المقاومة . ويعادل هذا الخط فى دائرة المعنويات (النفسيات) الخط الذى يكون فيه الانتظار أقل من غيره . فهما بمثابة وجهى قطعة واحدة من النقد (المسكوكات) . وادراك ذلك على حقيقته يوسع مداركنا الاستراتيجية . لاننا اذا اقتصرنا على اتخاذ الخط الذى يظهر انه خط أقل درجات المقاومة فان ظهوره كذلك يستجلب نظر العدو أيضا فلا يبقى بعدها أقل خطوط المقاومة . ففى دراستنا للوجه المادى يجب ألا يغيب عنا الوجه المعنوى مطلقا . ولا تكون الاستراتيجية قائمة على الاقتراب غير المباشر حقيقة ومؤدية الى زحزحة توازن الخصم الا اذا اشترك الوجهان معا .

فنرى من ذلك أن مجرد السير نحو العدو بطريق غير مباشر ، والدنو من مؤخرة أوضاعه لا ينتج هو بذاته اقترابا استراتيجيا غير مباشر . فالفن الاستراتيجى لم يبلغ من البساطة هذا الحد . ومثل هذا الاقتراب قد يكون فى مبدئه غير مباشر بالنسبة لجبهة العدو . على أن مجرد استقامة سيره نحو مؤخرة العدو قد يمكنه من تغيير أوضاعه وسرعان ما ينقلب الاقتراب الى اقتراب مباشر من جبهته الجديدة .

وخشية من المجازفة بتمكين العدو من تنفيذ تغيير جبهته فان من المعتاد ، اعتيادا تقضى به الضرورة ، ان تسبق الحركة المزحزحة حركة أو حركات ، قد تكون أحسن تسمية لها دالة على نوعها هى اسم « تشتيت » بمعناها اللفظى أى « التفرقة » . والقصد من هذا « التشتيت » هو حرمان العدو من حرية حركات . ويجب أن يكون فى الدائرتين المادية والمعنوية (النفسية) .

ففى المـاديات يكون عمله جعل العدو ينشر قواته أو يحولها نحو غاية لا فائدة له منها حتى تصبح شاسعة الانتشار ومتورطة من جهة أخرى بدرجة تجعلها غير قادرة على التـدخل فى حركة الانسان التى ينوى بها الحسم . أما فى دائرة المعنويات فيكون السعى للحصول على نفس هـذا التأثير ، باسـتغلال ما يخشاه قائد جيش العـدو ، وتضليله أى خدعته . ولقـد أدرك ذلك " ستونوول " " جاكسون " حينما ضرب مثـله الاستراتيجى المشهور حيث قال : « حير ، وأخدع ، ثم فاجئ » . لأن ايقاع العدو فى الحيرة وخديعته يوجدان « التشتيت » . ثم ان المفاجأة هى السبب الجوهرى فى « الزحزحة » . والذى يتـولد عن « تشتيت » فكرة القائد هو تشتيت قواته الذى يقع على أثر تشتيت أفكاره. وضياع حريته فى العمل هو نتيجة ضياع حريته فى التفكير .

ثم ان تقـدير الكيفية التى تنفذ بهـا المعنويات من خلال المـاديات وتسودها ، تقديرا يقوم على التعمق فى التفكير ، له قيمة غير مباشرة لا تقـدر . لأنه يحذرنا من السفسطة التى لا طائل تحتها ، وهى محاولة تحليل النظريات الخاصة بالاستراتيجية تحليلا قائمـا على العمليات الحسابية . فان معالجتها من وجهة الكم كما لو كانت المسألة مجرد مسألة احتشاد قوة متفرقة فى مكان مختار ، لا تقل خطأ عن معالجتها من الوجهة الهندسية كما لو كانت مسألة خطوط وزوايا .

الجزء الثانى

الحرب العالمية من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨

مقـــدمة

حينما وضعت مسودة هذا الكتاب امتنعنا عن تضمينها تحليلا لحرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ لشعورنا بأنه مع توفر المـادة الكافية لهذا التحليل سواء فى دور المحفوظات ، وفى الشهادات التى أدلى بها الأشخاص ، فان الجو كان مايزال متشبعا بحرارة الجدل العلنى والمصالح الشخصية لدرجة تحول دون قبول التحكيم قبولا هادئا لاتثور له العواطف . وقد كان كل همنا أن الدروس المستخرجة من المـاضى لإنارة المستقبل التى هى فى اعتقادنا دروس حيوية حقيقية ، لاتضيع فائدتها بسبب هذا الجو السائد . فان الذى نتوخاه انمـا هو انعاش روح البحث العلمى ، لا الجدل والمناقشة .

وفضلا عن ذلك فاننا لم نشعر بأن فحص تاريخ حديث مثل هـذا التاريخ أمر ضرورى للغرض الذى نرمى اليه . فقد كان غرضنا استخدام نظارة (آلة تعظيم المرئيات) التاريخ السالف — أى مجموعة تجارب العالمين العتيق والحديث — لنكوّن مجهرا (مكروسكوبا) ينظر فيه القارئ بنفسه فيكتشف الدروس المستقاة من سـنة ١٩١٤ وكان يظهر أن عدسياته بها القوّة الكافية لتمكينه من رؤية هذه الدروس بوضوح وجلاء .

على أن أصدقاءنا من النقاد الذين عرضنا عليهم المسـودة الأولى ألحوا علينا بأن نضمنها مطالعة لسنة ١٩١٤ — ١٩١٨ قصد مطابقة التجارب السالفة على التجارب الحديثة بوضعها على قدم المساواة . وبحجة أن القليل من الطلبة توفرت لديهم أوقات الفراغ والفرص لتنقية سواد المـادة التاريخية . فاذا كنت باذعانى لهذه المقترحات اصطدم بجراحاتى القديمة فالعيب هو عيب طريقة المعالجة ، لاعيب الروح الباعثة عليها . على أنى بحصر البحث على المدى الذى بلغه كل من الاقتراب المبـاشر ، والاقتراب غير المباشر فى استخدامهما ، والنتائج التى ترتبت على هذا الاستخدام فانى آمل أن أوفق الى ادارة دفة سفينتى بحيث لاترتطم بصخور العواطف والحقد . ولكيما نضيق مجال المناقشة والمشادة فان مطالعاتنا ستقتصر على موضوع الاستراتيجية بصفة رئيسية . استراتيجية الحملات المتنوعة . ولا نتجاوزها الى موضوع السياسة الحربية الا بمقدار صغير تقضى به الضرورة .

الباب الحادى عشر

الخطط ونتائجها فى المسرح الغربى سنة ١٩١٤

النقطة التى تبدأ منها مطالعة حملة الجبهة الغربية لابد أن تكون الخطط الموضوعة قبل الحرب . فالحدود الفرنسية ــ الألمانية كانت ضيقة لا تتجاوز ١٥٠ ميلا طولا، ولذا كانت تضيق بمناورات كل الجنود التى أوجدها نظام التجنيد الاجبارى وهيأها التطور . والطرف الجنوبى ــ الشرقى لهذه الحدود يرتكز على بلاد "سويسره"، وبعد أن تمتد مسافة قصيرة فى أراض مسطحة بالقرب من "بلفورت"، تمتد مسافة ٧٠ ميلا على طول جبال "الفوزج" ومن هناك يمتد الخط بسلسلة من القلاع تكاد تكون متواصلة لا انقطاع بينها متخذة "إبينال" و"تول" و"فردون" قاعدة لها . وبعد "فردون" وعلى مقربة منها تقع حدود "البلجيك" "ولكسمبورج" . وفى فترة التجدد واعادة البناء التى أعقبت كوارث سنة ١٨٧٠ كانت خطة الفرنسيين تنطوى على دفاع افتتاحى قاعدته قلاع الحدود، تأتى بعده ضربة مضادة حاسمة . ومن أجل ذلك أوجدوا مجموعة القلاع العظيمة على طول حدود "الالزاس ـــ واللورين" وتركت بينها فتحات مثل فتحة "ترويه دو شارم" بين قلعتى "إبينال" و"تول" لتكون «قناة» يجرى منها الغزو الألمانى المنتظر حتى تكون الضربة المضادة أكثر ضمانا وأشد مفعولا .

وهذه الخطة كانت تمتاز بقدر معين من الاقتراب غير المباشر ربما كان كل ما فى الاستطاعة عمله نظرا لضيق الحدود وحجم كل الجنود الفرنساوية المجندة على النظام الاجبارى، دون المساس بالأراضى المحايدة .

غير أن (مدرسة) طائفة جديدة، أى مذهبا جديدا، من الأفكار نشأت فى العقد السابق لسنة ١٩١٤، زعيمها (نبيها) الكلونيل "دوجراند مايسون" . عيبت هذه الخطة بحجة أنها تناقض الروح الفرنسية، وأنها «تكاد تكون مضيعة تامة لفكرة الحركات التعرضية» . وهنا وجد مروجو فكرة Offensive à Outrance «التعرض بأقصى حد ممكن» مشجعا لنواياهم فى شخص الجنرال "جوفر" الذى تعين رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة فى سنة ١٩١٢ فانتهزوا هذه الفرصة وتولوا السيطرة على الآلة العسكرية الفرنسية، وألقوا الخطة القديمة من حالق، وضربوا بها عرض الأفق ثم أوجدوا الخطة الجديدة التى أصبحت الآن مشهورة، أو سيئة السمعة، وهى الخطة "السابعة عشرة" . وهذه الخطة عبارة عن اقتراب مباشر محض فى صورة تعرض طائش ضد القلب الألمانى (أى منتصف الجيش الألمانى) تقوم به «كل القوات متحدة» . ومع ذلك فكان الفرنسيون فى خطتهم هذه القائمة على الحركات التعرضية الجبهية،

على كل الجبهة ، يعتمدون على قوتهم العددية التى لا تزيد عن قوة العدو ، مع أنه يستطيع استمداد العون من منطقة حدوده المحصنة ، فى حين أنهم حينما يندفعون الى الأمام يتبرأون من كل ميزة يستفيدونها من أماكنهم المحصنة . والشيء الوحيد الذى روعيت فيه التجارب التاريخية وسلامة الذوق فى هذه الخطة هو أن قلعة "متس" كان مقررا لها أن تستر لا أن تهاجم بالذات . بل أن يمر الهجوم من جنوبها وينفذ الى "اللورين" ، ومن شمالها كذلك . وهذا الجناح الأخير (أى الهاجم من شمالها) يوالى حركاته التعرضية الى أراضى "لوكسمبورج" البلجيكية اذا ماأخل الألمان بحياد البلاد المحايدة . ومن الألغاز التاريخية أن الخطة الفرنسية استمدت الهامها من "كلاوزيفتز" الألمانى ، فى حين أن خطة الألمان كانت أقرب الى الخطة النابليونية فى أصلها ، وان كانت ما تزال أقرب من الهانبالية .

أما نصيب جنود التجريدة البريطانية فى الخطة الفرنسية فكان قد تمت تسويته فى العقد السابق لسنة الحرب تسوية كان أثر الحساب فيها أقل من أثر صبغ التنظيم العسكرى البريطانى والرأى البريطانى بالصبغة «الأوربية» . وهذا النفوذ الأوربى جر بريطانيا تدريجيا دون أن تشعر لأن تقبل ضمنا دور الملحق أى التابع للجناح الفرنسى الأيسر ، بعيدة عن استغلالها التاريخى لسرعة الحركة والتنقل التى أعطتها اياها قوتها البحرية . وفى مجلس الحرب الذى عقد حينما نشبت الحرب أشار اللورد "روبرتس" ، الذى استدعى من التقاعد ، بارسال قوة التجريدة البريطانية الى ساحل البلجيك — حيث كانت تزيد المقاومة البلجيكية صلابة . وكانت بمجرد الموقف الذى تتخذه تهدد الجناح الخلفى للجيوش الألمانية أثناء زحفها مجتازة "بلجيكا" الى فرنسا . على أن الجنرال "هنرى ولسون" بصفته مديرا للعمليات الحربية كان قد أعطى وعدا عن هيئة أركان الحرب العامة لأن تعمل بالتعاون مع الفرنسيين مباشرة . فقد مهدت المفاوضات العسكرية غير الرسمية التى جرت بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٤ السبيل لقلب السياسة الحربية العتيقة التى اتبعتها انجلترا منذ أجيال .

وهذا «الأمر الواقع» لم يتغلب على الفكرة الاستراتيجية التى أبداها "روبرتس" فحسب ، بل تغلب أيضا على رغبة "هايج" فى إرجاء انزال الجنود الى البر حتى يصبح الموقف أكثر وضوحا ، وحتى على اعتراض "كتشنر" ذلك الاعتراض الذى اقتصر على تجمع قوة التجريدة مقتربة من الفرنسيين ومن الحدود بهذه الدرجة .

وكانت الخطة الفرنسية المنقحة هى الشيء الوحيد الذى يجعل الخطة التى وضعها "الجراف فون شليفن" فى سنة ١٩٠٥ اقترابا غير مباشر حقيقة . فلما وجد الألمان أنفسهم أمام سور من القلاع التى أقامها الفرنسيون على حدودهم أصبح الطريق العسكرى أمامهم ، الذى يقضى به المنطق ، هو الدوران حول هذه القلاع — عن طريق "بلجيكا" . فقد صمم "شليفن" على انتهاج هذا السبيل والابتعاد عن القلاع الفرنسية بقدر الامكان . ومن الغريب أن القيادة

الفرنسية ، حتى حينما غزيت البلجيك فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، ما كانت تعتقد أن الالمانيين ينفذون الا من أقصر طريق ، أى جنوبى نهر "الموز". أما خطة "شليفن" فقد كانت حشد سواد القوات الألمانية على الجناح الأيمن لتدور هـذه الدورة الهائلة . فكان المقرر أن يكتسح الجناح الأيمن "بلجيكا" من أولها الى آخرها وفرنسا الشمالية ويستمر فى قطع قوس متسع ثم يدور تدريجيا نحو الشرق. ولما تم منتهى ميمنة هذا الجناح بجنوبى "باريس" وتعبر نهر "السين" بالقرب من "روين" فانها تصدّ الفرنسيين وترجعهم نحو نهر "الموزيل" فيقعون بين المطرقة والسندان الذى وراءهم المكوّن من قلاع "اللورين" وحدود "سويسرة" .

على أن المهارة الحقيقية فى هذه الخطة وكونها غير مباشرة ليست فى الدورة الجغرافية ولكنها فى الفكرة التى أملت توزيع الجنود . فقد كان القصد الحصول على مفاجأة افتتاحية بادماج فيالق احتياطية بالفيالق العاملة فى الكتلة القائمة بالحركات التعرضية ، من أول الأمر ، فمن الفرق التى بلغ عددها بعد هذا الادماج ٧٢ فرقة ، خصصت ٥٣ فرقة لكتلة الدوران . ووضعت عشر فرق مقابل "فردون" لتكون محورا للدوران . ولم يترك للجناح الأيسر على طول الحدود الفرنسية سوى تسع فرق . وانقاص الجناح الأيسر على هـذه الصورة الى أصغر حجم ممكن كان نتيجة حساب يشف عن المهارة والدهاء ، يزيد تأثير الكتلة الدائرة بسبب ضعفه . لأن الفرنسيين الهاجمين فى "اللورين" اذا ضغطوا الجناح الأيسر وأرجعوه نحو نهر "الرين" تعذر عليهم صد الهجوم الألمانى الآتى من خلال البلجيك . وكلما تقدموا ازدادت مصاعبهم فمثل موقفهم كمثل باب دائر حول محور له اذا ضغط الانسان بشدة على أحد جانبيه دار جانبه الآخر حول الانسان وصدمه من الوراء . وكلما ازداد ضغطه كلما اشتدت الضربة . فمن الوجهة الجغرافية كان حجم القوات الهائل بالنسبة لمسرح العمليات يجعل حركة "شليفن" باختراقها بلاد البلجيك حركة اقتراب استراتيجى غير مباشر بمقدار محدود . أما من الوجهة المعنوية (النفسية) فكان التصميم الذى وضعه لتوزيع القوة فى الجناح الأيسر يجعل الاقتراب غير مباشر بصورة قطعية . ثم جاءت الخطة الفرنسية فجعلته بالغا حد الكمال . فاذا استطاع روح فى عالم الأرواح أن يضحك فى سره فما أحرى روح "شليفن" الراحل أن يتملكه الضحك حينما يرى أن الفرنسيين لم يكونوا فى حاجة الى من يستدرجهم الى الشرك الذى نصبه لهم . غير أن ضحكه لا بد أن ينقلب سريعا الى غضب . لأن خلفه "مولتكه" — (الصغير) اسما ولكنه الأكبر من حيث الحذر — ترك خطة "شليفن" أثناء التنفيذ كما سبق له أن عدلها وأفسدها فى الاستعدادات التى اتخذت قبل الحرب .

فانه فى الفترة ما بين سنة ١٩٠٥ — ١٩١٤ لما كثرت الجنود زاد قوة الجناح الأيسر بما لا يتعادل مع نسبته للجناح الأيمن . فلما زاده تأمينا جعل الخطة غير آمنة ، ثم شرع ينخب فى أساسها نخبا مستمرا الى أن انهارت .

فلما تطورت الحركات التعرضية الفرنسية فى أغسطس سنة ١٩١٤ استهوى تطورها "مولتكه" فقبل التحدى بطريقة مباشرة ساعيا الى حصول حسم فى "اللورين" مرجئا دورة الجناح الأيمن . فلم ينتج ذلك الا تأثيرا وقتيا . ولكنه فى هذه الفترة القصيرة كان قد حول الى "اللورين" ست فرق احتياطية شكلت حديثا كان ينبغى ارسالها الى جناحه الأيمن تعزيزا لقوته . وهذه الزيادة الجديدة جعلت الأمراء المتولين القيادة فى "اللورين" يزدادون أنفة من تنفيذ دورهم المكلفين به الذى يتطلب منهم ضبط النفس . فان البرنس "روپريخت" أمير "بافاريا" بدلا من أن يستمر فى التقهقر ويجر الفرنسيين وراءه أوقف جيشه واستعد للاشتباك فى معركة . ولما رأى الهجوم الفرنسى مبطئا فى تطوره اتفق مع جاره على أن يبتدراه بهجوم منهما . وكان الجيشان يتألفان اذ ذاك من ٢٥ فرقة مقابل ١٩ فرقة فكان ينقصهما التفوق والموقع الاستراتيجى ليجعلا الضربة المضادة حاسمة . فكانت النتيجة مجرد ارجاع الفرنسيين الى حدودهم المحصنة . وبذلك لم يستعيدوا قوة مقاومتهم وزيادتها فحسب ، بل انهم تمكنوا من ارسال جنود نحو الغرب لمعركة "المارن" .

فأعمال الألمان فى "اللورين" أفسدت خطة "شليفن" أكثر مما أفسدها انقاص قوة الجناح الأيمن والدور الذى كان مقررا له وان كان ذلك الافساد بصورة أقل وضوحا . وعلى كل حال فمن هنا جاء السبب المباشر للانهيار . فقد أخذ "مولتكه" سبع فرق من الجناح الأيمن لحصار "موبوج" و "جيفيت" و "انتورپ" أو لحراستها . ثم أخذ أربع فرق لتقوية جبهة بروسيا الشرقية . وعند ما دار جيش "كلوك" الكائن فى منتهى الميمنة الى الداخل قبل الأوان ، بناء على طلب جاره وبترخيص "مولتكه" ، وبدورته أعطى حامية باريس فرصة لضربه من الجنب ، كان الواقع ، وهو أن الفرق الألمانية التى كانت موجودة اذ ذاك ١٣ فرقة يقابلها ٢٧ فرقة فرنسية — بريطانية على ذلك الجنب الحاسم ، يبين بأجلى صورة الكيفية التى أضعف بها (جناح "شليفن" الحاسم) — مباشرة وغير مباشرة . لأنه اذا كان ضعف الألمان ناشئا عن انقاص قوة الجناح الأيمن ، فان تفوق الفرنسيين كان ناشئا عن عمل الجناح الألمانى الأيسر الذى لم يكن على شىء من حسن التدبير .

ومع أن معركة "المارن" عبارة عن اجتياز الحد المبهم الكائن بين الاستراتيجية والتكتيك فان تلك الفترة التى تغيرت فيها حالة الحرب تلق كثيراً من الضوء على مسألة "الاقتراب" . فهى جديرة بالفحص . ولكى تنعكس هذه الأضواء لا بد لها من صفحة تنعكس عليها هى الحوادث التى وقعت .

فارتداد جناح "جوفر" الأيمن فى "اللورين" أعقبه تقهقر قلبه (أى منتصف جيشه) وطرده لا يلوى على شىء فى مقاطعة "الأردن"، ثم نجاة جناحه الأيسر بكل صعوبة من كارثة الاحاطة به بين نهرى "السامبر" و "الموز" بعد أن كان متأخرا فى انتشاره . فلما أخفقت

الخطة ””السابعة عشرة““ وتقطعت أوصالها كون ””جوفر““ خطة جديدة من الانقاض . فاستقر رأيه أن يدور بميسرته وقلبه الى الوراء متخذا ””فردون““ مركز الدوران أى المحور، بينما يسحب جنودا من ميمنته الممزقة ليشكل منها جيشا سادسا جديدا يجعله على ميسرته .

أما عند الألمان فان التقارير الأولى المنمقة التى أرسلها قادة الجيوش الى القيادة العليا الألمانية عن المعارك التى وقعت على الحدود كانت قد أدخلت فى روعها أنها قد انتهت بنصر حاسم . وبعد ذلك لما رأى ””مولتكه““ أن عدد الاسرى كان قليلا نسبيا داخله الشك وأخذ يقدر الموقف تقديرا أكثر رصانة . فهذا التشاؤم الذى أبداه ””مولتكه““ حديثا، باشترا كه مع إعادة التفاؤل الذى أبداه قادة الجيوش أوجدا خطة جديدة، غير الأولى، كانت تحمل فى ثناياها بذور الكارثة . فعند ما تقهقر الجناح الأيسر البريطانى فى ٢٦ أغسطس من ””لوكاتو““ بعد ان تضعضع، اتجه جيش ””كلوك““ الأول نحو الجنوب الغربى مرة أخرى . وهذا الاتجاه وان كان سبب اتخاذه إساءة فهم خط الرجعة الذى اتخذه البريطانيون، من جهة، فانه كان مطابقا لحركة ””كلوك““ الأصلية أيضا التى هى الدوران على دائرة متسعة كاسحة . فلما أوصله الى داخل الساحة الواقعة بين ””أميان““ و ””بيرون““ حيث كانت العناصر الأولى من الجيش الفرنسى السادس الذى تشكل حديثا، آخذة فى النزول من القطارات بعد ””تحويلها““ من ””اللورين““ . اضطر الجيش السادس لأن ينسحب على وجه السرعة . وبذا تزحزح تصميم ””جوفر““ وهو استئناف التعرض قريبا .

غير أن ””كلوك““ ما كاد يدور نحو الجنوب . الغربى حتى اضطر أن يدور الى الداخل ثانيا . لأن ””جوفر““ لكى يخفف الضغط عن البريطانيين كان قد أمر الجيش المجاور له (جيش ””لانريزاك““) بالوقوف وتوجيه ضرباته الى الوراء نحو الجيش الألمانى الثانى (جيش ””بولو““) الذى كان يتعقب البريطانيين . فلما أثر هذا التهديد فى ””بولو““ استعان ””بكلوك““ . ولما هجم ””لانريزاك““ فى ٢٩ أغسطس أوقف هجمته ””بولو““ قبل أن يحتاج الى المساعدة ولكنه بالرغم من ذلك طلب من ”” كلوك ““ أن يدور لكى يقطع على ””لانريزاك““ رجعته . وقبل أن يلبى ””كلوك““ هذا الطلب عرض الأمر على ””مولتكه““ . ووصل هذا الطلب الى ””مولتكه““ فى اللحظة التى بدأ فكره فيها يرتبك من جراء الحالة العامة بسبب الطريقة التى كان الفرنسيون ينفلتون بها من بين ذراعيه . وخصوصا من جراء الفتحة التى تواجدت بين الجيش الثانى والثالث . ولهذا السبب صرح ””مولتكه““ ””لكلوك““ بأن يغير اتجاهه وهذا معناه التخلى عن حركة الدوران الواسعة الأصلية التى تدور حول الجانب الأبعد من ”” باريس ““ . أما الآن فان جناح الخط الألمانى الدائر يمر بالجانب الأقرب من باريس وأمام وجه دفاعات باريس فتمد ضحى ””مولتكه““ بالآمال الواسعة التى تنطوى عليها الدورة الواسعة المرسومة فى خطة ””شليفن““ فى سبيل السلامة . بأن قصر جبهته وضمها وجعل اقترابه أكثر مباشرة . وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يقلل الخطر جلب على نفسه ضربة مضادة مميتة .

لحصل البت فى التخلى عن الخطة الاصلية بصورة قطعية فى ٤ ديسمبر واستعاض عنها "مولتكه" باحاطة القلب والميمنة الفرنسيين فى نطاق أضيق . فكان على قلبه هو أى جيشى الوسط (الرابع والخامس) أن يضغطا جنوبا فشرقا ، بينما تقوم ميسرته (الجيشان السادس والسابع) بتوجيه ضرباتهما جنوبا فغربا محاولة اختراق المنطقة المستحكمة التى كانت حاجزا قائما بين قلعتى "تول" و "إبينال" . وبهذه الكيفيه ينطبق "الفكان" الى الداخل على جانبى "فردون" وفى نفس الوقت تدور ميمنته (الجيشان الأول والثانى) الى الخارج وتتجه نحو الشرق لتصد أية حركة مضادة يحاول الفرنسيون القيام بها من جوار باريس .

على أن هذه الحركة المضادة كانت قد بدأت قبل ما تحدث هذه الخطة الحديثة أثرها .

فلاحت هذه الفرصة لا أمام "جوفر" الذى كان قد أمر بموالاة التقهقر ، ولكن الذى أدركها هو "غالينى" محافظ باريس العسكرى . ففى ٣ سبتمبر أدرك "غالينى" معنى دوران "كلوك" الى الداخل ، فوجه الجيش السادس تحت قيادة "مونورى" للاستعداد لانزال ضرباته بالجناح الألمانى الأيمن المكشوف ، وفى اليوم التالى تحصل على تصريح بذلك من "جوفر" بكل صعوبة . فلما اقتنع "جوفر" حتى أخذ يعمل بحزم وعزم . وصدر الأمر الى كل الجناح الأيسر بالانقلاب والعودة الى الحركات التعرضية العامة ابتداء من ٦ سبتمبر . أما "مونورى" فكان قد سبق الى العمل فى الخامس من سبتمبر . ولما ازداد ضغطه على الجناح الألمانى الحساس اضطر "كلوك" لأن يسحب جزءا من جيشه ثم اتبعه ببقية الجيش لمعاونة حرسه الجنبى المهدد . وبذلك تواجدت فتحة بين الجيشين الأول والثانى اتساعها ٣٠ ميلا . وهذه الفتحة لا يسترها سوى ستار من الفرسان . أما الذى جرأ "كلوك" على هذه المجازفة فهو تقهقر البريطانيين بسرعة أمام هذا القطاع الخالى . حتى فى يوم ٥ سبتمبر استمر البريطانيون فى سيرهم نحو الجنوب لمدة يوم كامل بدلا من أن ينقلبوا راجعين . غير أن هذا "الاختفاء" كان هو سبب النصر وهو سبب غير مباشر وجاء عن غير قصد . فان البريطانيين حينما انقلبوا راجعين كان خبر زحف قولاتهم على الفتحة السبب الذى أدى "ببولو" لأن يصدر أمره بتقهقر الجيش الثانى فى ٩ سبتمبر . فزالت بذلك الميزة الوقتية التى كان الجيش الأول قد حصل عليها ضد "مونورى" بعد أن تحول عن عمله الأصلى وانفصل عنه ، فتقهقر فى نفس ذلك اليوم . وفى يوم ١١ سبتمبر كان التقهقر قد شمل كل الجيوش الألمانية إما باستقلال كل منها عن الآخر ، وإما بأوامر "مولتكه" . وكانت محاولة القيام بحركة احاطة جزئية محورها "فردون" قد أخفقت وحطم الفك المكون من الجيشين السادس والسابع أسنانه فى دفاعات (استحكامات) الحدود الفرنسية الشرقية . ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف ساغ للقيادة الألمانية ، عقلا ، أن تعتمد على احراز اقتحام جبهى بتدبير وقتى اتخذ على عجل ، مع أن الحساب الهادئ الذى عمل قبل الحرب قد أبان لهم خطره لدرجة أدت بهم لأن يتخذوا ذلك القرار العظيم الخطر وهو قرار الزحف عن طريق "بلجيكا" لأنه الطريق الآخر الممكن .

ومجمل القول ان الذى بت فى مصير معركة "المارن" هما صدمة وشق . فالصدمة كانت بهجوم "مونورى" على الجناح الأيمن الألمانى فتسبب عنها شق فى نقطة ضعيفة فى الخط الألمانى هى نقطة اتصال جيشين . وهذا الشق المادى تولد عنه شق معنوى فى القيادة الالمانية .

والذى نلاحظه أمام تلك الوقائع هو أن حركة "كلوك" غير المباشرة ، وهى دورته الى الخارج ، بعد "لوكاتو" كان لها قيمتها فى احباط خطة "جوفر" الثانية — وهى العودة سريعا الى انتهاج الحركات التعرضية . وفى ازدياد سرعة قوة الدفع الخطرة الناشئة من تقهقر الفرنسيين والبريطانيين . كما كانت دورته الى الداخل ، التى جاءت على أثر ذلك ، خطرا عظيما على الخطة الألمانية . ونلاحظ ، ثانيا ، أن اقتراب "مولتكه" الاستراتيجى صار يزداد استقامة (أى يصير مباشرا) وأن الاقتحام الجبهى الذى قام به الجناح الأيسر الألمانى لم يقتصر على الفشل الذى كلفه خسائر ، بل انه لم يأت بنتيجة استراتيجية تعوض ما أصابه من الخسائر .

والقول بأن تقهقر "جوفر" كان اقترابا غير مباشر لا يخلو من المبالغة . فان فرصة معركة "المارن" جاءت عفوا ، فلم تخلق ، حتى ولم يسع فى خلقها أحد . أما هجوم "غالينى" لجاء فى الوقت المناسب ، قبل أن يتمكن الجيشان الألمانيان الأول والثانى من اتخاذ أوضاع جديدة لحراسة الجناح . ولكنه كان مباشرا بدرجة كبيرة جدا لا يستطاع معها الحصول على نتائج حاسمة . وكان يكون مباشرا بدرجة أكبر لو أنه وقع جنوبى نهر "المارن" طبقا للتعليمات الأولى التى أصدرها "جوفر" . وأخيرا ترى أن الحسم الحقيقى أى الحركة التى اضطرت الألمان لأن يتقهقروا ، وان كانت لا تزيد عن ذلك ، كان سببها " اقتراب غير مباشر " جاء على غير قصد فى صورة فصل مسرحى محض . ذلك هو "اختفاء" قوة التجريدة البريطانية ثم ظهورها ثانيا ، الذى حصل متأخرا لحسن الحظ ، أمام نقطة اتصال الجناح الأيمن الألمانى التى لاقت من الشدة ما لاقت وحل بها الضعف . وقد لامها نقاد الفرنسيين على ذلك التأخير وفاتهم أنه جاء بدليل بديع على صدق خرافة الأرنب والسلحفاة وان كان من نوع آخر . فلو أنها أسرعت فى العودة لما وجدت نقطة الاتصال بهذا الضعف . وما كان فى امكان هجوم "مونورى" أن يأتى بالحسم لأنه كان قد وقف قبل ذلك ، بينما كان الفيلقان الألمانيان المأخوذان من نقطة الاتصال لايزالان سائرين ولم يشتركا فيما حصل .

وفى تحليلنا أسباب تقهقر الألمان لابد لنا من مراعاة عامل كان المعتاد اهماله وعدم مراعاته . ذلك هو الشعور الذى تواجد لدى القيادة العليا بسبب الأخبار الواردة من انزال جنود على الشاطئ البلجيكى واحتمال تهديدها لمؤخرتهم ومواصلاتهم . وهذا الشعور أدى بهم لأن يفكروا فى الانسحاب حتى قبل أن تبتدئ معركة "المارن" . فان القائمقام "هنتش" ممثل القيادة العليا ، حضر الى الجيش الأول فى يوم ٥ سبتمبر بآخر أمر صدر لاتخاذ الحيطة

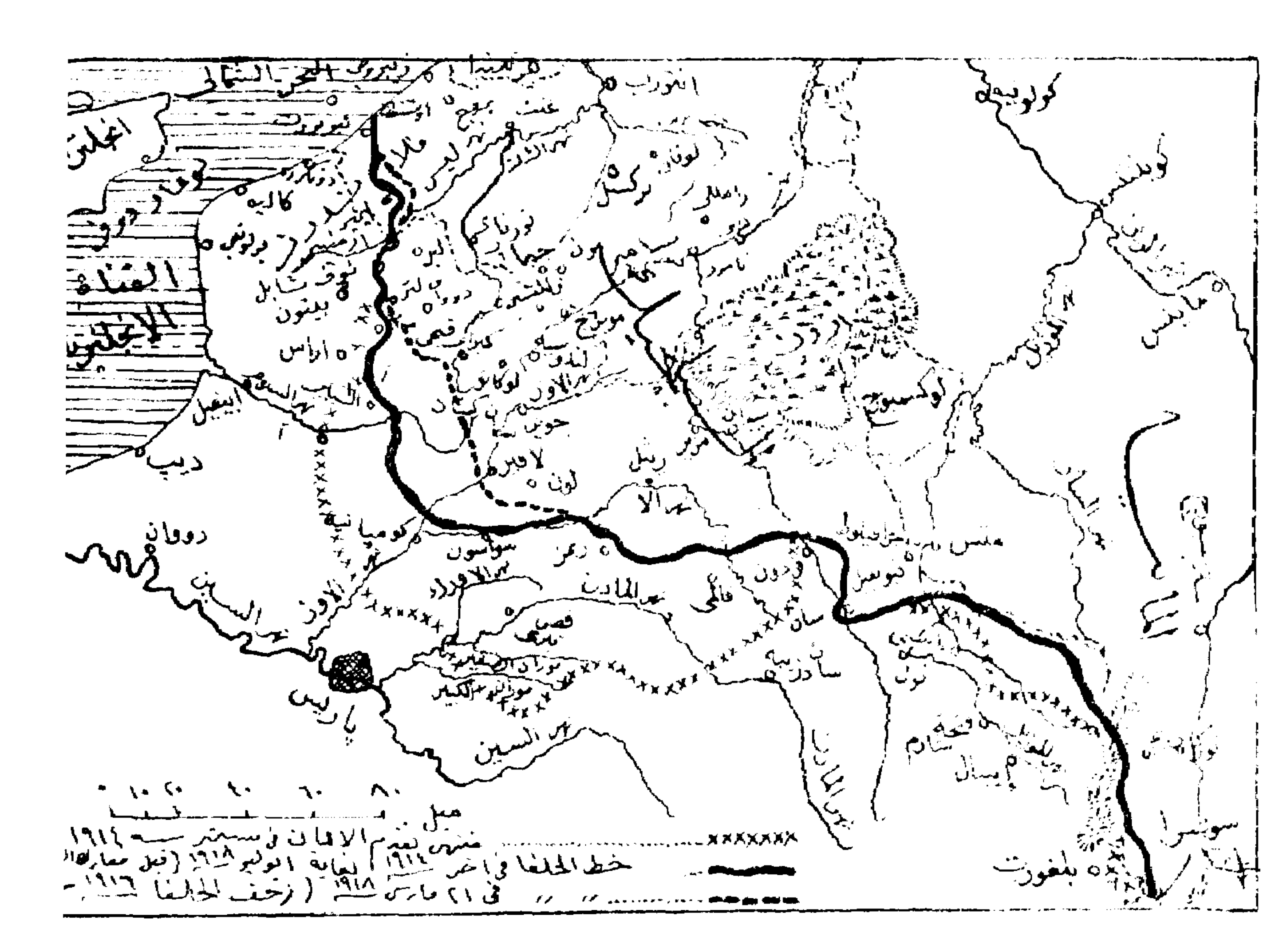
وأعلمه بأن : "الأخبار رديئة ، وأن الجيشين السابع والسادس أوقفا أمام "نانسى" و"إبينال" . وأن الجيشين الرابع والخامس يلاقيان مقاومة قوية . والفرنساويون يشحنون جنودا بالسكة الحديدية من ميمنتهم نحو باريس . وأن الانجليز سينزلون جنودا جديدة الى البر على الدوام ، ولا شك فى أنهم ينزلونها على الشاطئ البلجيكى . وهناك إشاعات بقدوم تجريدة روسية الى هذه الجهات . فالانسحاب سيصير أمرا لابد منه "

فان حدة حساسية القيادة الألمانية ضاعفت عدد جنود ثلاث أورط من الجنود البحرية نزلت الى البر فى "أوستند" لمدة ٤٨ ساعة بجعلتها فيلقا قوامه ٤٠,٠٠٠ جندى . ويقال ان فكرة الروس أوجدتها مخيلة رجل انجليزى وظيفته حارس فى السكة الحديدية — فيجب أن يقام تمثال فى "هوايتهول" "للحارس المجهول" ومؤرخو المستقبل لهم أن يعتبروا جماعة هؤلاء الزوار الذين زاروا "أوستند" زيارة وقتية ، وخرافة الروسيين ، السبب الأصلى فى الانتصار فى معركة "المارن" .

فمتى روعى التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه القوات الخيالية ، مع حجز قوات ألمانية فعلا فى البلجيك خشية قيام البلجيكيين بحركة خروج من "انتورب" ، وهذه الحركة تطورت فى يوم ٩ سبتمبر ، فالذى يلوح هو أن ميزان الرأى تثقل كفته كثيرا فى جانب الاستراتيجية التى أوصى بها "روبرتس" على غير طائل والتى لو اتبعت لكان من الممكن أن يكون لقوة التجريدة البريطانية أثر ايجابى حاسم فى النضال لا مجرد أثر سلبى .

وكان "فالكنهاين" الذى حل الآن محل "مولتكه" يقدر التهديد الخفى الآتى من الساحل البلجيكى الى مؤخرة الألمان حق التقدير دائما . فكانت أول خطوة خطاها هى إخضاع "انتورب" ومنها تولدت بذور مناورة فيها رائحة الاقتراب غير المباشر . ومع ان تنفيذها لم يبلغ الدرجة التى بلغها ابتكارها وكان تنفيذها أكثر استقامة (أى الحركة المباشرة) من الابتكار ، فقد كانت كافية لأن تؤدى بالحلفاء الى حافة الكارثة مرة أخرى .

أما التعقب الجبهى الذى قام به الحلفاء فكان قد أوقف قطعيا على نهر "الاين" قبل أن يقرر "جوفر" أن يشكل جيشا جديدا و يجعله تحت قيادة "دوكاستلناو" ليقوم بحركة تجاوز الجناح (وهى حركة يقصد بها تجاوز جناح العدو تمهيدا للالتفاف حوله) . وذلك بعد أن رأى أن محاولة "مونورى" الانطواء على الجناح الألمانى غير مجدية (الانطواء على الجناح هى حركة يصل بها جيش أو قسم منه الى الاتصال بجناح جيش العدو من الخلف) . وفى ذلك الحين كانت الجيوش الألمانية قد استعادت اتصال بعضها ببعض وانضمامها وكانت القيادة الألمانية على استعداد لمقابلة مناورة محدودة من هذا القبيل أصبحت الآن فى خط الانتظار الطبيعى . ثم انقضى الشهر التالى فى سلسلة محاولات كانت واضحة كل الوضوح وعقيمة كل



بحر الشمال
انجلترا
القناة الإنجليزية
كاليه
دنكرك
اوستند
انفرس
بيتون
اراس
ابفيل
دييب
روان
السين
باريس
كومبانيا
سواسون
ريمز
لاون
فالمي
سان منهولد
فردون
متس
نانسي
لوكسمبورج
نامور
لييج
بروكسل
كولونيا
كوبلنز
ماينس
ستراسبورج
سويسرا
بلفورت
نهر المارن
نهر الموز
نهر الاين
نهر السوم
٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ١٠ ٠
ميل
منتهى تقدم الالمان في سبتمبر سنة ١٩١٤
خط الحلفا في اخر ١٩١٤ لغاية اوليو ١٩١٨ (قبل معارك
" " في ٢١ مارس ١٩١٨ (زحف الحلفا ١٩١٦

العقم قام بها كل من الفريقين لينطوى على جناح خصمه الغربى — وهى المرحلة التى سماها الجمهور خطأ " السباق الى البحر " فداخل "فالكنهاين" الملل من هذه الألعوبة قبل أن يملها "جوفر" بمدة طويلة ، ووضع خطة فى ١٤ أكتوبر لشرك نصبه للحلفاء ليقعوا فيه فى محاولتهم التالية التى تنبأ بحصولها . فخصص جيش الجناح الذى شكله حديثا ، لملاقاة هذه المحاولة واتقائها . بينما يقوم جيش آخر مؤلف من الجنود التى أتت من " انتورب " بعد سقوطها وأربعة فيالق شكلت حديثا ، باكتساح الساحل البلجيكى ، فيسحق جناح الحلفاء الهاجمين ويطويه الى الداخل ثم ينقض على مؤخرتهم ، وبلغ به الأمر أن أوقف موقتا الجنود التى كانت تتعقب جيش الميدان البلجيكى بعد خروجه من "انتورب" حتى لا يزعج قيادة الحلفاء قبل الأوان .

ولكن لحسن الحظ أبى الملك " ألبرت " أن يلبى دعوة " فوش " له لأن يشترك فى هذا المجهود الأخير وهو السعى ليجاوز جناح العدو ، وامتنع عن مبارحة ناحية الساحل ، ملهما فى ذلك بالتزام الحذر أو بمراعاة الحقائق المادية . ولهذا السبب أصبح الجيش البلجيكى فى موقف يستطيع فيه مقاومة حركة الاكتساح الألمانية الآتية من الشمال . و فى آخر الأمر استطاع احباطها باغراق الشقة المنخفضة من الشاطئ باطلاق المياه عليها . وهذا اضطر "فالكنهاين" لأن يقوم باقتراب أكثر استقامة فى اتجاهه نحو جناح الحلفاء الذى كان قد امتد حديثا حتى "ايبر" بوصول فيلق هايج من نهر "الاين" ومع أن الزحف الذى حاوله البريطانيون الذين وصلوا أولا ، أى الميمنة والقلب ، كان قد أعيق فان السير "جون فرنش" أمر الميسرة أى "هايج" بأن يحاول تحقيق حلم "جوفر" وهو تجاوز جناح العدو . ولحسن الحظ أيضا اتفق وقوع هذه المحاولة فى الوقت الذى افتتح فيه الألمان هجومهم الذى كان قبل الأوان فخابت فى مبدأها . ولو أن "فرنش" بقى واثقا بهذا "الهجوم" تحت تأثير "فوش" لمدة يوم أو يومين بينما كانت جنود "هايج" تلاقى مشقة زائدة حتى فى المحافظة على أماكنها . فان أوهام الرؤساء الفرنسيين والبريطانيين فيما يختص بحقيقة الموقف ربما كان يرجع اليها بعض الأسباب التى جعلت معركة "ايبر" كمعركة "انكرمن" "معركة جنود" فى جوهرها . ثم ان "فالكنهاين" أيضا بمجرد ماخاب أمله فى اكتساح الساحل بقى مصرا لمدة شهر على محاولة ارغام الحلفاء على الفصل الحاسم ، باقتراب مباشر . ولما فاز الدفاع المباشر بالرغم من ضعفه ، على الهجوم المباشر كما هى العادة ، توطد حاجز الخنادق من حدود سويسرة الى البحر ونشأ التوقف فى الجانبين .

المسرح الغربى من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩١٧ — ان السجل العسكرى (التاريخ العسكرى) للتحالف الفرنسى — البريطانى مدة الأربع سنين التالية هو عبارة عن قصة محاولة تحطيم هذا السد ، إما باختراق الحاجز والنفوذ منه ، وإما بانتهاز فرصة للغامرة بالالتفاف حوله بأى طريقة .

ففى الجبهة الغربية وما احتوت عليه من خطوط متوازية من المتاريس لا نهاية لها أصبحت الاستراتيجية خادمة للتكتيك . وحتى التكتيك أصبح مقيدا فالجانب الاستراتيجى فى سنى ١٩١٥ — ١٩١٧ لايستدعى كثيرا من البحث . ففى جانب الحلفاء كانت الاستراتيجية استراتيجية اقتراب مباشر محض فلم يكن لها أثر فى ازالة هذا التوقف . ومهما يكن رأينا فى قيمة الانهاك ، وفيما قيل من أن كل هذه المدة يجب اعتبارها بمثابة معركة واحدة مستديمة ، فان الطريقة التى تستلزم أربع سنين لاحداث حسم لا تعتبر نموذجا يقاس عليه .

ففى "نوف شابل" اذا كان الاقتراب فى المحاولة الأولى الدقيقة التى حصلت فى سنة ١٩١٥ مباشرا ، فان المفاجأة التكتيكية على الأقل قصدت وأمكن الحصول عليها . أما بعدها فلما اتبعت طريقة " الانذار " بضرب المدافع المستطيل الأجل فقد صارت كل المحاولات عبارة عن لحمات جبهية " مكشوفة " ومن هذا النوع كان كل من التعرض الفرنسى بالقرب من " اراس " فى مايو سنة ١٩١٥ والتعرض الفرنسى — البريطانى الذى حصل فى سبتمبر سنة ١٩١٥ فى " شامبانيا " شمالى " اراس " وفى يوليه ونوفمبر سنة ١٩١٦ على نهر " السوم " وفى أبريل سنة ١٩١٧ على نهر "الاين" وفى "اراس" . وأخيرا التعرض البريطانى فى "ايبر" من يوليه الى أكتوبر سنة ١٩١٧ الذى استغرق مثل الملك شارلس الثانى "زمنا طويلا فى موته" فى مستنقعات " باشنديل " وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٧ أعيدت المفاجأة التكتيكية الى الحياة باستخدام كل الدبابات التى انطلقت بغتة بدلا من ضرب المدافع التمهيدى الطويل الأجل . على أن هذا الهجوم الصغير الذى ابتدأ بحسن الطالع وانتهى سيئ الطالع لايستحق اسم اقتراب غير مباشر من الوجهة الاستراتيجية .

أما فى الجانب الألمانى فقد كانت الاستراتيجية دفاعية محض ، الا فى فترة " فردون " فى سنة ١٩١٦ وهذه أيضا كانت اقترابا مباشرا فى جوهرها ، الا اذا كانت فكرة استنزاف دم العدو الى أن يموت . بواسطة سلسلة من الديدان التى تمتص الدماء تستحق اسم ، غير مباشر . ولكن الاسراف فى بذل الديدان أدى الى الافلاس منها .

والذى يقرب من نوع الاقتراب غير المباشر ، ولكنه دفاعى محض فى غايته ، هو ما فعله "لودندورف" من سحب جزء من الجنود الألمانية الى خط "هندنبورج" فى ربيع سنة ١٩١٧ الذى دل على مقدرته فى التفكير والتمهيد . فلكى يستبق الحوادث ويبادر بالاستعداد لملاقاة التعرض الفرنسى — البريطانى حينما يستأنف على نهر " السوم " ، أمر باقامة خط جديد من الخنادق على وتر القوس المكون من " لنز — نويون — ريمز " قواه تقوية صناعية عظيمة . وبعد أن أتلف كل شئ فى كل الساحة الواقعة داخل هذا القوس انسحب بطريقة نظامية

الى الخط الجديد الذى كان أقصر من سابقه متنقلا مرحلة مرحلة . فهـذه المناورة التى امتازت بالشجاعة الأدبية أثناء التخلى عن الأراضى، زحزحت خطة الحلفاء الموضوعة للتعرض فى فصل الربيع ، من أساسها . وبهذه الوسيلة اكتسب الألمـان فرصة سنة قضوها بمنجاة من الأخطار ومن حركات الحلفاء التعرضية المشتركة . وفى هذه المدة تم انحلال الروسيا وتمكن "لودندورف" من بذل مجهوده السامى فى طلب النصر فى سنة ١٩١٨ بقوة متفوقة .

الباب الثانى عشر

المسرح الشمالى الشرقى

فى الجبهة الشرقية كانت خطط الحملة أكثر تقلقلا منها فى الجبهة الغربية وأقل اتقانا ووضعا — وان كانت مناظرها متعددة الصور والأشكال يتحول فيها طالع الحرب من جانب الى جانب كما حصل فى الميدان الغربى والعامل الذى يمكن حسابه فيها هو العامل الجغرافى . أما العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه فهو معدل احتشاد القوات الروسية . ثم ان بولندا الروسية عبارة عن لسان من الأراضى متسع بارز من بلاد الروسيا الأصلية ومحاط من أجنابه الثلاثة بأراض ألمانية أو نمساوية . فعلى جانبه الشمالى تقع بروسيا الشرقية ووراءها بحر "البلطيك" وعلى جانبه الجنوبى يقع الاقليم النمساوى "غاليسيا" ووراءه جبال "الكربات" تحرس طرق الاقتراب (الموارد) الموصلة الى بلاد المجر . وعلى الجهة الغربية تقع "سليسيا" ولما كانت الأقاليم الجرمانية الواقعة على الحدود مجهزة بشبكة من السكك الحديدية الاستراتيجية ، فى حين أن بولندا مثل الروسيا ، لم يكن لديها الا القليل من وسائل المواصلات ، فان التحالف الجرمانى كانت له ميزة حيوية فى قوة الاحتشاد يقابل بها الزحف الروسى . ولكن اذا انتهج هذا التحالف خطة التعرض فانه كلما توغل فى بولندا أو فى الروسيا ضاعت منه هذه الميزة . ومن ثم فان التاريخ يستدل منه على أن أكثر الطرائق الاستراتيجية مغنما لهم هى استدراجهم للروس حتى يتقدموا الى موقع يتخذونه فيقابلونهم فيه بضربة مضادة بدلا من التزامهم هم خطة تعرضية على أن العيب الوحيد هنا هو أن مثل هذه استراتيجية التى لا وثوق بها تتيح للروس الوقت الكافى للاحتشاد ثم تسيير آلتهم الثقيلة المتعبة التى علاها الصدأ .

ومن ذلك نشأ تشعب فى الآراء بين الألمانيين والنمساويين . فهم متفقون فى مسألة صد الروسيين وتوقيفهم مدة الستة الأسابيع التى كان يأمل الألمان أن يسحقوا فيها فرنسا . وبعد أن يسحقوا فرنسا يحولون قواتهم وينقلونها الى الشرق لتنضم الى النمساويين وتشترك معهم فى القيام بضربة حاسمة ضد الروسيين . أما اختلاف الآراء فكان فى طريقة التنفيذ . فالألمانيون كانوا قد عقدوا النية على الحصول على حسم ضد فرنسا وأرادوا أن يتركوا فى الشرق أصغر قوة مستطاعة . ولم يمنعهم من اخلاء بروسيا الشرقية ووقوفهم على خط نهر "الفستولا" ألا بغضهم لسياسة تعريض اراضى الوطن للغزو . أما النمساويون فكانوا تحت تأثير "كونرادفون هو يتسندورف" رئيس هيئة أركان الحرب العامة ، يريدون أن يخربوا الآلة الروسية بانتهاج

خطة التعرض فورا . ولما كان ذلك يشغل الروسيين و يلهيهم مدة الحصول على الحسم فى حملة فرنسا رضى " مولتكه " بهذه الاستراتيجية . أما خطة " كونراد " فكانت تنطوى على القيام بحركات تعرضية نحو الشمال — الشرق فى بولندا بجيشين اثنين يحميهما جيشان آخران على يمينهما وشرقيهما .

وكذلك لدى الفريق الآخر كانت رغبة احدى الحليفتين ذات تأثير حيوى على استراتيجية الأخرى . أما القيادة الروسية فلأسباب عسكرية وأخرى جنسية (خاصة بأجناس الأقوام) كانت ترغب أن تحشد قوتها ضد النمسا أولا ، حينما تكون النمسا منفردة لا يعضدها أحد ، وتترك ألمانيا وشأنها الآن الى أن تتم تعبئة قوة الجيش الروسى بأكملها . غير أن الفرنساويين رغبة منهم فى تخفيف الضغط الألمانى عن أنفسهم ، ألحوا على الروس أن يقوموا فى نفس الوقت بهجوم على ألمانيا ، وأرضوا الروس لأن يقوموا بتعرض اضافى ليسوا على استعداد له لا من حيث عدد الجنود المطلوبة ولا من حيث تنظيمها . ففى الجبهة الجنوبية الغربية كان عليهم أن يرسلوا زوجين من الجيوش كل زوج منهما يحتوى على جيشين تتلاقى كلها على القوات النمساوية فى غاليسيا . وفى الجبهة الشمالية — الغربية كان عليهم أن يرسلوا جيشين ليلتقيا معا و يطبقا على القوات الألمانية فى بروسيا الشرقية . فالروسيا التى كان بطؤها وسخافة تنظيمها اللذان هما مضرب الأمثال يقضيان عليها بانتهاج استراتيجية قائمة على الحذر والحيطة ، كانت على وشك العدول عن تقاليدها والاندفاع فى اقتراب مباشر مزدوج . ولما نشبت الحرب أسرع الغراندوق "نيقولاس" ، القائد العام الروسى ، بغزو بروسيا الشرقية تخفيفا للضغط عن حلفائه الفرنسيين . وفى ١٧ أغسطس اجتاز جيش "رننكامف" (المؤلف من ست فرق ونصف فرقة وخمس فرق من الفرسان) الحدود الشرقية لبروسيا الشرقية . وفى يومى ١٩ و ٢٠ أغسطس التق بالقسم الأعظم من الجيش الثامن الألمانى (سبع فرق وفرقة من الفرسان) تحت قيادة "بريتس" فى "جومبينن" وصده الى الوراء . وفى ٢١ أغسطس سمع "بريتس" أن جيش "سمسونوف" (١٠ فرق و ٣ فرق من الفرسان) قد عبر الحدود الجنوبية لبروسيا الشرقية على مؤخرته التى كان يحرسها جند لا يزيد على ثلاث فرق . فوقع فى ارتباك جعله يتكلم فى ذلك الحين عن التقهقر الى ماوراء نهر " الفستولا " وتسبب عن ذلك أن استبدله " مولتكه " بقائد متقاعد هو الجنرال "هندنبورج" ومعه "لودندورف" كرئيس لهيئة أركان الحرب .

فقام "لودندورف" بالبناء والتوسع فى خطة كان وضعها الكولونيل " هوفمان " من أركان حرب الجيش الثامن و بدأها بالتحركات اللازمة . وحشد نحو ست فرق أمام جناح "سمسونوف" الأيسر . ولما كانت هذه القوة أقل من قوة الروسيين فما كان ممكنا أن تكون حاسمة . غير أن "لودندورف" لما رأى أن "رننكامف" مازال قريبا من "جومبينن" جازف مجازفة حسب حسابها وسحب بقية الجنود الألمانية الموجودة فى تلك الجبهة ولم يبق بها سوى ستار من الفرسان ،

ودفع أولئك الجنود بسرعة لتقابل جناح "سمسونوف" الأيمن . وساعد هذه الحركة الجريئة انعدام المواصلات بين القائدين الروسيين ، والسهولة التي كان الألمان يفكون بها ألغاز الاصطلاحات الروسية اللاسلكية فى أوامرهم ، وفهمها . وكانت النتيجة أن سحقت أجنحة "سمسونوف" تحت الضربات التي انصبت عليها من جهات مختلفة ، وأحيط قلبه (أى منتصف جيشه) وأبيد جيشه فعلا . واذا كانت هذه الفرصة عرضت من تلقاء نفسها ولم يسع أحد لايجادها فان هذه الحملة القصيرة الأجل ، وهى حملة "تاننبرج" يجب أن تعتبر مثالا من صورة الاقتراب غير المباشر المعروف باسم «الخطوط الداخلية» ، بالغا حد الكمال . وبعد ذلك جاء للقائد الألمانى فيلقان جديدان من الجبهة الفرنساوية فاتجه نحو "رننكامف" الذى كان بطيئا فى حركته . وكان عدم نشاطه يرجع بعضه الى الخسائر التي تكبدها فى "جومبينن" وما أعقبها من قلة المعلومات . فطرده من بروسيا الشرقية . وقد خسرت الروسيا ربع مليون من الجنود فى هذه المعارك . ومقدارا كبيرا من المواد الحربية التي لا تستغنى عنها . غير أن غزو بروسيا الشرقية كان له أثر فى مساعدة الفرنسيين على «الرجوع الى "المارن"» بسبب ارسال فيلقين من الغرب .

ولكن تأثير "تاننبرج" نقص بسبب ماحصل فى جبهة "غاليسيا" اذ شالت فيها كفة دول الوسط . ثم ان الحركات التعرضية التي قام بها الجيشان النمساويان الأول والرابع فى "بولندا" صادفت تقدما فى بادئ الأمر ولكن ذلك التقدم زال أثره عند ما اندفع الجيشان الروسيان الثالث والثامن هاجمين على الجيشين النمساويين الثانى والثالث اللذين كانا يحرسان الجناح النمساوى الأيمن وهما أضعف من الجيشين الروسيين . فهذين الجيشين صادفا هزيمة شديدة (فى ٢٦ — ٣٠ أغسطس) ورجعا مطرودين من خلال "لمبرج" . وعلى ذلك صار زحف الجناح الأيسر الروسى مهددا لمؤخرة الجناح الأيسر النمساوى المنتصر . وقد حاول "كونراد" أيضا أن يدور قسما من ميسرته ويأتى به مقابل الجناح الروسى . ولكن هذه الضربة اتقيت . وعلى أثر ذلك فاجأه الجناح الأيمن الروسى بزحفه المتجدد فى حين كانت قواته فقدت نظامها الى أن اضطر لأن يخلص نفسه فى ١١ سبتمبر بتقهقر عام ورجع متقهقرا حتى "كراكاو" بوجه التقريب فى آخر سبتمبر . والمأزق الذى تواجدت فيه النمسا اضطر الألمان لأن يمدوها . فشكلوا جيشا جديدا هو الجيش التاسع من سواد الجنود الموجودة ببروسيا الشرقية . وهذا الجيش تحول متجها جنوبا نحو الركن الجنوبى الغربى من "بولندا" ، ومن هناك زحف على "وارسو" (فرسوفيا) بالاشتراك مع النمساويين الذين جددوا حركاتهم التعرضية . على أن الروسيين كانوا اذ ذاك قد أوشكوا أن يبلغوا أقصى درجات قوة تعبئتهم . ثم أعادوا ادماج قواتهم الى مجموعات وقاموا بهجوم مضاد فصدوا الزحف وأرجعوه وأعقبوا ذلك بمجهود قوى وجهوه الى غزو "سليسيا" .

فشكل "الغرندوق نيقولاس" جحفلا لجبا مؤلفا من سبعة جيوش — ثلاثة منها فى المقدمة واثنان لوقاية كل جناح من الجناحين . وكان جيش آخر، هو الجيش العاشر، قد غزا الركن الشرقى من بروسيا الشرقية واشتبك فى القتال مع القوات الألمانية الضعيفة التى كانت هناك . فلمقابلة هذا الخطر وضعت الجبهة الألمانية الشرقية تحت ادارة الهيئة المكونة من "هندنبورج" — "لودندورف" — "هوفمان" التى ابتكرت ضربة — مقابلة أخرى تشف عن الدراية والمقدرة وكانت قاعدتها مجموعة السكك الحديدية الجانبية الموجودة داخل الحدود الألمانية . وتقهقر الجيش التاسع أمام زحف الروسيين وأخذ يعرقل سيرهم و يؤخره باتلاف كل ما كان موجودا من وسائل المواصلات الحقيرة فى بولندا اتلافا منظما . ولما وصل الى حدود "سليسيا" دون أن يقع عليه ضغط تحول فى بادئ الأمر نحو الشمال الى ساحة "پوزن" — "ثورن" . ثم اندفع الى الجنوب الشرقى فى ١١ نوفمبر، صاعدا نهر "الفستولا" على شاطئه الغربى متجها نحو نقطة اتصال الجيشين الروسيين المكلفين بحراسة جناحهم الأيمن . فكان بمثابة السفين الذى يطرق بمطرقة ودخل بينهما ففصل أحدهما عن الآخر وأرغم الأول على التقهقر الى "وارسو" (فرسوفيا) . وفعل بالثانى مثل ماحصل فى "تاننبرج" بوجه التقريب اذ كاد يحصره تماما فى "لودز" . وعندها رجع الجيش الخامس من المقدمة ليخلصه . وكانت النتيجة ان أصاب قسما من القوة الألمانية المحيطة ما كان مقدرا فى الخطة الألمانية أن يصيب الروس ولكنه تمكن من شق طريق له وعاد الى القوة الرئيسية . فاذا كان الألمان قد خاب أملهم فى الحصول على فوز تكتيكى حاسم . فان هذه المناورة كانت مثالا فنيا جديرا بالدراسة . اذ يبين كيف ان قوة صغيرة نسبيا تستطيع أن تشل زحف جيش يفوقها عددا أضعافا مضاعفة ، باستخدام خفة الحركة لاقتراب غير مباشر الى نقطة حيوية . فان الآلة « الكابسة — البخارية » الروسية قد أصابها العطب ، ولم تعد لتهديد الأراضى الألمانية مرة أخرى .

ففى ظرف أسبوع واحد وصلت أربعة فيالق ألمانية جديدة من الجبهة الغربية حيث كان الهجوم على "ايپر" قد انتهى بالفشل . ومع أنها وصلت بعد فوات الفرصة التى سنحت للحصول على نصر حاسم فان "لودندورف" استطاع أن يستخدمها فى الضغط على الروسيين وارجاعهم الى خط نهر "بزورا — رافكا" أمام "وارسو" . وهناك استقرت حالة الخنادق فى الشرق كما كانت فى الغرب . ولكنها كانت أقل ثباتا مما فى الغرب وكان الروس قد استنزفوا كل مالديهم من الذخيرة لدرجة عجزت مصانعهم السقيمة عن الاستعاضة عنها بغيرها .

وقصة ماوقع فى الجبهة الشرقية على وجه التحقيق تتلخص فيما نشأ من النزاع بين ارادتى "لودندورف" الذى أراد الوصول الى الحسم باستراتيجية كانت عبارة عن اقتراب غير مباشر من الوجهة الجغرافية على أقل تقدير، "وفالكنهاين" الذى كان يرى أن فى امكانه أن يقتصد فى بذل قوته من جهة . وأن يشوه قوة روسيا التعرضية و يعجزها من جهة أخرى باستراتيجية

تنطوى على اقتراب مباشر . ولما كان "فالكنهاين" فى منصب أسمى من "لودندورف" فانه فاز بتنفيذ ارادته ولكن استراتيجيته لم تنجح فى احراز أى غرض من غرضيه . وقد رأى "لودندورف" أن زحف الروس فى فصل الخريف نحو "سليسيا" و "كراكاو" قد أوقع جيشهم فى مأزق زاوية "بولندا" الخارجة بدرجة كبيرة . حتى انهم فى الركن الجنوبى — الغربى أطلوا برؤسهم من هذه الشبكة الى داخل الأراضى النمساوية . وفى ذلك الحين نزلت بهم ضربة "لودندورف" فى "لودز" فأصابت جيشهم بالشلل . وفى أثناء المدة التى استعادوا فيها احساسهم وقوتهم كانت أطراف الشبكة المحيطة بهم قد أعيد حبكها وتقويتها . فمن يناير الى أبريل بقى الجسم الروسى يتلوى بشدة وعنف على سفح جبال "الكربات" على غير طائل . بل ان مجهوداته لم تزده الا تغلغلا فى حبائل الشبكة . وأراد "هندنبورج" و "لودندورف" و "هوفمان" أن ينتهزوا هذه الفرصة للقيام بحركة اقتراب غير مباشر واسعة النطاق بالالتفاف حول الجناح الشمالى قريبا من بحر "البلطيك" من خلال "كوفنو" و "فلنا" نحو مؤخرة الروسيين بالتعارض على مواصلاتهم الحديدية القليلة مع زاوية بولندا الخارجة .

غيرأن "فالكنهاين" امتنع لسببين : أولا لجرأة هذه الحركة ، وثانيا بسبب ماتتطلبه من بذل جنوده الاحتياطية مع أنه اضطر الى بذل أكثر من ذلك فى طريقته التى اتبعها . فانه لما امتنع ، بعد الالحاح ، عن محاولة القيام بحركة جديدة يحطم بها حاجز الخنادق فى الغرب ، ولما كان مضطرا لأن يمد حلفاءه النمساويين بجنود احتياطية فانه صمم على استخدام هذه الجنود بدرجة محدودة استراتيجيا وان كانت غير محدودة تكتيكيا فى محاولة تعجيز الروسيا حتى يتسنى له أن يرجع لتجديد حركاته التعرضية فى الغرب دون أن يزعجه شىء .

والخطة التى وضعت للشرق التى اقترحها "كونراد" واتبعها "فالكنهاين" كانت عبارة عن اختراق القلب الروسى فى قطاع "دوناجك" بين جبال "الكربات" ونهر "الفستولا" . وفى ٢ مايو نزلت الضربة . فكانت المفاجأة تامة ، وكان استغلالها سريعا . فلم يحل يوم ١٤ مايو حتى كان كل الخط القائم على طول جبال الكربات قد انطوى وارتد الى الوراء ٨٠ ميلا الى نهر "السان" . وهنا نشاهد مثالا واضحا منيرا للأذهان عن الفرق بين مايسمى عادة بالمفاجأة وبين الاقتراب غير المباشر . فان المفاجأة قد حصلت من حيث الزمان ، والمكان ، والقوة . ولكن الروسيين لم يصبهم أكثر من أنهم تدحرجوا الى الوراء كما تتدحرج كرة من الثلج . واذا كانوا خسروا خسائر فادحة فانهم ارتدوا نحو جنودهم الاحتياطية ومؤنهم وسككهم الحديدية وبذلك وطدوا كرة الثلج وضافوا اليها زيادات حلت محل ما فقد منها . وفضلا عن ذلك فان ضغط هذا الاقتراب المباشر وان كانت شدته قد بلغت درجة الخطر على القيادة الروسية الا أنها لم تكن صدمة مزحزحة .

وهناك ادرك " فالكنهاين " أنه قد ورط نفسه الى حد التوغل فى " غاليسيا " لدرجة لا يصح معها الانسحاب ، وأن تعرضه الجزئى لم يوصله الى مكان يأمن الوقوف فيه ، وأن لا أمل له فى تنفيذ غرضه الذى يرمى اليه وهو نقل الجنود الى فرنسا الا بعد أن يأتى بجنود من فرنسا أكثر مما لديه . ولكنه بالرغم من ذلك اختار مرة أخرى اقترابا يكاد يكون مباشرا . ذلك أنه غير اتجاه الحركات التعرضية ونقله من اتجاه شرقى الى اتجاه شمالى — شرقى ، وأمر " لودندورف " — الذى كان ينتظر على مضض فى بروسيا الشرقية — بأن يساهم فى هذه الحركات بأن يضرب نحو الجنوب — الشرق . فاعترض " لودندورف " على ذلك بقوله ان هذه الخطة وان كانت تنطوى على الاطباق على العدو الا أنها هجوم جبهى بدرجة متجاوزة الحد . فان الجناحين قد يضغطان على الروس ولكنهما لا يستطيعان أكثر من ذلك . ثم ألح مرة أخرى فى تنفيذ مناورته عن طريق " فلنا " ولكن " فالكنهاين " رفضها مرة أخرى . وقد أثبتت النتيجة صدق نظر " لودندورف " . فان شق مقص " فالكنهاين " حين انطباقهما لم يحدثا أكثر من دفع الروس الى الوراء وخروجهم من المسافة الواقعة بينهما . وفى آخر سبتمبر كانوا قد ارتدوا واتخذوا خطا طويلا مستقيما بين " ريجا " على بحر " البلطيك " " وشيرنوفتس " على حدود رومانيا . ثم انهم وان كانوا قد صاروا لا يهددون ألمانيا مباشرة بعد ذلك مطلقا الا أنهم كلفوها مشقة ومجهودا لا يعوض اذ اضطروها الى ابقاء قوات ألمانية كبيرة أمامهم كما أنهم أبطلوا عمل النمسا أدبيا وماديا .

ولما فرغ " فالكنهاين " من العمليات الواسعة النطاق وتجاوز عنها ، صرح أخيرا " للودندورف " تصريحا فى شىء من التردد لأن يحاول القيام بمناورته عن طريق " فلنا " ، بعد أن فات أوانها ، بما لديه من الوسائل الضعيفة . ثم جاء ما وقع فعلا من أن هذه الهجمة الخفيفة المنفردة قد قطعت السكة الحديدية الموصلة من " فلنا " الى " دفينسك " وكادت أن تصل الى سكة " منسك " الحديدية التى هى الخط المركزى لمواصلات الروسيين بالرغم من أن الروسيين كانت لديهم حرية حشد كل جنودهم الاحتياطية لمقاومتها . جاء ذلك دليلا ضمنيا على ما كان ممكنا حصوله لو أنها حصلت من قبل ، بقوة كبيرة حينما كان الجسم الروسى يتخبط فى الشرك الذى وقع فيه فى " بولندا " .

ثم ان دول الوسط بعد أن انتهت حركاتهم التعرضية فى الشرق ، وثبت دفاعهم فى الغرب ثباتا لا يتزعزع ، انتهزوا فرصة فصل الخريف لاتمام حملتهم فى بلاد " الصرب " . وهى الحملة التى كانت اقترابا غير مباشر له غاية محدودة ، بالنسبة للحرب بأجمعها ، ولكنها فى دائرتها الخاصة كانت ذات غاية حاسمة . ثم ان مجراها أيضا وان كان الموقف مساعدا له من الوجهتين الجغرافية والسياسية ، فانه يلقى شعاعا من النور على هذه الطريقة . أما الخطة فكانت مؤسسة على دخول " بلغارية " الحرب فى جانب دول الوسط . فان الغزو النمساوى الألمانى كان

متوقفا بما لقى من المقاومة ، عند ما تحرك البلغاريون غربا الى داخل بلاد الصرب . وحتى حينذاك بقيت مقاومة الصربيين ثابتة ، اذ كانت طبيعة البلاد الجبلية تعاونها الى أن دار الجناح الأيسر البلغارى ودخل القسم الجنوبى من بلاد الصرب بالتعارض على مؤخرتهم فاصلا بينهم وبين الامدادات الفرنسية — البريطانية التى كانت آتية من " سلانيك " . وعلى ذلك كان التدهور سريعا ولم يبق من الصربيين الا بقيـة ضئيلة نجت بنفسها أثناء التقهقر نحو الغرب فى منتصف فصل الشتاء مجتازة ألبانيا حتى وصلت ساحل الادرياتيك . فهذا الحشد السريع ضد الشريك الأصغر خلص النمسا من الخطر من هذه الناحية ، وأتاح لألمانيا حرية المواصلات الى أوربا الوسطى والسيطرة عليها .

أما عمليات سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ على الجبهة الروسية فانها لا تستدعى الا القليل من الشرح والتعليق اذ كانت فى جوهرها دفاعيـة فى الجانب النمساوى — الألمانى ، ومباشرة فى الجانب الروسى . أما مغزى العمليات الروسية فهو أنها لا تقتصر على اظهار عقم الاستراتيجية التى تعتمد على مجرد قوة الاندفاع فى اقتراب مباشر ، بل انها تظهر أيضا ارتداد التأثير الأدبى ورد فعله على متبعها . فانه حينما جاءت الثورة نذيرا للانهيار التام الذى سيصيب مجهود روسيا الحربى ، فى سنة ١٩١٧ ، كانت القوات الروسية احسن تسليحا وأكمل عُددا منها فى أى وقت مضى . غير أن الخسائر الجسيمة التى لم تر لها فائدة كانت قد نزعت ارادة القتال من قلوب أولئك الجنود الذين هم أكثر الجنود الأوربية صبرا وتضحية . وقد شوهد مثل ذلك التأثير أثناء التمرد الذى حصل فى الجيش الفرنسى على أثر الحركات التعرضية التى وقعت فى ربيع سنة ١٩١٧ فان معظم الثوران حصل حينما أمرت الجنود التى ملت المجازر بالعودة الى الخنادق . والعملية الروسية الوحيدة التى كان فيها شىء من الاقتراب غير المباشر فى مبدئها هى العملية التى قام بها "بروسيلوف" فى تعرضه بالقرب من " لوك" فى يونيه سنة ١٩١٥ وكانت كذلك لأن تلك الحركات التعرضية لم تكن بنية جدية . فانها ابتكرت لمجرد تشتيت أفكار العدو وانتهت قبل الأوان تلبية لنداء ايطاليا . فلم يسبقها استعداد أو حشد جنود فكان الزحف الذى حصل عرضا وعلى غير انتظار قـد أدى الى انهيار الدفاع الذى كان مستنيا لدرجة أن وقع فى الأسر ٢٠٠,٠٠٠ جندى فى ظرف ثلاثة أيام . ومن النادر أن يكون لمثل هذه الصدمة الفجائية من النواحى فى نتائجها الاستراتيجية مثل ما كان لها . فانها أوقفت هجوم النمسا على ايطاليا ، وأرغمت " فالكنهاين " على سحب جنود من الجبهة الغربية . وبذا ألجأته على أن يتنحى عن حملته التى قصد بها الانهاك حول " فردون " . ثم حفزت رومانيا على دخول الحرب ضد دول الوسط . وكان من جرائها سقوط " فالكنهاين " واستبداله " بهندنبورج " و " لودندورف " (أما " هوفمان " فانه بقى فى الشرق وكان غيابه خسارة على رفيقيه) . ولو أن دخول رومانيا الحرب كان الحجة التى اتخـذت لاستبداله الا أن السبب الحقيقى هو أن استراتيجيته المباشرة

فى سنة ١٩١٥ كانت ضيقة من حيث الغرض والاتجاه فمكنت الروس من « العودة » التى أكملت إفساد استراتيجيته سنة ١٩١٦ « أكملتها » فقط لأن ظل الفشل كان قد وقع على التصميم الذى وضع " لفردون " . وهو تصميم قام على المبادئ التى تولدت فى القرن التاسع عشر ، فكان أول غرض له هو أقوى جيش لدى الأعداء المتحالفين ، وأقوى نقطة من نقط موقع هذا الجيش .

غير أن حركات " بروسيلوف " التعرضية غير المباشرة وما كان لها من التأثير الجيد لم يستديما طويلا . فانها أدت بالقيادة الروسية ، بعد فوات الأوان ، أن تلق بكل ما لديها من القوى فى ذلك الاتجاه . ثم انها لم تكن سوى ما يقتضيه القانون الطبيعى للحرب من أن استمرار المجهود على طول خط المقاومة التى تزداد صلابة لا بد له من استخدام كل الجنود الاحتياطية الروسية دون حصول فائدة تعادل ذلك البذل . أما ما أصاب " بروسيلوف " من الخسائر فى آخر الأمر وعددها ١,٠٠٠,٠٠٠ فهو وان كان من الفداحة بمكان الا أنه كان فى الامكان الاستعاضة عنه بجنود تحل محل تلك الخسائر . ولكنها لما كشفت عن الافلاس العقلى وأظهرته أمام من تبقى من الجنود تسبب عنها افلاس قوة روسيا العسكرية من الوجهة الأدبية .

فاصرار روسيا على تركيز كل أفكارها على هذا المجهود مكن "هندنبورج" و"لودندورف" من القيام « بتغيير سريع آخر » هو اقتراب غير مباشر كالذى حصل ضد بلاد الصرب فى سنة ١٩١٥ وقد صار اقترابا استراتيجيا غير مباشر ، على الوجه الأصح ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى حكم الظروف . وقد كانت رومانيا الهدف المقصود . وكان لديها فى بادئ الأمر ٢٣ فرقة مجهزة بأسلحة وعدد بدرجة متوسطة ، يقابلها سبع فرق . وكانت تأمل أن ضغط " بروسيلوف " ، والبريطانيين الموجودين على نهر " السوم " ، وقوات الحلفاء التى كانت اذ ذاك فى سلانيك تحول دون تقوية هذه الفرق السبع . وكل ما يمكن أن يقال هو أن كل هذه القوات كان ضغطها مباشرا فلم يحل دون سحب جنود كافية لسحق رومانيا .

ولما كانت الأراضى الرومانية محصورة بين مقاطعة " ترانسلفانيا " و " بلغاريا " فقد كانت لها موانع طبيعية قوية على كل جنب من جنبيها هى جبال "الكربات" ونهر "الدنوب" ولكن موقعها كان يلائم استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وعلاوة على ذلك فان مقاطعة " دوبروجا " التى هى «نتاؤها الخلفى» وهى شقة مستطيلة على الجانب الآخر من نهر الدنوب بالقرب من البحر الأسود ، كانت طعما يستطيع خصم ماهر أن ينشب فيها صنارته .

ثم ان رغبتها وتصميمها على انتهاج خطة التعرض نحو الغرب داخل " ترانسلفانيا " جعلا العمل المضاد الذى قام به خصمها ، غير مباشر بدرجة أكثر مما كان فى نيته من الأصل ، وأكثر دهاء .

فابتدأ الزحف الرومانى فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ ، فى ثلاثة قولات رئيسية كل منها مؤلف من نحو أربع فرق تحركت فى اتجاه شمالى — غربى مجتازة ممرات جبال " الكربات " مقتربة نحو سهل بلاد المجر اقترابا مباشرا . ثم تركت ثلاث فرق لحراسة نهر الدنوب، وثلاث أخرى فى " دوبروجا " حيث وعد الروس بامدادها . غير أن زحف القوات الرومانية الى داخل " ترانسلفانيا " ، الذى كان بطيئا وملازما للحذر قد أعاقه العدو بتدميره كل الجسور (الكبارى) لا بمقاومته . فلم يهدد الفرق النمساوية الخمس الضعيفة التى كانت تستر الحدود ، الى أن جاءها مدد مؤلف من خمس فرق ألمانية وفرقتين نمساويتين . ولتنفيذ النصف الآخر من الخطة التى كان " فالكنهاين " قد وضعها قبل سقوطه وضعت أربع فرق بلغارية ومعها تقوية ألمانية ، وقطار نمساوى من معدات انشاء الجسور ، تحت تصرف " مكنزن " على ذمة غزو " دوبروجا " .

وبينما كانت القولات الرومانية تتحرك ببطء نحو الغرب داخل " ترانسلفانيا " ، اقتحم " مكنزن " رأس جسر " تورتوكايا " فى ٥ سبتمبر وأباد الثلاث الفرق الرومانية التى كانت حرسا على جبهة نهر " الدنوب " . وبعد أن أمن جناحه الواقع الى جهة الدنوب تحرك شرقا متوغلا فى " دوبروجا " ، وان كان مبتعدا عن " بخارست " — التى هى خط الانتظار الطبيعى . فجاءت هجمة أدبية تدل على الدهاء ، لأن تأثيرها الاستراتيجى (الأوتوماتيكى) ، الذى يحصل من تلقاء نفسه ، هو اجتذاب الجنود الاحتياطية الرومانية التى جُعلت لامداد الحركات التعرضية فى " ترانسلفانيا " التى فقدت ما كان لها من قوة الحفز .

وهنا قام " فالكنهاين " ، الذى تولى القيادة التنفيذية ، بحركات تعرضية مضادة ربما كانت متجاوزة الحد فى درجة اهتمامه بها وفى كونها مباشرة . لأنه وان كان قد أبدى مهارة فى حشد جنوده ضد القولين ، الجنوبى والوسطى ، واحدا بعد الآخر ، مستخدما لايقاف الآخرين من جنود العدو عددا من الجنود أقل من عددهم وان لم يكن أقل ما يلزم . اذ كانوا يكادون لا يحتاجون الى من يوقفهم . فان النتيجة كانت صد الرومانيين وارجاعهم ولكن لم يحل بينهم وبين الجبال . وهذا الحادث السيئ الطالع جعل كل الخطة الألمانية فى خطر . فان الرومانيين الذين كانت كل الممرات مازالت فى أيديهم استبسلوا وصدوا كل محاولة للنفوذ من الممرات وراءهم بالملاصقة . وقد فشل فى محاولته الأولى للنفوذ من مكان أبعد الى جهة الغرب . ولكنه عاد فجدد مجهوده مع النجاح ونفذ من الجبال قبل نزول ثلوج الشتاء. ثم لما دار نحو الغرب كان قد دخل رومانيا من بابها الأمامى وترتب على ذلك أن صار اقترابه مباشرا. فاضطر لأن يجتاز سلسلة من خطوط الأنهر . ولكن لحسن حظه أنه لما أوقف على طول نهر " الألط " تدخل " مكنزن " لأن " مكنزن " كان قد حول معظم قوته من "دوبروجا" مارا " بتورتوكايا " الى " سستوفو " حيث عبر نهر " الدنوب " قهرا فى ٢٣ نوفمبر .

ومما هو موضوع جدل ومناقشة هو ما اذا كان تركه موقعه القوى على مؤخرة رومانيا قصد تجمع الجيش الرئيسى ، بعد زحفه ، فى اتجاه " بخارست " هو أفضل استراتيجية مثمرة . نعم انها مكنت " فالكنهاين " من عبور نهر " الألط " ، ولكنها مكنت الرومانيين أيضا من استخدام موقعهم « القريب » الوسطى للقيام بانزال ضربة مضادة خطرة على جناح " مكنزن " كادت تحيط به من جميع الجهات . ولكن بمجرد ما زال الخطر فان الضغط المشترك من كل من " فالكنهاين " و " مكنزن " دفع الجيش الرومانى الى الوراء مجتازا " بخارست " ومنها انسحب الى خط " سيرث " — والبحر الأسود ، فاستولت القيادة الألمانية على القسم الأعظم من رومانيا بما فيها من غلال وزيوت . ولكنها لم تقطع على الجيش الرومانى رجعته أو تبيده فكان ذلك باعثا على توطيد قوته المعنوية والعقلية فى مقاومته للمرحلة الأخيرة من زحف العدو بدلا من انقاصهما . وفى فصل الصيف التالى قاوم مقاومة مجيدة أحبطت مساعى الألمان لطرده الى ماوراء نهر " البروت " ليكمل لهم احتلال رومانيا . فلم تخضع رومانيا الا فى ديسمبر سنة ١٩١٧ حينما وقعت روسيا البلشفية على شروط الهدنة مع ألمانيا واقتفت رومانيا أثرها بعد أن أصبحت منفصلة

الباب الثالث عشر

المسرح الجنوبى الشرقى — أى مسرح البحر الأبيض المتوسط

المسرح الايطالى — فى سنة ١٩١٧ كانت ايطاليا هى مكان المنظر التمثيلى ، والغرض الذى قصدته القيادة الألمانية، لتمثل لنفسها منه مستودعا أومخزنا لحاجاتها فى فصل الخريف. وهنا أيضا كان شكل الحدود الطبيعى مما يجعلها مطمحا لاقتراب غيرمباشرمن الوجهة الجغرافية ولكنها لم تمكن العدو من ذلك. أما هذا العدو فلم يبد أى ميل لمحاولة القيام باقتراب غيرمباشر من الوجهة النفسية . فان "فينيزيا" التى هى اقليم الحدود الايطالية عبارة عن زاوية خارجة متجهة نحو بلاد النمسا . ويقع على جانبها الشمالى كل من اقليمى " التيرول" و " الترنتينو" النمساويين . وعلى جانبها الجنوبى بحر الادرياتيك . وتتاخم الادرياتيك شقة من الأرض على جبهة نهر "الايزونزو" واطية نسبيا . على أن الحدود فى تلك البقعة تمشى مع جبال الألب " الجوليانية " و"الكارنيكية"ملتفة لفة واسعة ثم الشمال الغربى ويستمر قوسها فى سيره نحو الجنوب الغربى حتى يصل الى بحيرة "جاردا" . ثم ان اتساع كتلة جبال الألب اتساعا عظيما من جهة الشمال وعدم وجود أغراض حيوية فى تلك الجهة لم يشجعا ايطاليا على القيام بحركات تعرضية فى ذلك الاتجاه. ولهذه الأسباب كان لا منفذ لحركاتها التعرضية الا بزحف مباشر الى جهة الشرق نحو بلاد النمسا . فكانت بطبيعة الحال عرضة لتهديد كبير دائم يأتيها من النمسا يتضمن هبوطها من مقاطعة "الترنتينو" على مؤخرة ايطاليا . ولكن لما لم يكن فى وسعها أن تختار طريقا آخر اتخذت هذا الطريق . فثابرت على الاقتراب المباشر لمدة سنتين ونصف سنة وحينذاك كانت "المعركة الحادية عشر" من معارك "الايزونزو" قد انتهت على غير طائل . فان الجيوش الايطالية لم تكد تزحف الى أبعد من النقطة التى بدأ منها الزحف حتى بلغت خسائرها ١,١٠٠,٠٠٠ جندى فى حين كانت خسائر النمساويين تبلغ نحو ٦٥٠,٠٠٠ وفى كل تلك الأثناء كانت النمسا انتهجت خطة التعرض مرة واحدة . وتلك كانت فى سنة ١٩١٦ حينما أراد "كونراد" أن يحصل على معاونة "فالكنهاين" فى قهر ايطاليا والتغلب عليها بهجوم من "الترنتينو" نحو الجنوب يوجه الى مؤخرة الجيوش الايطالية التى كانت اذ ذاك تقاتل على نهر "الايزونزو" غير أن "فالكنهاين" لعدم وثوقه من خطة الضربات "الحاسمة" ولاصراره على التمادى فى عملية الانهاك فى "فردون" رفض ذلك حتى انه أبى أن يعير "كونراد" الحد الأدنى من مطالبه وهو تسع فرق ألمانية لتحل محل الفرق النمساوية الموجودة بالجبهة الشرقية. ولما لم ينل "كونراد" هذه المساعدة صمم على أن يقوم بهذه المحاولة وحده فأخذ بضعا من خيرة فرقه من الشرق وعرض تلك الجبهة لزحف "بروسيلوف" الذى حصل على أثر ذلك ، دون أن تتواجد لديه القوة الكافية لتنفيذ خطته الايطالية . ومع كل فقد كاد هذا الهجوم أن يكلل بالفوز .

واذا كان لا يمكن القول بأن هذا الهجوم كان على غير خط الانتظار الطبيعى، الا أنه كان على شيء من عدم التوقع لأن القيادة الايطالية ما كانت تعتقد أن "كونراد" عنده من القوة والتسهيلات ما يمكنه من القيام بهجوم واسع النطاق. وفى الحق كان هجوما واسع النطاق ولكنه ليس بالاتساع الكافى . فلما اندفع الهجوم أحرز فوزا سريعا فى أيامه الأولى . ومع أن "كادورنا" تمكن من سحب جنوده الاحتياطية ، فى الوقت الملائم ، من جبهة "الايزونزو" علاوة على كونه قد استعد لنقل مهماته ولوازمه، ومدفعيته الثقيلة من تلك الجهة — فان المسألة كانت مسألة مسابقة تساوى فيها الطرفان . أما الهجوم النمساوى فكان على وشك النفوذ الى السهل ولكنه نظرا لعدم وجود جنود احتياطية ضاعت قوته الطاردة . وفى ذلك الحين وقع زحف "بروسيلوف" على الجبهة الشرقية فأوقف هذا الهجوم . ولما عنت "للودندورف" بعد ذلك بسبعة عشر شهرا فكرة انزال ضربة مشتركة بايطاليا نظرا لما بلغته حالة النمسا من الشدة كان الأمل فى النجاح أقل مما كان فى ذلك الهجوم. لأنه لم يمكنه الاستغناء الا عن احتياطيه العام الضئيل البالغ قدره ست فرق، وكان حليفه فى أشد حالات التعب والاعياء أدبيا وماديا. ونظرا لقلة الوسائل الموجودة كانت الخطة أضيق من السابقة وأكثر منها اقترابا مباشرا — وهى عبارة عن هجوم على الركن الشمالى — الشرقى من جبهة "الايزونزو" عند منعرجها نحو كتلة جبال الألب. على أن اختيار القطاع الموجه اليه الهجوم وقع بناء على مبدأ كان حديثا فى هذه الجبهة — اذ كان على خط أقل مقاومة تكتيكية. وكانت الخطة فى الأصل ترمى الى النفوذ من نقطة "كابارتيو" ثم ازاحة جبهة "الايزونزو" وطيها لا شيء غير ذلك. ولكنها اتسعت أخيرا فى مراميها دون أن تزداد الوسائل. فان مثل "لودندورف" فى "كاباريتو" ، كمثل البريطانيين فى "كمبراى" فى ذلك الخريف ، كان وضع مثال لذلك الخطأ الاستراتيجى الجسيم وهو عدم "قطع القماش على قدر الثوب" . لأنه كان على نقيض "فالكنهاين" الى حد التطرف . فهذا كان يقطع قماشه دائما أقل مما يحتاجه ثوبه ، مقدرا مقاس الثوب دون الحقيقة . وبعد أن يدرك خطأه يطلب زيادة من القماش ليكبر بها الثوب — فيرقعه رقعا لا تفى بالغرض .

ففى يوم ٢٤ أكتوبر اندفع الهجوم الذى كان يشف عن مهارة فى اعداده واخفائه ونفذ متوغلا بين جيش "الايزونزو" الايطاليين . وبعد أسبوع من ذلك التاريخ وصل الى نهر "الطليامنتو" ، ولكن بعد أن تمكن الايطاليون من اخراج أنفسهم من هذا المأزق وخلصوا قواتهم التى انفصل بعضها عن بعض ، ولو بفقد قسم كبير منها . أصبح استمرار الزحف اقترابا مباشرا صرفا ، نحو الغرب ضاغطا الايطاليين الى الوراء حتى وصلوا الى نهر "البياقة" وهو حاجز قوى يلجأون وراءه . وبعد فوات الأوان فكر "لودندورف" فى تحويل جنود احتياطية الى "الترنتينو" ولكن قلة المواصلات الحديدية حالت دون ذلك . وقد حاول جيش "الترنتينو"

عمل ما فى امكانه بوسائله الضئيلة ولكن على غير طائل . فان حركته قد زالت عنهـا صبغة الهجوم الحقيق الموجه الى المؤخرة . لأن كل الجبهة الايطالية والجنود الاحتياطية قد رجعت الى الوراء حتى كادت تصل الى "الترنتينو" .

فقد زالت المفاجأة الأصلية وصار الهجوم التمساوى — الألمـانى الآن عبارة عن اطباق على العدو مباشرة من جهات مختلفة كل ما فيه انه أرجع الايطاليين نحو جنودهم الاحتياطية ، ومؤنهم وأراضيهم ، وامدادات حلفائهم . فكانت له النتيجة السلبية التى لا مفر منها . على أن النجاح الذى أحرزه بهذه الوسائل الضئيلة يجعل التفكير فى أمر عدم اصغاء "فالكنهاين" الى خطة "كونراد" فى أوائل سـنة ١٩١٦ ، تلك الخطـة التى كان أمل النجاح فيها أكثر ضربا من النقد السخرى .

مسرح البلقان — قبل أن نعود الى النظر فى خطة "فالكنهاين" لسنة ١٩١٨ ، من الضرورى تصفح بيان الأعمال التى قام بها أعداؤه أو حاولوا القيام بهـا فى بحر الثلاث السنين المـاضية خارج حدود الجبهتين الفرنسية والروسية .

فبينما كان كل من مركزى الرياسة الفرنسية والبريطانيـة فى فرنسا ثابت الاعتقاد واثقا كل الوثوق من قوة الاقتراب المباشر ومقدرته ليس فقط على اختراق حاجز الخنادق والنفوذ منه . بل على احراز نصر حاسم ، كانت بعض الدوائر التى كانت إما بعيدة عن جبهة الخنادق وإما قريبـة منها يخالجها شك عظيم فى ذلك منذ شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ وأصحاب هـذه الفكرة الذين أتاح لهم البعد أن يصوروها أمام أنظارهم ليسوا كلهم من الزعماء السياسيين . فمنهم "ڤالينى" فى فرنسا ، و"كتشنر" فى انجلترا — وقد كتب فى ٧ يناير سنة ١٩١٥ مخاطبا السير "جون فرنش" يقول : "ان الخطوط الألمـانية فى فرنسا يصح اعتبارها بمثابة قلعة لا يستطاع الاستيلاء عليها بالاقتحام وايضا لا يمكن محاصرتها تماما . فالنتيجة هى أنه يصح مقابلة الخطوط بقوة تحيط بها بينما تأخذ العمليات مجراها فى مكان آخر" .

وقال بعضهم خصوصا المستر "تشرشل" ، ان حلف الأعداء يجب النظر اليه جملة ، وان التطور الحديث قد غير فكرة المسافة وفكرة قوة خفة الحركة والتنقل ، لدرجة أن الضربة التى تنزل بمسرح آخر من مسارح الحرب قد تعادل الهجوم "التاريخى" على الجناح الاستراتيجى للعدو . وهنا تصح الاشارة الى أن مثال نابليون ، وهو الذى كثيرا ما اتخذ حجة للثابرة على البقاء فى الجبهة الغربية يظهر منه أنه يؤيد هذه الفكرة الأخيرة . وفوق ذلك فانه من المسلم أن مثل هذه العملية تلائم الاستراتيجية البرية — البحرية التى هى استراتيجية بريطانيا التقليدية . وتمكن بريطانيا من استغلال المزية الحربية المتوفرة فى القوة البحرية التى أهملت حتى ذلك الحين . وفى أكتوبر سنة ١٩١٤ ألح اللورد "فيشر" فى اتباع خطة لانزال جنود على الساحل الألمـانى . وفى يناير

سنة ١٩١٥ أشار اللورد كتشنر بخطة أخرى لفصل خط مواصلات تركيا الرئيسى نحو الشرق بانزال جنود فى خليج اسكندرونه وقد أبانت ملاحظات كل من "هندنبورج" و "أنور" بعد الحرب كيف كان ذلك يصيب تركيا بالشلل لو أنه حصل . ولكنه ما كان يحدث تأثيرا أعظم على دول الوسط بجملتها ولا يكون اقترابا غير مباشر .

وقد أشار المستر "لويد جورج" بنقل سواد القوات البريطانية الى البلقان بصفتها طريقا موصلا الى "الباب الخلفى" للعدو . ولكن القيادتان الفرنسية والبريطانية لوثوقهما من الحصول على حسم سريع فى فرنسا عارضتا بشدة اتباع أية استراتيجية أخرى محتجين بصعوبة النقل واستيراد المؤن و بالسهولة التى تلاقيها ألمانيا على رأيهم ، فى تحويل جنودها لمقابلة هذا التهديد . واذا كان فى معارضتهما شيء من الحقيقة فان حماسهما أدى بهما الى الغلو والمبالغة . ثم ان معارضتهما كانت أكثر بعدا عن المناسبة فى تطبيقها على النموذج الخاص الذى رسمه "غاليني" لخطة البلقان فانه اقترح انزال جنود الى "سلانيك" كنقطة يبدأ منها السير الى استانبول بجيش قوى بدرجة تشجع بلاد اليونان و بلغاريا على الانضمام اليه . و بعد الاستيلاء على استانبول تزحف القوة صاعدة نهر الدنوب الى بلاد النمسا والمجر بالاشتراك مع الرومانيين . وهذه الخطة كانت فى أساسها مشابهة لما حصل فعلا فى أكتوبر سنة ١٩١٨ ففى شهر سبتمبر من تلك السنة نزع الرأى العسكرى الألمانى الى اعتبار أن مثل هذا الحادث لو حصل فانه "يكون حاسما" وفى أول أسبوع من نوفمبر كان التهديد . وهو ما يزال بعيدا ، عاملا هاما فى تعجيل ألمانيا بالتسليم .

ومع ذلك ففى سنة ١٩١٥ كانت أغلبية الرأى العسكرى تعارض كل الاقتراحات المغايرة لفكرة تركيز المجهود على الجبهة الغربية غير أن التشاؤم لم ينقطع ، وفى ذلك الحين نشأ موقف أعاد الى الحياة خطة الشرق القريب وان كانت فى صورة مصغرة .

ففى ٢ يناير سنة ١٩١٥ جاء اللورد "كتشنر" استصراخ من الغراندوق "نيقولاس" يطلب اليه القيام بحركة تخفيفية تحوّل أفكار الأتراك فيخف ضغطهم على قوات روسيا فى القوقاز . ولكن كتشنر أحس بعدم امكانه ايجاد الجنود اللازمة لذلك فاقترح القيام بمظاهرة بحرية أمام الدردنيل . وزاد "تشرتشل" أن اقترح أنه فى حالة عدم امكان تقديم معاونة عسكرية تستبدل المظاهرة البحرية بمحاولة اجتياز الدردنيل غصبا مراعيا فى ذلك النتائج الاستراتيجية والاقتصادية العظيمة . ولم يلق هذا المشروع معارضة من مستشاريه البحريين ، وان كانوا لم يتحمسوا له . وقام الأميرال الموجود بنفس المكان ، وهو "كاردن" بوضع خطة لذلك وأعدت قوة بحرية تألف معظمها من السفن العتيقة المهجورة ، بمساعدة فرنسا ، و بعد ضرب المدافع التمهيدى دخلت هذه القوة البوغاز فى ١٨ مارس . غير أن الألغام السابحة أغرقت عدة سفن فبطلت المحاولة .

ومما هو موضع جدل ومناقشة هو ما اذا كان استئناف الزحف مرة أخرى قبل فوات الأوان لا يؤدى الى النجاح، اذ أن ذخيرة الأتراك كانت قد نفدت، وان فى مثل هذه الظروف قد يمكن التغلب على مسألة الألغام. على ان القائد البحرى الجديد الأميرال "دوروبك" استقر رأيه على ألا يقوم بهذا العمل الا اذا وجدت مساعدة عسكرية. وكان مجلس الحرب قد صمم قبل ذلك بشهر على القيام بهجوم مشترك وشرع فى ارسال قوة عسكرية تحت قيادة السير "إيان هملتون". غير أن السلطات حينما اعتمدت على الخطة الجديدة تأخرت فى إخلاء الجنود اللازمة لها وحتى بعد ارسالها أقساما لا تفى بالمراد اضطرت لقضاء عدة أسابيع أخرى فى مطل — بالاسكندرية — لتوزيع القوة على السفن النقالة بصورة ملائمة للعمل التكتيكى، وأفظع من ذلك كله أن هذه السياسة المتسكعة قد أضاعت فرصة المفاجأة. فلما حصل الضرب (بالمدافع) التمهيدى فى فبراير كان لا يوجد بالبوغاز سوى فرقتين تركيتين، فأصبحت أربع فرق فى التاريخ الذى حصل فيه الهجوم البحرى، وصارت ست فرق عندما تمكن "هملتون" أخيرا من محاولة انزال الجنود الى البر. وفى هذه العملية كانت جنوده لاتزيد على أربع فرق بريطانية وفرقة فرنسية — وهى قوة أقل عددا من قوة العدو، فعلا، وفى موقف يتفوق فيه الدفاع على الهجوم بطبيعتهما، يضاف الى ذلك عامل آخر هو وعورة الأراضى الطبيعية. فاضطر بسبب ضعفه العددى وتحديد مهمته وهى معاونة الأسطول فى مروره، لأن يختار لنزول جنوده الى البر، شبه جزيرة "غاليبولى" مفضلا اياها على نقطة على البر الأصلى أو على الساحل الأسيوى.

وفى ٢٥ أبريل وثب وثبته على الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة بالقرب من رأس "هليس" وقريبا من "جبه تبه" أى نحو ١٥ ميلا صعدا على الشاطئ "الايجى". أما الفرنسيون فلكى يشتتوا أفكار العدو نزلوا الى البر موقتا فى "قوم قلعه" على الشاطئ الأسيوى. ولكن بمجرد ما ضاعت الميزة الوقتية وهى ميزة المباغتة التكتيكية، واستطاع الأتراك جلب جنودهم الاحتياطية، لم يتمكن الغزاة من توسيع موطئ أقدامهم الركيكين.

وأخيرا استقر رأى الحكومة البريطانية فى يوليه على ارسال خمس فرق أخرى لتقوية السبع الموجودة فى شبه الجزيرة. ولما وصلت كانت قوة الأتراك فى تلك الجهة قد ازدادت هى ايضا حتى صارت ١٥ فرقة. فصمم "هملتون" على انزال ضربة مزدوجة — ضربة معززة من جبه تبه وانزال جنود جديدة فى خليج (شرم) "سوفلا" على بعد بضعة أميال شمالا — ليفصل منتصف شبه الجزيرة ويستولى على المرتفعات الحاكمة على المضايق. وهذه الهجمة وان كانت تظهر انها مباشرة أكثر مما اذا كان انزال الجنود فى "بولاير" أو على الشاطئ الأسيوى، الا أن الذى يبررها دو أنها على خط لم تتوقعه قيادة العدو التى كانت جنودها الاحتياطية محتشدة فى النقط الأخرى. فلم يسد الطريق أمامها سوى أورطة ونصف أورطة

من الأتراك مدة ٣٦ ساعة قبل وصول الاحتياطى . وقد ضاع هذا الوقت وأفلتت تلك الفرصة بسبب عدم خبرة الجنود التى نزلت الى البر و جمود القادة الموجودين معهم . ثم جاء التوقف ، وخيبة الأمل ، ومعارضة الذين كانوا دائما ضد هذا المشروع فكانت سببا للاسراع بالجلاء عن شبه الجزيرة . والحكم الذى أصدره "فالكنهاين" فى خطة الدردنيل هو : "لو لم تقفل البواغيز بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود قفلا دائما أمام دول الائتلاف لنقص الأمل فى مجرى الحرب مع النجاح نقصا فى غاية الأهمية . فكانت الروسيا تتخلص من عزلتها ذات المغزى ، التى هى ضمان آمن من الفوز العسكرى ، فانه طال الزمن أو قصر لا بد من أن يأتى وقت تصبح فيه قوات هذا الجبار كسيحة مقعدة ، من تلقاء نفسها" فالخطأ ليس فى الفكرة بل هو فى تنفيذها . فلو أن البريطانيين استخدموا من بادئ الأمر حتى ولو مقدارا من الجنود بنسبة معتدلة لعدد الجنود التى بذلوها فى نهاية الأمر وهى تتوارد قسما قسما ، فان من البين من شهادة قادة العدو أن عملهم كان يكلل بالنجاح . وحركة الدردنيل وان كانت اقترابا مباشرا بالنسبة لتركيا . فانها كانت اقترابا غير مباشر بالنسبة لجيوش تركيا الرئيسية التى كانت اذ ذاك تقاتل فى القوقاز ، وفى المستوى الأعلى كانت اقترابا غير مباشر بالنسبة لدول الوسط بجملتها . و بالمقارنة بين فكرة الدردنيل ، والأمانى العقيمة المظلمة التى وضعت فى فرنسا وهى التى لم تلق عليها التجاريب التاريخية شعاع واحد من الأمل ، يظهر أن فكرة الدردنيل قد أوفت قانون التوفيق بين الغاية والوسائل حقه ، بقدر ما كان تنفذها مخالفا لهذا القانون .

مسرحا فلسطين والعراق — ان تجريدات الشرق الأوسط لاتكاد تدخل تحت نطاق هذه المطالعات . فهى من الوجهة الاستراتيجية كانت أكثر بعدا مما يجعل لها أى أمل فى أن تكون ذات تأثير حاسم ، من جهة ، و بصفتها حركات تخفيفية تحول أفكار العدو نحوها قد استدعت قوات من البريطانيين أعظم بكثير مما استوقفت من قوات العدو ، من جهة أخرى .

أما فى دائرة السياسة ففى الامكان وضع قضية . فان بريطانيا كانت دائما تتمتع بالرخاء الكثير بجرها المغانم من بلاد العدو (تلتقط البرقوق من بستان العدو) وليس ذلك فحسب ، بل انها كانت تمنع الخطر عن حلفائها وتستعيض عن خسائرهم بما تجره من تلك المغانم ، بينما يقوم النضال بين القوات الرئيسية للحلفاء والعدو فتنهك كل منهما قوى الأخرى بحثا وراء باب للخروج منه . وفى حالة انتهاء النضال الرئيسى الى نتيجة غير مرضية كانت تبقى لديها المغانم (البرقوق) لتساوم عليها . أما اذا جاءت النتيجة على ماتشتهى فكانت تأخذ ماغنمته و ينتهى الأمر . وعلى ذلك فهناك سبب ، على الأقل ، للبحث فيما اذا كانت هذه السياسة غير العسكرية لا تستحق أن تتطور حتى تصير نظرية من نظريات الاستراتيجية العظمى يسترشد بها البريطانيون .

على أن الاستراتيجية المحلية لتجريدة فلسطين جديرة بالدراسة . فهى فى بادئ الأمر كانت جامعة بين عيوب كل من الاقتراب المباشر والاقتراب غير المباشر . اذ اتبعت خط الانتظار الطبيعى الذى كان من جهة أخرى أطول وأشق طريق للدوران الى أية نقطة حيوية عند الدولة التركية . وبعد الفشل الذى صادفته للمرتين الأوليين فى "غزة" التى كانت تحرس طريق الاقتراب المباشر الساحلى من مصر الى فلسطين ، استخدمت فى شهرى مارس وأبريل سنة ١٩١٧ الجنود التى زاد عددها وكانت معدة لفصل الخريف ، فى محاولة أقل مباشرة من سابقتها . فالخطة التى رسمها "تشتوود" واتبعها "أللنبى" بعد حلوله محل "مرى" فى القيادة كانت فى الحقيقة غير مباشرة من الوجهة الجغرافية بحسب ما سمحت به موارد المياه وضيق الدرب بين البحر والصحراء . أما دفاعات الأتراك ومعاقلهم فكانت ممتدة الى مسافة نحو ٣٠ ميلا من "غزة" الى الداخل فى حين أن وراءها على مسافة عشرة أميال تقع "بيرشبا" التى هى النقطة الخارجية التى تحرس الحافة الشرقية للساحة التى يمكن الاقتراب منها . ثم ان التكتم والحيلة وجهتا انتباه الأتراك نحو "غزة" وبعدها حصل الاستيلاء على "بيرشبا" وما بها من المياه بالانقضاض على جانبها الذى لا حماية له بحركة سريعة فى نطاق واسع . والذى يلى ذلك فى الخطة ضربة موجهة الى جناح الموقع التركى الرئيسى يسبقها هجوم على غزة يقصد منه تحويل انتباه العدو اليها . بينما يقوم الفرسان من "بيرشبا" بحركة كاسحة تدور الى مؤخرة الأتراك غير أن صعوبات الحصول على المياه وضربة مضادة قام بها الأتراك شمالى "بيرشبا" عرقلتا هذه المناورة ومع أن جبهة الأتراك اخترقت لم تحصل نتائج حاسمة . ثم ان قوات الأتراك ارتدت ورجعت الى الوراء أخيرا حتى تجاوزت القدس ولكن رجعتها لم تقطع عليها كما كان فى النية .

فأرجئ الحسم ومحاولة الوصول اليه لمدة سنة — حتى سبتمبر سنة ١٩١٨ . وفى نفس الوقت قامت حملة حربية فى الصحراء غريبة فى بابها شرقا ، وجنوبا ، لم تقتصر على اضعاف قوة تركيا الحربية ، بل ألقت ضوءا جديدا على الاستراتيجية وخصوصا على الاقتراب غير المباشر هذه الحملة هى حملة ثورة العرب التى كان "لورنس" رأسها المرشد . فهى وان كانت من نوع حرب العصابات التى هى بطبيعتها اقتراب غير مباشر ، الا أن استراتيجيتها كانت قائمة على أساس حسابى علمى يجب علينا ألا نغفل تأثيره على الحروب العادية ، فمن المسلم أنها صورة متطرفة من الاقتراب غير المباشر ثم انها كانت ذات أثر فعال فى منتهى الاقتصاد فى حدود قوتها . فالعرب أخف حركة من الجيوش النظامية وأقل منها تحملا للخسائر . أما الأتراك فكانوا يكادون لا يبالون بما يصيبهم من الخسائر فى الرجال . أما خسائر المواد فكانوا يتأثرون لها — نظرا لقلتها عندهم . فهم من أخر الجنود متى استقروا فى خنادق يطلقون منها النار على هدف

متقدم اليهم ولكنهم لا يصلحون للعمليات الطيارة التي لاتثبت في مكان ولا يحملونها وكانوا يحاولون المحافظة على ساحة شاسعة من الأراضي في حين أن عددهم لا يكفي للانتشار عليها في نقط موضوعة على صورة شبكة . كما كانوا يعتمدون في مواصلاتهم على خط طويل وضعيف .

ولهذه الظروف تطورت استراتيجية على نقيض الأصول المرعية . فبينما الجيوش العادية تسعى للمحافظة على اتصال أجزائها بعضها ببعض ، الا اذا قادها نابليون مثلا ، كانت العربان تسعى لاجتناب الانضمام . وفي الحين الذي تسعى فيه الجيوش العادية لاتلاف القوات التي تناوئها يسعى العربان لاتلاف المواد لاغير ، ويسعون لذلك في النقط التي لاتوجد بها قوة . بل يذهبون الى أبعد من ذلك . فبدلا من أن يجتهدوا لأن يطردوا العدو بأن يحولوا بينه وبين مؤنه ، كانوا يرمون الى ابقائه حيث هو بأن يسمحوا بوصول قسم من مؤونته اليه حتى انه كلما طال أمد بقائه ازداد ضعفا وخارت عزيمته . فان الضربات قد تحضه على الاحتشاد تسهيلا لمسألتي مؤنه وسلامته . أما وخز الابر فيبقيه مشتتا . ومع ذلك فان هذه الاستراتيجية مع كل مافيها من الشذوذ لم تؤد الى غايتها المنطقية التي هي اتباع خط أقل درجات المقاومة . وكما قال مبتكرها "لم يسع الجيش العربي مطلقا لأن يحافظ على ميزة أو أن يزيدها . بل كان ينتقل وينزل ضربته مرة أخرى في مكان آخر . فكان يستخدم أقل قوة في أسرع وقت وأبعد مكان لأن استمراره في القتال حتى يغير العدو أوضاعه لكي يقاومه فيه اخلال بالقاعدة الأساسية التي هي حرمان العدو من هدف يصوب اليه ضرباته" .

اذن ماهذه الاستراتيجية ان لم تكن هي نفس الاستراتيجية التي تطورت في سنة ١٩١٨ على الجبهة الغربية ؟ انها هي ذاتها في جوهرها ولكنها تمادت الى درجة أبعد . أما تطبيقها على مسألة الحروب العادية فانه يتوقف على عوامل الزمن ، والمسافة ، والقوة . فبينما هي صورة من صور الحصر سريعة ونشيطة اذ هي بطبيعتها أبطأ في احداث تأثيرها من استراتيجية الحسم ومن ثم اذا كانت الظروف القومية تجعل الحسم أمرا لابد منه فالظاهر أن استراتيجية الحسم هي الأفضل . ولكن مالم يكن السعي وراء الغاية باقتراب غير مباشر فالمتوقع أن الأخيرة تكون أبطأ ، وأكثر كلفة ، وأشد خطرا من استراتيجية "لورنس" ثم ان ضيق المكان وغزارة القوة هما أيضا عائقان ، وان كان عدم التغلب عليهما من الأمور النادرة . فالقرار الصائب هو أنه في الحروب العادية تختار صورة الاقتراب غير المباشر الذي يرمي الى سرعة الحسم "بنصب شرك" للعدو ، متى قوى الأمل بنجاحه . وبخلاف ذلك ، أو بعد فشله ، فان الخيرة يجب أن تقع على صورة الاقتراب غير المباشر الذي يرمي الى الحصول على الحسم في آخر الأمر بتقويض قوة العدو وارادته . فان كل شيء أفضل من الاقتراب المباشر .

ولم تتح الفرصة لاكمال استراتيجية الثورة العربيــة الى نهايتها . ففى سبتمبر ســنة ١٩١٨ بعد أن أضعفت القوات التركية التى كانت على خط الحجاز حتى صيرتها فى حالة شلل يرثى لهــا غُلبت القوات التركية الرئيسية بفلسطين بضربة واحدة حاسمة . ومع ذلك ففى هذه الضربة التى أنزلهــا أللنبى لعبت القوات العربية دورا هو على الأقل جدير بالذكر .

أما فيما يختص بنوع العمليات الختامية فى فلسطين وهل هى حملة حربية ، أم معركة أتمها التعقب فذلك ما لا يمكن الحكم فيه . لأنهــا ابتدأت والقوى متماسة وتم النصر قبل أن ينفصم التماس . ولذا فالظاهر انهــا تقع فى فئــة المعارك . غير أن احراز النصر كان بوسائل استراتيجية بصفة رئيسية ، ولم يكن نصيب القتال فيها ممــا يستحق الذكر .

وقد أدى ذلك الى الحط من قيمــة النتيجة خصوصا بين الذين يقدرون القيمة بحسب عقيدة "كلاوزيفتز" أى ان الدم هو ثمن النصر . واذا كان "أللنبى" قد تفوق على خصمه فى الرجال بنسبة أكثر من اثنين الى واحد ، وأقل من ذلك فى المدافع . فان الفرق الذى كان فى جانبــه لم يكن بالدرجة التى كانت فى الأصل حينما بدأ الزحف البريطانى الى فلسطين وهو الذى انتهى الى الفشل . وكثيرا ما أخفقت الحركات التعرضية فى الحرب العالمية وقبلها وكان التفوق فى القوة فى جانبها مثل هذا التفوق .

وهناك "حط من القيمة" أكثر أهميــة من السالف . سببه أن قوة الأتراك المعنوية كانت قد انحطت . ولكن بعد مراعاة كل شىء فى ظروف شهر سبتمبر ســنة ١٩١٨ التى كانت توجب الرضاء ، فان هذه العمليات جديرة بأن تسطر بين الأعمال المجيدة التى سطرها التاريخ من حيث اتساع دائرة مرمى النظر ، والمعالجــة . واذا كان الموضوع فى حد ذاته ليس صعبا فان الصورة التى رسمت تكاد تكون وحيدة فى نوعها بصفتها ابتكارا بلغ حد الكمال ونفذ على أكمل وجه ولو فى جملته .

فقد جاءت الخطة مطابقة بدرجةعظيمة لتعريف "ويليسون" عن الاستراتيجية وهو أنها "دراسة المواصلات" وللقول المأثور عن نابليون وهو : "ان كل سر فن الحرب هو فى أن يجعل الانسان نفسه سيدا على المواصلات" لأنها (أى الخطة) كانت ترمى الى جعل البريطانى سيدا على كل المواصلات التركية فى كل صورها . فان قطع خطوط مواصلات الجيش معناه اصابة تنظيمه المــادى بالشلل ، وسد خط رجعتــه معناه اصابة تنظيمه المعنوى (الأدبى) بالشلل . وإتلاف خطوط "مواصلاته الداخلية" التى تمر منها الأوامر والأخبار (التقارير) معناه اصابة تنظيمه الحسى بالشلل ، وهو الاتصال الجوهرى بين المخ والجسم . وهذا الشق الثالث سعت له القوة الجوية وأحرزته . فقد طردت طيارات العدو من الجو فصيرت قيادته عمياء . ثم ألقت قنابلها على المركز الرئيسى لمخابراتها التلغرافية والتليفونية فصيرتها صمــاء

بكاء . وقد جاء الطور الثانى فى هذا القتال على أثر قطع العرب للسكة الحديدية الرئيسية فى "درعا" فكان لهذا القطع تأثير مادى هو منع تدفق المؤن التركية موقتا — والمنع الموقت كان كل مايهم فى ذلك الحين — وتأثير عقلى هو حض القيادة التركية على ارسال جزء من جنودها الاحتياطية الضئيلة الى هناك قبيل حرمانها من قوة السيطرة عليها .

فان ما يسمونه الثلاثة "الجيوش" التركية كانت تعتمد على شريان واحد للمواصلات هو خط حديدى مفرد من دمشق يفترق فى "درعا" فيمتد خط منه جنوبا الى الحجاز ويتجه الآخر غربا عبر نهر "الأردن" الى "الأفولة" وهناك يتشعب منه فرع نحو البحر فيصل الى حيفا وآخر نحو الجنوب مرة أخرى حتى رأس الخط الحديدى الخاص بالجيشين التركيين السابع والثامن . أما الجيش الرابع الموجود شرقى نهر "الأردن" فكان يعتمد على فرع الحجاز . والاستيلاء على "الأفولة" وعلى معبر "الأردن" فى "بيسان" يقطع مواصلات الجيشين السابع والثامن كما يسد خطى رجعتهما فيما عدا المنفذ الوعر المؤدى الى الجزء الخراب الواقع شرقى "الأردن" والاستيلاء على "درعا" يقطع مواصلات كل الثلاثة الجيوش ، وأحسن خط لرجعة الجيش الرابع .

أما "درعا" فكانت بعيدة عن متناول الجبهة البريطانية وكان ذلك فى وقت قصير لدرجة تجعل لقصره تأثيرا هاما على النتيجة . ولحسن الحظ ظهر العربان من جوف الصحراء كما تظهر الأشباح الخيالية واثبين على كل خطوطها الحديدية الثلاثة فقطعوها . غير ان لا طبيعة التكتيكات العربية ، ولا طبيعة البلاد ، ولا طبيعة "درعا" كانت مما يساعد على اقامة حاجز استراتيجى عبر مؤخرة الأتراك . وبما أن أللنبى كان يسعى للحصول على حسم سريع تام كان لابد له أن يبحث عن مكان أقرب لاقامة مثل هذا الحاجز . مكان يمكن الانتفاع فيه بنهر "الأردن" وسلسلة الجبال الواقعة غربيه للحيلولة دون خروج الأتراك منه . وكانت محطة اتصال السكة الحديدية الموجودة فى "الأفولة" وجسر (كوبرى) نهر "الأردن" الموجود بالقرب من "بيسان" كلاهما على مسافة نصف قطر دائرة طوله ٦٠ ميلا ، ومن ثم فى نطاق "وثبة" استراتيجية تقوم بها السيارات المدرعة والفرسان على شريطة الوصول الى هاتين النقطتين الحيويتين دون عائق . فكانت المسألة والحالة هذه هى ايجاد خط اقتراب يصعب على العدو اقامة العراقيل فيه فى الوقت الملائم . ثم التأكد من ذلك . فعلى أى صورة حلت هذه المسألة ؟ كان سهل "شارون" الساحلى المسطح بمثابة ردهة أمامية لسهل "ازدرالون" وادى "جزريل" حيث تقع كل من "الأفولة" "وبيسان" وهذه الردهة لا عائق فيها سوى باب واحد يقع بعيدا الى الوراء لدرجة أنه ترك من غير حراسة وهو مكون من المنطقة الجبلية الضيقة التى تفصل سهل "شارون" الساحلى من سهل "ازدرالون" الداخلى . غير أن المدخل الموصل الى الردهة الأمامية قد أغلقه الأتراك وأوصدوه بمتاريسهم .

وهنا ثابر "اللنبي" في "استعداداته النفسية" مدة طويلة مثابرة حلت فيها الحيلة والخدعة محل القنابل الى أن حول انتباه الأتراك عن الساحل الى جناح نهر "الأردن" والذى ساعده على ذلك هو اخفاق المحاولتين السابقتين للزحف شرقى "الأردن" فى فصل الربيع . وفى سبتمبر بينما كان انتباه الأتراك ما زال موجها نحو الشرق ، كانت جنود "اللنبى" تنتقل سرا نحو الغرب حتى ازدادت نسبة تفوقهم عددا على العدو فى القطاع القريب من الساحل من اثنين الى واحد الى أن صارت خمسة الى واحد . وفى ١٩ سبتمبر زحف المشاة بعد أن استمر ضرب المدافع بدرجة شديدة لمدة ربع ساعة واكتسحت متاريس الأتراك التى كانت على مجموعتين بسيطتين . ثم دارت دورة الى الداخل كما يدور باب مهول على مصلاته . واندفع الفرسان من الباب المفتوح موالين الضغط وساروا فى الردهة تتقدمهم سياراتهم المدرعة فاستولوا على الممرات الموصلة الى سهل "إزدرالون" . وهذا المرور الموفق مدين فى نجاحه بشىء كثير لما قامت به القوة الجوية من جعل قيادة العدو صماء ، بكماء ، عمياء . وفى اليوم التالى أقيم الحاجز الاستراتيجى عبر مؤخرة الأتراك . والمنفذ الوحيد الذى تبقى لهم هو نحو الشرق فوق نهر الأردن . وكان فى امكانهم الوصول اليه لولا القوة الجوية ، اذ أن زحف المشاة المباشر كان بطيئا أمام المقاومة العنيفة التى قامت بها مخافر الأتراك الخلفية . وفى الصباح المبكر من يوم ٢١ سبتمبر تعرفت الطيارات البريطانية على قول عظيم — هو فى الواقع جميع من بقوا على قيد الحياة من الجيشين التركيين — يسير فى ليات الوهد العميق الموصل من "نابلس" الى نهر "الأردن" . فهاجمته لمدة أربع ساعات صار بعدها هذا الموكب هامدا جامدا . ومن تلك اللحظة يصح القول بانعدام « الجيشين » السابع والثامن . أما ما حصل بعد ذلك فلم يزد عن مطاردة قطيع من الماشية .

وأما فى شرق "الأردن" حيث لا يستطاع اقامة حاجز استراتيجى فقد كان مصير « الجيش » الرابع الى الانهاك السريع تحت وخز الابر المستديم بدلا من الاجهاز عليه اجهازا بالمعنى الصحيح . وأعقب ذلك الاستيلاء على دمشق . وعندها استغل النصر بالزحف الى "حلب" وما كادت الجنود تصل اليها حتى سلمت تركيا مدفوعة بعامل التهديد القريب الواقع عليها بانهيار بلغاريا ، وباقتراب "ملن" من سلانيك الى استانبول ومؤخرتها .

والذى يلاحظه من يحلل هذا النصر الحاسم الذى أحرز فى فلسطين هو أن الأتراك كان مايزال فى طاقتهم أن يعوقوا مشاة البريطانيين و يوقفوهم الى أن علموا بالحاجز الاستراتيجى الذى أقيم على مؤخرتهم فأحدث ذلك التأثير الأدبى الذى لا بد منه ولا معدى عنه . ويلاحظ أيضا أنه بسبب وجود حالة حرب الخادق من بادئ الأمر كان لا بد من أن يقوم المشاة بتحطيم هذا الرتاج . ولكن بمجرد اعادة الحرب الى حالتها المعتادة أمكن احراز النصر بالعناصر الخفيفة

الحركة التى لم تكن الا جزءا من مجموع القوة . فالدهاء الذى اتصف به هذا المثال الخاص من الاقتراب غير المباشر كان قاصرا على التمهيد . أما تنفيذه فكان متوقفا على مجرد تطبيق خفة الحركة التى من شأنها أن تزحزح العدو وتدمر قوته المعنوية . ولما كانت هذه الخفة بدرجة متطرفة فقد جاءت مفاجئة من أول الأمر الى آخره .

وهناك مسرح آخر فى الجنوب الشرقى يحتاج الى ملاحظة عارضية — ذلك هو مسرح سلانيك . فان ارسال جنود الحلفاء اليه نشأ عن محاولة غير مثمرة تأخرت عن أوانها هى محاولة ارسال مدد الى بلاد الصرب فى خريف سنة ١٩١٥ و بعد ذلك بثلاثة أعوام كانت سلانيك منشأ حركات تعرضية كانت لها نتائج حيوية . غير أنه لما كان الاحتفاظ بموطئ قدم فى البلقان أمرا ضروريا فى كل هذه الفترة لأسباب سياسية ، وأخرى تستند الى استراتيجية فى دائرة الاحتمال ، فان الأمر الذى هو موضع الشك هو الحكمة فى حجز عدد كبير من الجنود كهذا العدد الذى بلغ أخيرا نصف مليون وضرورة ابقائه محجوزا كل هذه المدة فى مكان سماه الألمان من باب السخرية « أكبر معسكر للاعتقال » أى أكبر معتقل للجنود .

البـاب الرابع عشر

استراتيجية سنة ١٩١٨

تتوقف أية دراسة لمجرى الشؤون العسكرية فى السـنة النهائية على فهم الموقف البحرى السابق لهـا ، فكل منهما مرتبط بالآخر . لأنه لمـا لم يحصـل حسم عسـكرى مبكر ، أخذ الحصر البحرى يتحكم فى الموقف العسكرى تحكما صار يزداد على توالى الأيام .

وفى الواقع فان مؤرخ المستقبل اذا اضطر لأن يختار يوما ليعتبره اليوم الحاسم للحرب العالمية فمن المحتمل أنه يختار اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ — قبـل أن تبتدئ الحرب من ناحيـة انجلترا — حينما أرسل المستر" ونسـتون تشارتشل " أمره فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحا ، بتعبئة البحرية البريطانية . فهذه البحرية لم تكن لتربح معركة " طرافلجار " (الطرف الأغر) مرة ثانية ، ولكن كان مقدارا لهـا أن تعمل أكثر من أى عامل آخر لكسب الحرب لجانب الحلفـاء . لأن البحرية كانت آلة الحصر البحرى . وكلما زالت غيوم الحرب وانقشعت فى ضوء هـده السنين التى أعقبت الحرب وانكشفت غيومها كلما تبين أن الحصر البحرى كان له أثر أخذ يزداد شيئا فشيئا . ويتضح بجلاء أنه كان العامل الحاسم فى النضال . فمثله كمثل ذلك « القميص» الذى كانوا يستعملونه فى سجون أمريكا لتأديب شرسى الأخلاق من المسـجونين اذ كان يزداد ضيقه تدريجيا فيبدأ بالتضييق على حركات السجين ، ثم يخمد انفاسه . فى حين انه كلمـا زاد ضيقا وطال بقاء ذلك الضيق نقصت قوة مقاومة السجين وزادت قوته المعنوية خورا لشعوره بالضغط .

والعجز يسـتجلب العجز ، ويشهد التاريخ أن فقدان الأمل لا فقد الأرواح هو العامل الحاسم فى نتيجة الحرب . وليس من المؤرخين من لا يقدر التأثير المباشر الذى أحدثته شبه المجاعة بين الشعب الألمـانى تمـام التقدير ، وتسبب عنه انهيار « الجبهة — الوطنية » . ثم لندع جانبا مسألة ما كان للثورة من الأثر فى الهزيمة العسكرية ، بدلا من العكس . فان عامل الحصر البحرى وهو العامل الذى لا يمكن أن يمس والذى ساد على كل شىء كان له أثره فى الموقف العسكرى من حيث أى اعتبار كان .

فالواقع هو أن التهديد الذى أصبح حصوله فى دائرة الامكان من جراء الحصر البحرى ، ومن المحتمل أنه لم يكن تأثيره نفسه ، هو الذى أرغم ألمـانيا على القيام بحملة الغواصات لأول مرة فى فبراير سنة ١٩١٥ وهى التى حفزت بريطانيا الى اطلاق « تصريح لندن » من عقاله لزيادة تضييق الحصر البحرى — مطالبة بحقها فى التعرض لكل السفن المشتبه بأنها تحمـل بضائع لألمـانيا وتفتيشها — ولكن ألمـانيا بنسفها السفينة «لوزيتانيا» بالطور بيد هيئات للولايات

المتحدة سببا دافعا لها لدخول الحرب، وان كان ذلك السبب جاء متأخرا . فضلا عن أنه كان مزيلا لما كان من الاحتكاك بين بريطانيا والولايات المتحدة من جراء زيادة تضييق الحصر البحرى . وبعد ذلك بسنتين كان الضيق الاقتصادى المتسبب عن الحصر البحرى باعثا على مصادقة قادة ألمانيا العسكريين على تجديد حملة الغواصات « من غير حد » تجديدا فى غاية الشدة . وكان اعتماد بريطانيا فى تموين شعبها واعاشة جيوشها على مايرد اليها عن طريق البحار نقطة ضعيفة فى درعها الواقى . ثم ان تأثير الغواصات الذى هو بطبيعته أسرع من غيره فى تنفيذ الحصر البحرى قوى حجة القائلين بأن هذا الاقتراب غير المباشر القائم على الاستراتيجية العظمى ستكون ضربته مميتة . واذا كان هـذا الحساب قد ظهر خطؤه فان بريطانيا كانت على وشك أن تثبت صحته . فقد ازدادت الخسائر فى السفن من ٥٠٠,٠٠٠ طن فى شهر فبراير الى ٨٧٥,٠٠٠ فى أبريل . ولما اتخذت التدابير المضادة مضافا اليها قلة موارد ألمانيا فى الغواصات وعدم كفايتها فانقصت هذا المقدار تدريجيا ، كان الموجود من الأطعمة لدى بريطانيا لايكفى لتموين أهاليها الا لمدة ستة أسابيع أخرى .

فان آمال قادة ألمانيا فى الحصول على حسم اقتصادى كان لها رد فعل على خوفهم من الانهيار الاقتصادى وأدت بهم الى افتتاح حملة الغواصات مدركين كل الادراك مافى ذلك من المجازفة باستجلاب الولايات المتحدة لدخول الحرب ضدهم راضين به كأمر يكاد يكون محققا . وهذه المجازفة أصبحت حقيقة فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧ ، ومع أن قوة أمريكا العسكرية كانت تحتاج الى وقت طويل تتهيأ فيه ، كما حسب الألمان ، فان دخولها الحرب كان له تأثير سريع فى زيادة وطئة الحصر البحرى . فلما أصبحت الولايات المتحدة شريكة فى الحرب تناولت هذا السلاح الاقتصادى واستعملته بعزيمة صادقة ضاربة صفحا عمن تبق محايدا من الدول ، وفاقت أشد مزاعم بريطانيا جرأة فى محاولات السنين الماضية فيما يختص بحقوق المحايدين . ومن ذلك الوقت لم يلق الحصر البحرى عائقا من معارضة المحايدين . بل على العكس فان تعاون أمريكا حوله الى تضييق خانق رزحت تحته ألمانيا فأخذ يستنزف صلابتها حتى تراخت أعصابها ، بما أن القوة الحربيـة تقوم على أساس الجلد الاقتصادى — وهى حقيقة كثيرا ما أغفلت . والحصر البحرى قد يدخل فى فئة الاستراتيجية العظمى القائمة على الاقتراب غير المباشر والتى لا تستطاع مقاومتها مقاومة مثمرة . وهى من طراز لامجازفة فيه الا من حيث بُطء تأثيره . ومع ذلك فان تأثيره يطابق قانون القوة الطاردة التى تنزع الى ازدياد السرعة كلما استمرت . وفى نهاية سنة ١٩١٧ أحست به دول الوسط بدرجة شديدة . وهـذا الضغط الاقتصادى هو الذى استدرج ، بل اضطر ، ألمانيا الى القيام بالحركات التعرضية فى سنة ١٩١٨ التى بمجرد ما فشلت أصبحت انتحارا . فلما لم تتح لها حركة جدية لعقد الصلح لم يبق لها خيار بينها وبين الضعف البطىء يستولى عليها الى أن ينتهى بانهيارها .

فلو أنها عقب معركة "المارن" فى سنة ١٩١٤ ، أو فيما بعدها ، انتهجت سياسة حربية قوامها الدفاع فى الغرب والتعرض فى الشرق ، لكان من الممكن أن تنتهى الحرب على غير ما انتهت اليه . لأنها من جهة كان فى امكانها من غير شك أن تحقق حلمها فى "أوربا الوسطى" ، ومن جهة أخرى كان اذ ذاك الحصر البحرى مايزال رخوا وما كان فى الامكان تشديده بدرجة مثمرة مادامت الولايات المتحدة خارج حلبة الحرب . ومتى صارت كل منطقة أوربا الوسطى تحت سيطرتها ، وخرجت الروسيا من الحرب ، حتى ولو كانت ألمانيا تابعة اقتصاديا أى متوقفة اقتصاديا على غيرها . فليس هناك سوى اعتقاد ضعيف بأن مساعى كل من بريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا كان فى امكانها أن تفعل شيئا أكثر من حض ألمانيا على التنزل عن بلاد البلجيك وشمال فرنسا ، وهما موضوع المساومة ، نظير ابقائها ما ربحته فى الشرق لنفسها لاينازعها فيه منازع ، حتى اذا تيسر ذلك لهذه الدول . ثم ان ألمانيا وهى أكبر مما كانت ، وأكبر أيضا من حيث القوة والموارد اللذين يصبحان فى مقدورها ، تستطيع أن تتجاوز عن رغبتها فى الحصول على نصر حاسم على الحلفاء الغربيين . وفى الحقيقة فان التجاوز عن الغايات التى لا تستحق ما يبذل فى سبيلها هو الفرق بين الاستراتيجية العظمى والبلاهة المتعظمة .

غير أن فى سنة ١٩١٨ كانت الفرصة قد أفلتت ، وكان تجلدها الاقتصادى نقص نقصا كبيرا وأخذ تضييق الحصر البحرى يضعفها بأسرع ما كان يعوضه عليها ما يأتيها من موارد البلاد التى فتحتها مثل "رومانيا" و"أوكرانيا" .

فهذه هى الظروف التى حصل فيها التعرض الألمانى الأخير . وما هو الا آخر سهم فى كنانتهم للحصول على حسم عسكرى منقذ . فان اخلاء الجنود من الجبهة الروسية جعل التفوق فى جانبهم ، وان كان أقل بكثير من تفوق الحلفاء فى حملاتهم التعرضية . ففى مارس سنة ١٩١٧ اصطفت ١٧٨ فرقة فرنسية ، وبريطانية ، وبلجيكية مقابل ١٢٩ فرقة ألمانية . وفى مارس سنة ١٩١٨ تواجدت ١٩٢ فرقة ألمانية مقابل ١٧٣ فرقة من الحلفاء — بما فيها الفرق الأميركية المزدوجة التى وصل منها أربع فرق ونصف فرقة . واذا كان فى استطاعة الألمان أن يأتوا ببضع فرق أخرى من الشرق ، فان فيض الجنود الأميركية الذى بدأ رشاشا تطور حتى صار سيلا منهمرا تحت ضغط الحاجة الماسة . ومن مجموع الجنود الألمانية كان يوجد ٨٥ فرقة ممن يسمون «فرق الاقتحام» كانت احتياطيا . وكان احتياطى الحلفاء ٦٢ فرقة — ولكنها كانت من غير سيطرة مركزة . لأن التدابير الوقتية التى يقتضيها ايجاد احتياطى عام ، التى اتخذت لايجاد ٣٠ فرقة تحت أمر لجنة "فرسايل" العسكرية التنفيذية اختل نظامها حينما أعلن "هايج" أنه لا يقدر أن يقدم نصيبه منها وهو ٧ فرق . ولما جاءت التجربة اختل الاتفاق الذى كان بين القائدين الفرنسى والبريطانى على مساعدة كل منهما الآخر . فحلت الكارثة بأسرع ما كان منتظرا . وعلى أثر ذلك اقترح " هايج " تعيين " فوش " ليضع الجيوش المتحالفة على قدم المساواة ويوفق بينها فى بادئ الامر ثم يتولى قيادتها العامة بعد ذلك .

وكانت خطة الألمان تمتاز بالبحث عن مفاجأة تكتيكية أدق وأبعد مرمى مما سبق فى كل عمليات الحرب . ومما تمدح عليه القيادة الألمانية ورجال أركان الحرب منهم انهم أدركوا أن الشيء الواضح فيه عائق لا تعوضه زيادة القوة ، ومتى وجد العائق قل أن تستطيع هذه القوة التغلب عليه . وأن المفاجأة المثمرة لا يمكن الحصول عليها الا باشتراك عناصر خادعة اشتراكا يقوم على الدهاء والحيلة . وأن بغير هذا الاشتراك وهو المفتاح لا يستطاع فتح ثغرة فى الجبهة المغلقة منذ زمن طويل . وكان العنصر الرئيسى من هذه العناصر هو اطلاق قنابل — الغاز لفترة قصيرة ولكن بشدة متناهية . وكان " لودندورف " قد فاته ادراك ما للدبابة من التأثير فلم يرقها فى الوقت المناسب . ولكن زيادة على ذلك كانت جنود المشاة قد تدربت على تكتيك حديث لمرورها من الفتحات التى توجد . والفكرة الرئيسية فيه هى أن تتحسس الجنود الأمامية وتنفذ من النقط الضعيفة الموجودة فى دفاع العدو ، بينما أمرت الجنود الاحتياطية أن تعضد الفوز ولا تستعيض عن الفشل أى أن تقوى الجنود الناجحة ولا تحاول تعضيد الذين لا ينجحون . والفرق المقتحمة تتقدم الى مواضع الهجوم أثناء الليل . ثم يؤتى بكل المدفعية قريبا من الخط الأمامى فى تستر وخفاء . وتفتح نيرانها دون أن يسبقها تمهيد « تسجيل » (أى ضبط المرمى وما الى ذلك) . وعلاوة على ذلك فان استعدادات الهجمات المتوالية التى تتعاقب وراء بعضها بعضا فى النقط الأخر كان من شأنها أن تحير المدافعين فى حين تبقى على استعداد لما يأتى به المستقبل .

ولكن ليس هذا كل شيء . فان " لودندورف " كان قد استنتج من تجارب حركات الحلفاء التعرضية التى حصلت على غير طائل أن « من الضرورى مراعاة التكتيك قبل مراعاة الاغراض الاستراتيجية التى من العبث التوجه اليها ما لم يكن الفوز التكتيكى فى الامكان » . وهذه حقيقة لاشك فيها ما دام ليس هناك اقتراب استراتيجى غير مباشر . ومن ثم كانت التكتيكات الحديثة فى الخطة الألمانية لا بد أن تصحبها استراتيجية حديثة . لأن كلا منهما يستنتج من الآخر . وكلاهما قائم على مبدأ حديث أو تجدد بعد هجر — هو اتباع خط أقل مقاومة (أى الخط الذى تكون فيه المقاومة أقل مما فى غيره) . ولكن ظروف سنة ١٩١٨ فى فرنسا جعلت مجال أقل الخطوط انتظارا (الخط الذى لا يتوقع العدو منه الهجوم) . محدودا فضلا عن أن "لودندورف" لم يحاول أن يسلكه . ولكن مع وجود الجيوش المتحاربة منتشرة أمام بعضها بعضا ومتماسة على طول خط المتاريس الشاسع الامتداد فان اختراق أحد الطرفين خط الطرف الآخر بسرعة واسراعه فى استغلال هذا النفوذ على طول الخط الذى يكون أقل مقاومة من غيره قد يؤدى به الى غاية هى فى العادة لا يمكن الوصول اليها الا بسلوك خط هو أقل ما ينتظره العدو (أى أقل الخطوط انتظارا) .

أما النفوذ فقد كان سريعا وأما الاستغلال فجاء على عجل. ومع ذلك فان الخطة فشلت. فما هو مكان الخطأ ؟ فالانتقاد العام الذى حصل على أثر هذا الحادث وبعد الحرب هو أن التحيز التكتيكى أدى "بلودندورف" لأن يغير اتجاهه ويشتت قوته لكى يحشد جنوده على النجاح التكتيكى ، على حساب الغاية الاستراتيجية . فكان يظهر ، وقد قيل : ان ذلك المبدأ خاطئ . غير أن فحص الأوراق الرسمية الألمانية عن كثب وهى التى أصبحت فى اليد ، والأوامر التى أصدرها "لودندورف" نفسه والتعليمات التى أعطاها ، كل هـذه تلقى ضوءا جديدا على هذه المسألة. والذى يظهر، فى الواقع، هو ان الخطأ الحقيقى فى أن "لودندورف" لم ينفذ عمليا المبـدأ الذى انتهجه نظريا . فهو إما انه لم يدرك تمـاما مغزى هـذه النظرية الاستراتيجية الحـديثة ، وإما انه خشى عواقبها . لأنه فى الواقع شتت جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية أكثر ممـا يلزم جريا وراء اصـلاح فشله التكتيكى والاستعاضة عنه . ثم انه بقى مترددا ، أطول ممـا يلزم ، فى البت فى أمر استغلال فوزه التكتيكى .

فان المصاعب ابتدأت حتى فى اختياره نقطة للهجوم . وهذا الهجوم كلفت به الجيوش السابع، والثانى ، والثامن على جبهة اتساعها ٤٧ ميلا بين "اراس" و"لافير" . وكانت الفكرة تحوم حول أحد اقتراحين : أحدهما الهجوم على جانبى زاوية "فردون" الخارجة ولكنه رفض بحجة عدم صلاحية الأرض ، وأن اختراق خطوط العدو لا يكاد يؤدى الى نتيجة حاسمة ، وأن الجيش الفرنسى قد استعاد قوته ونشاطه بدرجة فائقة بعد أن قضى نحو سنة فى دور النقاهة لايزعجه شىء . والآخر هجوم بين "ايبر" و "لنز" وهذا الاقتراح وان كان وقع لدى "وتسل" ، المستشار الاستراتيجى "للودندورف" موقع القبول وعضده البرنس "روبرخت" قائد الجبهة بين "سان كوانتان" والبحر الا أنه رفض بحجة أنه يلتقى بكتلة الجيش البريطانى الرئيسية ، وأن الأرض المنخفضة يتأخر جفافها .

فوقع الاختيار على قطاع "اراس" "لافير" بسبب أنه فضلا عن ملاءمة أراضيه فانه كان أضعف قطاع فى دفاعاته، ومدفعيه ، وجنوده الاحتياطية . وعلاوة على ذلك فقد كان قريبا من نقطة اتصال الجيشين الفرنسى والبريطانى . وكان فى مأمول "لودندورف" أن يفصلهما عن بعضهما ثم يسحق الجيش البريطـانى سحقا لاعتقاده أنه قد ضعف ضـعفا كبيرا لسبب ما بذله من المجهود فى "ايبر" . ولكن مع كون هذا القطاع ضعيفا نسبيا حقيقة بصفة عامة فان التفصيل كان منحلا وليس قرين الصحة . فان ثلثه الشمالى كان قويا وكانت ترابط به قوة كبيرة هى الجيش الثالث البريطانى وقوامه ١٤ فرقة (٤ فرق احتياطى) بينما كان سواد الجنود الاحتياطية البريطانية موجودا فى ذلك الجناح فضلا عن امكان وصول المدد ، وقد وصل فعلا اليه من الجيوش البريطانية الأخرى التى كانت جهة الشمال أسرع من وصولها الى غيره . أما الثلثان الباقيان من هـذا القطاع الذى نزلت به الضربة الألمـانية فكان يرابط

فيهما الجيش الخامس البريطانى وكان يرابط فى القسم الوسطى منه الذى يجابه الجيش الثانى الألمانى ٧ فرق (٢ احتياطى) والجزء الجنوبى المجابه للجيش الألمانى الثامن عشر كان يرابط فيه ٧ فرق (فرقة احتياطى).

غير أن " لودندورف " أعطى جيشه السابع عشر الموجود بالقرب من "اراس" ١٩ فرقة للهجوم الافتتاحى، بجناحه الأيسر فقط، على جبهة اتساعها تسعة أميال ونصف ميل، وجنوبى منه جاء الجيش الثانى. ولما كان مقررا أن الزاوية الخارجة البريطانية الكائنة جهة "كمبراى" لا تهاجم هجوما مباشرا، بل تترك بارزة الى الأمام، كان هذا الجزء البالغ اتساعه ٤ أميال محتلا احتلالا وافيا بفرقتين ألمانيتين. وكان مع الجيش الثانى ١٨ فرقة لجبهة هجومه وهى تسعة أميال ونصف ميل. ثم جاء الجيش الثامن عشر فى منتهى الجنوب وعلى كلا جانبى "سان كوانتان" وقد أعطاه " لودندورف " ٢٤ فرقة فقط ليهاجم بها جبهة اتساعها ٢٠ ميلا. ومن ذلك نرى أن قوته كانت نصف قوة الجيشين الآخرين النسبية. فهو على الرغم من المبدأ الذى اتبعه كان يوزع قوته بحسب قوة العدو. ولم يحشدها أمام أضعف مقاومة. وقد أكد ذلك بالأكثر، الاتجاه الذى أعطاه فى أوامره. فكان المقرر أن يبذل المجهود الرئيسى شمالى نهر " السوم ". وكان على الجيشين السابع عشر والثانى بعد نفوذهما من الخط واختراقه أن يدورا الى الشمال الغربى ويضغطا الجيش البريطانى فيدفعاه الى الوراء نحو الساحل، فى حين كان النهر والجيش الثامن عشر يحرسان الجناح. أما الجيش الثامن عشر فكان عبارة عن مجرد حرس جنبى تعرضى. وهذه الخطة قضى عليها بأن تتغير تغييرا كليا فى التنفيذ وأن يكون لها مظهر اتباع أقل الخطوط مقاومة لأن " لودندورف " نال فوزا سريعا حيث كان يرغبه قليلا، وأخفق حيث أراد الفوز أكثر مما فى أى مكان آخر.

فبدأ الهجوم فى ٢١ مارس وقد ساعد على المفاجأة وجود ضباب فى الصباح المبكر. ولكن بينما نجحت المجمة فى النفوذ تماما جنوبى نهر "السوم" حيث كان الدفاع — وكذلك أيضا القوة الهاجمة — أضعف مما فى أى مكان آخر، أعيقت بالقرب من "أراس". فكان لاعاقتها رد فعل على كل الهجوم شمالى النهر. فمثل هذه النتيجة كان شيئا مؤكدا. غير أن "لودندورف" تمادى فى الاخلال بمبدئه الجديد وقضى الأيام التالية فى محاولة بعث الحياة من جديد فى هجمته على جبهة "أراس" البسطيونية، الجيدة التحصين والمدافعة، محتفظا بهذا الاتجاه بصفته الخط الرئيسى لمجهوده. وفى نفس الوقت كان يقبض اليه عنان الجيش الثامن عشر الذى كان يزحف فى الجنوب دون أن يلقى مقاومة جدية. وحتى فى يوم ٢٦ مارس أصدر له أوامر يمنعه من عبور نهر "الآفر" وحتم عليه أن ينظم حركته على حركة جاره، الجيش الثانى، الذى كان هو الآخر متأخرا بسبب الجيش السابع عشر الذى كان تقدمه محدودا جدا بالقرب من "أراس". وهنا نرى أن "لودندورف" كان فى الحقيقة مصمما على تحطيم الجيش البريطانى بتحطيم أقوى

قطاعاته مقاومة ، باقتحام مباشر . ولأن ذلك ملك عليه مشاعره أخفق فى مسعاه حتى فات الأوان . وعندها ألق بثقل جنوده الاحتياطية الى الخط الذى هو أقل الخطوط مقاومة ، جنوبى نهر "السوم" . ثم ان الدورة التى كان فى النية القيام بها الى الشمال — الغربى ربما كانت حصلت لو أنها جاءت بعد الخلوص من الجناح أى فواته . وبذا يمكن توجيهها الى مؤخرة جبهة "أراس" البسطيونية . وفى ٢٦ مارس ظهر أن الهجوم شمالى نهر "السوم" (بالجناح الأيسر من الجيش السابع عشر والجناح الأيمن من الجيش الثانى) كان آخذا فى الضعف الذى هو ثمن النجاح الذى أحرزه بكل مشقة . أما جنوبى نهر "السوم" فكانت ميسرة الجيش الثانى قد وصلت الى صحرا ميادين نهر "السوم" القديمة ، فعرقلتها وأربكتها — اذ عطلت السير واستيراد المؤن . فالذى كان مستمرا فى الزحف دون ابطاء هو الجيش الثامن عشر وحده .

وهذا الموقف أدى "بلودندورف" لأن يتخذ خطة جديدة ولكنه لم يترك القديمة . فأصدر أوامره بالقيام بهجوم جديد مباشر فى ٢٨ مارس على الأراضى المرتفعة القريبة من "أراس" تقوم به ميمنة الجيش السابع عشر ، ويعقبه هجوم يقوم به جيش سادس شمالى ذلك المكان مباشرة بين "فيمى" و "لاباسيه" . غير أن حسن الموقف جنوبى نهر "السوم" جعله يعين "أميان" لتكون الغاية التى يقصدها الجيش الثانى . وحتى حينذاك فانه منع الجيش الثامن عشر من الاندفاع ليلتف حول جناح المقاومة الآتية من "أميان" ، بدون أوامر جديدة ! فانه لما جعل "أميان" غرضا اضافيا رئيسيا فلا بد من الاستيلاء عليها باقتراب مباشر فوق أرض وعرة .

وفى ٢٨ مارس بدأ الهجوم على "أراس" دون أن يحجبه ضباب أو تستره مفاجأة . وفشل فشلا تاما أمام المقاومة التى كان الجيش الثالث تحت قيادة "بنج" قد استعد لها استعدادا جيدا . وعندئذ فقط ترك "لودندورف" فكرته الأصلية ووجه مجهوده الرئيسى و بعض ما تبقى من جنوده الاحتياطية الى "أميان" . ولكنه فى نفس الوقت أمر الجيش الثامن عشر بالبقاء فى مكانه يومين . فلما تجدد الهجوم فى ٣٠ مارس كانت قوته قليلة ولم يتقدم الا قليلا أمام المقاومة التى تقوت وازدادت صلابة بما أتيح لها من الوقت ، وكانت تعاونها الجنود الاحتياطية التى أخذت تتدفق الى خط القتال الذى كان قد تقوس الى الداخل . وهذا هو أول يوم اشتبكت فيه مدفعية الألمان فى القتال بكل قوتها بعد أن وصلت متأخرة عن المشاة . وقام الألمان فى ٤ أبريل بمجهود آخر بخمسة عشر فرقة منها ٤ فقط كانت جديدة . فكان نجاحهم أقل من سابقه . وعند ذلك أوقف "لودندورف" الهجوم فى اتجاه "أميان" خشية أن يضطر الى التدرج الى حرب الانهاك . وهو فى ذلك كله لم يلق بقوته فى أى وقت من الأوقات على طول خط الشق الذى بين الجيشين البريطانى والفرنسى . ومع كل فان "بتان" فاتح "هايج" فى ٢٤ مارس بأنه اذا استمر تقدم الألمان على طول هذا الخط فانه سيضطر الى سحب الجنود الفرنسية الاحتياطية نحو الجنوب — الغربى لتستر باريس . فما أقل مقدار الضغط الذى كان الألمان فى حاجة اليه

فوق ضغطهم ليحوّلوا الشق البسيط الى بون شاسع ! وهذا دليل آخر على الحقيقة التاريخية وهى أن الوصلة (أى مكان أو نقطة اتصال جيشين) هى أكثر النقط احساسا وأصلحها للهجوم . وأيضا أن النفوذ بين قوتين أو وحدتين يكون أشـد خطرا اذا كانت القوتان منضمتين كتفا لكتف مما اذا كانت احداهما منفصلة عن الأخرى و بعيدة عنها وكل منها قائمة بذاتها .

فأبقى "لودندورف" جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية مرابطا أمام القوس الواسع البارز الى الأمام جنوبى "أراس" ، والتفت الى اطلاق هجمة جديدة شماليها وان لم يكن واثقا منها كثيرا . ففى ٢٥ مارس كان قد أمر باعداد هجمة ضيقة النطاق بين "لاباسيه" و "أرمنتيير" لتكون خطوة فى سبيل توسـيع الجزء الذى اخترقه . فانه بعد اخفاق هجومه على "أراس" فى ٢٨ مارس كان قد توسع فى خطته . فالهجوم جنوبى "أرمنتيير" كان مقررا أن يعقبه هجوم آخر شماليها بعد ٢٤ ساعة يجعل المدينة بارزة الى الأمام . فلما صدر أمر الهجوم متأخرا لم يتم الاستعداد له الا فى ٩ أبريل ، وحتى فى ذلك التاريخ كان القصد منه مجرد تشتيت فكر العدو . غير أنه لمـا صادف نجاحا مدهشا سريعـا ، ساعده عليـه الضباب فى الصباح المبكر ، ضـد قطاع صار ضعيفا ، أخذ "لودندورف" يحوله الى مجهود كبير شيئا فشيئا . ففى ٩ أبريل انقضت ٩ فرق ألمـانية معها ٥ فرق أخرى احتياطية على فرقة واحدة برتغالية وفرقتين بريطانيتين على جبهة اتساعها ٩ ½ أميال جنوبى "أرمنتيير . وفى اليوم التالى هجمت ٤ فرق شمالى "أرمنتيير" على جبهة اتساعها ٥ ½ أميال . ولمـا أخذت المقاومة تزداد صـلابة جاءت فرق جديدة الى القتـال وراء بعضها بعضا حتى بلغ عدد ما استخدم منهـا فى نهـاية الأسبوع الأول من مايو ما ينوف على ٤٠ فرقة . وبهذه الكيفية انحدر "لودندورف" الى حملة انهاك .

وكان البريطانيون على مقربة من قواعدهم ومن البحر بدرجة خطرة ولكن مقاومتهم أوقفت سيل الألمـان بعد أن غزوا عشرة أميال ووصلوا الى مكان قريب من محطة اتصال السكة الحديدية الهامة وهى "هازبيروك" . وبعد ذلك حاول "لودندورف" انزال ضربة فى ١٧ أبريل تتلاقى لها جنوده على جانبى "ايبر" ، ولكن "هايج" سبقها بعمل غير مباشر وأبطل عملها ، بوجه التقريب ، بادارة خطه الى الوراء فى بحر الثمانية والأربعين ساعة السابقة لها . ولمـا خاب هذا المشروع عاد "لودندورف" الى هجوم مباشر محض جنوبى "ايبر" حيث كانت جنود الفرنسيين الاحتياطية قد وصلت لتتسلم جزءا من الخط . ولمـا وقعت الضربة على الوصلة (نقطة اتصال الجيشين) شقتها فى "كيمل هيل" ولكن "لودندورف" أوقف اسـتغلالها خوفا من ضربة مضادة . وفى كل هـذه المدة كان يقتر فى ارسال جنوده الاحتياطية فتصـل متأخرة وقليلة العدد بدرجة لايتأتى معها نجاح . ويظهر أنه بعد فشل حركاته التعرضية الأولى زالت ثقته فى الثانية . وبعد أن بذل مجهودا أخيرا فى ٢٩ أبريل أوقف العمل . غير أنه كان ينوى أن يؤجل حركاته موقتا الى أن يستطيع أن يجر الجنود الاحتياطية الفرنسية الى جبهتهم مصمما

بعد ذلك ان يضرب البريطانيين فى "فلاندرز" ضربة نهائية حاسمة . فقد كان قبل ذلك أمر بالاستعداد للهجوم على قطاع "شمين — ده — دام" بين "سواسون وريمز" بنية القيام به فى ١٧ أبريل . ولكن الاستعداد لم يتم الا فى ٢٧ مايو — ويرجع بعض السبب فى هذا التأخير الى كونه أطال حركاته التعرضية فى "فلاندرز" فترتب على أطالتها استنزاف قوة جنوده الاحتياطية . وقد تنبأ فرع الاستعلام (المخابرات) من مركز الرياسة العامة الأمريكية بالمكان الذى سيحصل فيه الهجوم و بتاريخه بوجه التقريب . ولكن لم يصغ أحد الى ما أنذر به هذا الفرع الا فى ساعة متأخرة حينما أيد هذا الخبر أحد الأسرى فى ٢٦ مايو . وحينذاك كان قد فات الأوان على تقوية الدفاع سوى وضع الجنود على قدم الاستعداد . ولكن هذا الانذار أمكن الجنود الاحتياطية من الشروع فى الحركة . وفى اليوم التالى وقعت الضربة من ١٥ فرقة على ٧ فرق . ومع أن هذه الهجمة لم يساعدها أى حجاب من الضباب فانها اكتسحت ما أمامها ومرت فوق نهر "الاين" فوصلت نهر "المارن" فى ٣٠ مايو . ولكن حصل هنا أيضا أن نال "لودندورف" شيأ من الفوز لم يعدّ له عدة ولم يكن راغبا فيه . فالمفاجئ هو الذى فوجئ . وهذا الفوز الافتتاحى لم يقتصر على اجتذاب كمية عظيمة من الجنود الاحتياطية اليه أكثر مما يلزم بل أبطل تأثيرهم . لأن جنود الحلفاء الاحتياطية تحركت معهم فى وقت واحد .

ومع ذلك فان مدى هذا الفوز الافتتاحى يستحق التحليل نظرا لعدم وجود ضباب . ولأن هذا الهجوم لم يكن زائدا فى تفوق جنوده عددا عما سبقه الا شيأ يسيرا . والذى يظهر هو أن السبب فيه يرجع بعضه الى تحويل انتباه الحلفاء وجنودهم الاحتياطية الى مكان آخر . وبعضه الى اتباع خط أقل مقاومة بدرجة بعيدة الحد فى الدقة . وبعضه يرجع الى حماقة القيادة الفرنسية المحلية ، فانها أصرت على تجمع المشاة كتلا فى المواقع الأمامية فكانت وهى مكدسة طعمة لنيران مدافع الألمان . ثم ان المدفعية ، والجنود الاحتياطية المحلية ، ومركز رياسة الدفاع كانت كلها الى الأمام أكثر مما يلزم . فكانت النتيجة أن وقع أعظم درجات الانهيار على أثر نفوذ الألمان من الخط . وبذلك استرد الهجوم تأثير المفاجأة التكتيكى الذى كان فقد بعضه فى اليوم السابق لوقوعه . لأنه مادام أن الغرض من المفاجأة هو زحزحة العدو فان تأثيرها واحد سواء كان العدو قد بوغت نائما بواسطة الحيلة ، أو سمح لنفسه بأن يقع فى الشرك وعيونه مفتوحة .

وكان "لودندورف" الآن أوجد فى جبهة الحلفاء تقويسين بارزين هائلين وآخر أصغر منهما ، وكانت محاولته التالية إبراز قطاع "كومبينيه" الى الأمام (بضغط أجنابه وهو القطاع الواقع بين تقويسى "اميان" و"المارن" . ولكن فى هذه المرة لم تحصل مفاجأة فجاءت الضربة الموجهة الى غربى القطاع فى ٩ يونيه متأخرة عن الضغط الحاصل جهة الشرق . وهنا حصل توقف لمدة شهر . وكان "لودندورف" يرغب أن ينزل ضربته الحاسمة التى كانت تتوق اليها نفسه منذ

زمن بعيد، بالبريطانيين الموجودين ببلاد البلجيك ولكنه رأى أن جنودهم الاحتياطية مازالت قوية ولذا عاد الى تصميمه على تشتيت أفكار العـدو مرة أخرى مؤملا أنه اذا أنزل ضربة شديدة بالجنوب فانها تستجلب الجنود الاحتياطية البريطانية من مكانهم . وكان أخفق فى ابراز قطاع "كومبنية" الى الأمام غربى زاويته الخارجة الموجودة على "المـارن" . فكان الآن على وشك محاولته نفس هذه الطريقة شرقى تلك الزاوية بأن يهاجم كلا جانبى "ريمز" ولكن كان فى حاجة الى فترة للاستراحة والاستعداد ، فكان هذا التأخير فيه القضاء المبرم اذ أتاح للبريطانيين والفرنسيين فرصة يستعيدون فيها نشاطهم والأميركيين يستجمعون قوتهم .

ويصح القول بحق ان النجاح التكتيكى الذى ناله ضربات "لودندورف" كان سبب مصائبه بمعنى انه كان يتأثر بنجاح هذه الضربات ويتمادى فى كل ضربة منها أطول وأبعد مما يلزم فاستنفد جنوده الاحتياطية : وأوجد مسافة بين كل ضربة والأخرى ما كان يجب أن تكون ، ثم انه لم يتبع خط أقل درجات المقاومة ، بل كان يتبع خط المقاومة التى تزداد صلابة . لأنه بعد اختراقه الخط لأول مرة كانت كل هجمة من هجماته قد صارت اقترابا مباشرا محضا من الوجهة الاستراتيجية . وكان قد دفع ثلاثة أسافن عظيمة (أى نفذ بجنوده فى ثلاثة مواضع) ولكن لم ينفذ منها واحد بالقدر الكافى لأن يقطع شريانا حيويا . وهذا الفشل الاستراتيجى أوجد فلولا فى جبهة الألمـان تستجلب الضربات المضادة الجانبية .

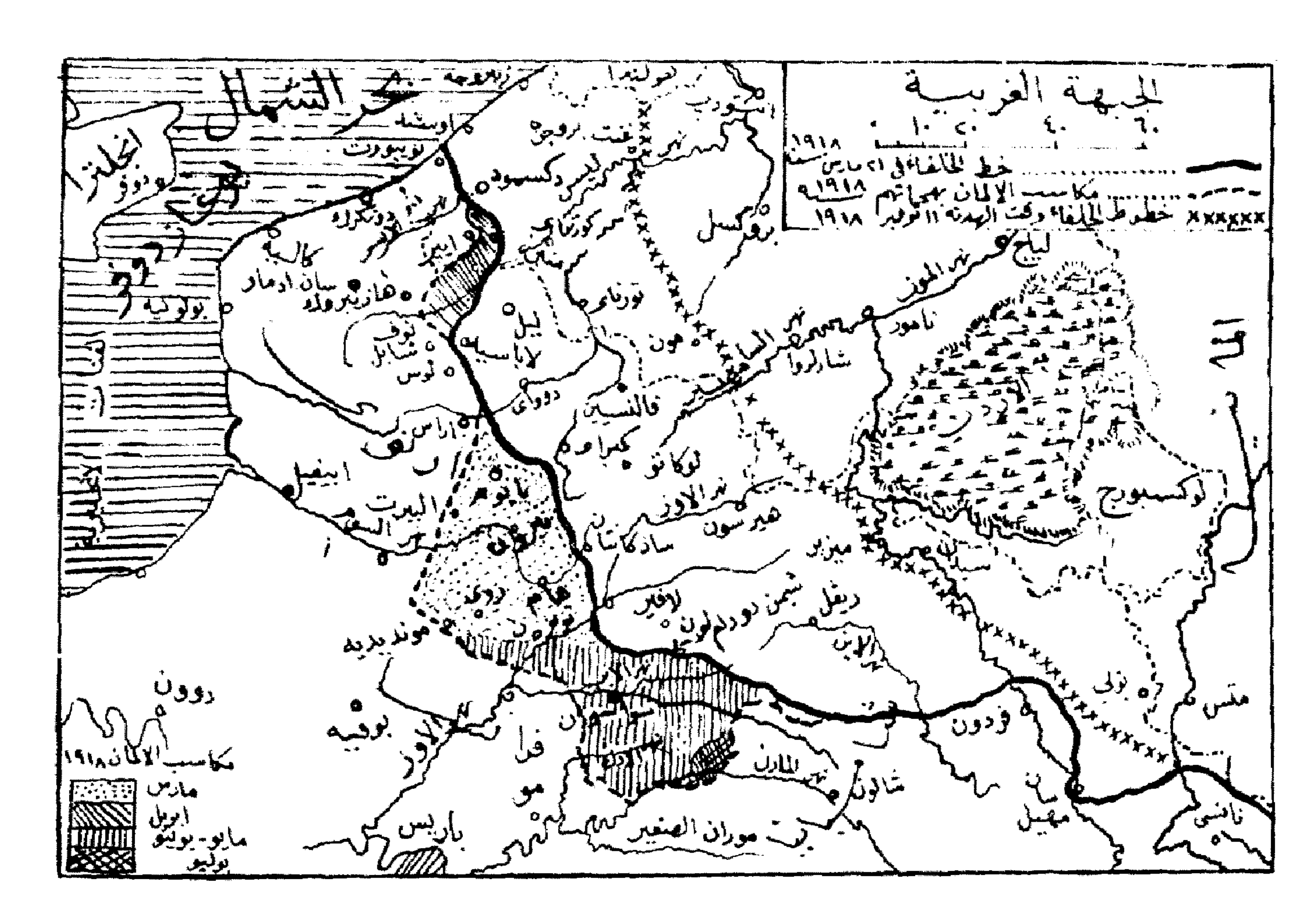
وفى ١٥ يوليه دفع "لودندورف" هجومه الجديد، ولكن وقوع هذا الهجوم لم يكن سرا، فخاب شرقى "ريمز" بسبب ما لاقاه من الدفاع المرن . أما غربى "ريمز" فان نفوذ الألمـان عبر نهر "المـارن" زادهم توغلا فى الحبائل وتغلغلا فيها لدرجة أدت الى سقوطهم — لأن "فوش" وجه ضربة الى الجنب الآخر من زاوية "المـارن" الخارجة استعد لها منذ مدة طويلة . وهنا قام "بتان" الذى كان يدير هذه العملية بادارة المفتاح الذى كان ينقص "لودندورف" . فاستخدم كثلا من الدبابات الخفيفة وجعلها فى مقدمة هجمة مفاجئة على طريقة "كمبراى" . فتمكن الألمـان من ابقاء باب الزاوية الخارجة مفتوحا وقتا كافيا لسحب جنودهم وارجاعها الى مكان أمين ثم عدلوا خطهم بجعلوه مستقيما . ولكن جنودهم الاحتياطية نقصت فاضطر "لودندورف" فى بادئ الأمر لارجاء حركاته التعرضية فى "فلاندرز" ثم بعد ذلك تنحى عنها وتركها . فانتقلت القوة الانشائية الى جانب الحلفاء بصفة قطعية نهائية .

والضربة المضادة التى قام بها الحلفاء على نهر "المـارن" تستدعى البحث والتمحيص . فان "بتان" كان طلب من فوش أن يجمع مجموعتين من الجنود الاحتياطية واحدة منها فى "بوفيه" والأخرى فى "ايبرني" للقيام بضربة مضادة ضد جناح أى هجوم يقوم به "الألمـان" وعلى أثره مباشرة . وكانت أولاهما تحت قيادة "مانيـين" فاستخدمت لاحباط الهجوم الذى قام به الالمـان فى ٩ يونيه ، ثم تحولت الى موقع على الوجهة الغربيـة لزاوية المـارن الخارجة .

على أن "فوش" كان وضع خطة باستخدامها فى حركات تعرضية مباشرة للزحف على مركز السكة الحديدية فى "سواسون" . وبينما هم يستعدون لذلك اذ بلغت مصلحة الاستعلام (المخابرات) أخبار أكيدة بأن الألمان على وشك أن يهجموا بالقرب من "ريمز" . ولذلك صمم فوش على أن يسبقهم بضربة ينزلها بهم فى ١٢ يونيه ، لا أن يرد عليهم بها . غير أن "بتان" كان له رأى يخالف ذلك هو أن يدع الألمان يتقدمون ويوقعون أنفسهم فى الشرك ثم يضربهم فى مؤخرة جناحهم . ومن الغريب أن الجنود الفرنسية تصادف أن كانت على غير استعداد فى يوم ١٢ يونيه وعلى ذلك نشبت المعركة بناء على فكرة "بتان" أكثر منها على فكرة "فوش" . أكثر فقط لا بالكلية . لأن خطة "بتان" كانت أن يتخلى أولا عن موقعه الأمامى للهاجمين بأن يرابط فيه مرابطة ضعيفة ثم يوقفهم أمام الموقف الخلفى الذى لم يمسه ضرر . وعندما يقوم بهجمات مضادة محلية حتى يمكن استدراج العدو الى اشراك جنوده الاحتياطية فى القتال فى الفتحات التى يوجدها هجومهم على كلا جانبى "ريمز" . وأخيرا يدفع "مانيين" الى الحركات التعرضية المضادة الحقيقية نحو الشرق على طول خط قاعدة زاوية "المارن" الخارجة الرئيسية . وبذا قد يتمكن من اغلاق الجزء الضيق الذى تنتهى اليه الساحة الواسعة التى تكون القوات الألمانية الموجودة جنوبى نهر "الاين" محبوسة فيها .

ثم ان الحوادث اشتركت مع "فوش" فى تعديل هـذه الفكرة . فان الهجوم الألمانى شرق "ريمز" أحبطه الدفاع المرن — وهو صورة من صور الاقتراب التكتيكى غير المباشر . أما غربى "ريمز" فان القواد أصروا على التشبث بطريقة الدفاع العتيقة التى لا مرونة فيها وكانت النتيجة أن انكسر خطهم . ونفذ الألمان الى ما وراء نهر "المارن" واضطر "بتان" تلافيا للخطر لأن يستخدم القسم الأعظم من جنوده الاحتياطية التى كان أعدها للطور الثانى . ولكى يستعيض عنهم صمم على أن يأخذ من "مانيين" جنودا تحل محلهم ، وأجل ضربة "مانيين" المضادة . مع أن فوش أمر بها وحدد لها يوم ١٨ أغسطس . فلما بلغ "فوش" ذلك ألغاه فى الحال ومن ثم نشأت الضرورة للتخلى عن الطور الثانى وتمكنت الجنود الاحتياطية الألمانية من صد "مانيين" وابقاء الجزء الضيق مفتوحا . وأصبحت الضربة المضادة مجرد ضغط مباشر محض واقع من جنود آتيـة من جهات مختلفة متلاقية عند الهجوم ، كما فعل "فالكنهاين" فى بولندا فى سـنة ١٩١٥ ، فضغطت الألمان وأرجعتهم وأخرجتهم من كل تلك الساحة .

وكانت فكرة "فوش" الرئيسية منذ ذلك الحين المحافظة على القوة الانشائية وعدم اعطاء العدو فرصة للراحة بينما تتجمع جنود "فوش" الاحتياطية وتتراكم . وأول خطوة خطاها كانت تحرير خطوطه الحديدية الجانبية بسلسلة من الحركات التعرضية المحلية . قام بأولاها "هايج" فى ٨ أغسطس أمام "أميان" . ذلك أن الجيش الرابع الذى يقوده "رولنسون" ضوعف



الجبهة الغربية
٦٠ ٤٠ ٢٠ ١٠ ٠
خط الحلفاء في ٢١ مارس ١٩١٨
مكاسب الألمان بهجماتهم سنة ١٩١٨
خطوط الحلفاء وقت الهدنة ١١ نوفمبر ١٩١٨
مكاسب الألمان ١٩١٨
مارس
ابريل
مايو - يونيو
يوليو
بحر الشمال
انجلترا
دوفر
بولونيه
كاليه
سان ادمار
دونكرك
اوستند
زبروجه
نيوبورت
ابيبر
ليل
لنس
اراس
دوواى
فالنسيه
كمبراى
بروكسل
ليج
نهر الموز
نامور
نهر السامبر
شارلروا
مون
تورناى
لوكسمبورج
اميان
ابفيل
نهر السوم
البرت
بابوم
سان كانتان
نهر الواز
هيرسون
ميزيير
سيدان
لاون
سواسون
ريمس
نهر الابن
شالون
نهر المارن
موران الصغير
فردون
متس
سان ميهيل
نانسى
تول
مونديديه
نويون
بوفيه
روون
باريس
مو

عدده بتدبير يشف عن مهارة فى الحذر والخدعة وتقدم للهجوم — مسبوقا بـ ٤٥٠ دبابة — وفاجأ العدو مفاجأة ربما كانت فى أولها أتم وأكمل مفاجأة وقعت فى الحرب. فهى وان كانت أوقفت سريعا — لأن اتجاه ضغطها كان سببا طبيعيا لايقافها — الا أن صدمتها الافتتاحية المفاجئة كانت كافية لزعزعة توازن القيادة العليا الألمانية من الوجهة المعنوية . ولما اقتنع "لودندورف" بافلاس جنوده أدبيا أعلن أن الصلح لابد أن يُسعى له بالمفاوضات . وفى نفس الوقت "لا بد أن يكون الغرض من استراتيجيتنا شل ارادة العدو للحرب تدريجيا بانتهاج الدفاع الاستراتيجى" .

غير أن الحلفاء أوجدوا فى نفس الوقت طريقة استراتيجية جديدة . فان "فوش" بث هذا الايعاز لأول مرة بأن أمر بهجمات تقع على التوالى فى نقط مختلفة . ثم ان "هايج" أكمل تطور هذه الطريقة بعدم اتفاقه مع "فوش" فى تعلياته التى أصدرها باستمرار الجيش الرابع فى الضغط الجبهى (الأمامى) فلم يستأنف زحفه الا بعد أن ضرب كل من الجيشين الثالث والأول ضربته. ومنذ ذلك الحين أصبح تعرض الحلفاء عبارة عن سلسلة من الضربات السريعة فى نقط مختلفة ، وان كان ذلك قاصرا على الدائرة التى يسيطر عليها كل من "هايج" و"بتان" . وكانت كل ضربة تنتهى بمجرد ما تزول قوتها الدافعة الأصلية . فكانت كل منها ترمى الى تمهيد السبيل للأخرى والكل قريبين من بعضهم بعضا بالدرجة الكافية فى الزمان والمكان ليكون لكل جيش رد فعل على الآخر . وبهذه الوسيلة لاقى "لودندورف" عائقا يعوقه فى تحويل جنوده الاحتياطية لتبادر بالاستعداد لتلقى الضربات . ووضعت ضريبة على ما تبقى من جنوده الاحتياطية أخذت تتصاعد ، كلفت خزينة الحلفاء كلفة اقتصادية . وهذه الطريقة وان لم تكن اقترابا غير مباشر فى الحقيقة ، كانت على الأقل تظهر انها قريبة منه ، وان لم تسلك الخط التى لا ينتظره العدو فانها كانت تتجنب خط الانتظار الطبيعى . وان كانت لم تسلك خط أقل مقاومة ، فانها لم تستمر مطلقا على طول الخط الذى تزداد فيه المقاومة صلابة . فهى فى الواقع صورة سلبية للاقتراب غير المباشر .

ونظرا للانحطاط الذى طرأ على القوات الألمانية من حيث القوة المعنوية والقوة العددية فان هذه الطريقة كانت كافية ، لأجل معلوم على أقل تقدير ، لضمان استمرار الزحف واضعاف مقاومة الألمان تدريجيا . ثم ان الأدلة الواضحة على هذا الانحطاط وما ترتب عليه من وثوق "هايج" من امكانه أن يكسر خط "هندنبورج" حيث كانت الجنود الاحتياطية الألمانية أقوى منها فى أى مكان آخر جعلا "فوش" يترك هذه الطريقة ويقوم فى آخر سبتمبر بحركات عامة تقع فى آن واحد .

وهذه الخطة كانت ترمى الى ضغط مباشر يأتى من جهات مختلفة على الزاوية الخارجة الكبيرة المكونة من الجبهة الألمانية فى فرنسا بحيث تتلاقى الجيوش القائمة بها وتطبق على

العدو. وكان المأمول ان جناحى الحلفاء المؤلف احدهما من البريطانيين والآخر من الأميركيين حينما ينطبقان يفصلان قسما عظيما من الجيوش الألمانية الموجودة بالزاوية الخارجة عن بقية جيوشهم ويقطعان رجعته . وهذا الأمل كان أساسه أن ناحية "الاردنز" تكاد تكون سورا خلفيا لا يستطاع المرور منه وله منافذ ضيقة فى الأجناب . ويصح هنا أن يقال عرضا ان هذا الرأى فيما يختص " بالاردنز" لا بد أن يكون منشأه عدم معرفة ذلك الاقليم . لأن فيه طرقا جيدة وأغلب الأقاليم ذاته جهات وعرة لا جبلية .

وهذه الخطة كانت فى الأصل بنـاء على اقتراح " بيرشنج " تشتمل على درجة معينة من الاقتراب غير المباشر . فان اقتراحه كان أن الجيش الأميركى يستغل نجاحه المحلى بازالة زاوية " سان ميهيل" الخارجة بزحفه نحو " بريى " والمرور على "متس" قصد التوصل الى اعتراض المواصلات الألمـانية فى " اللورين" وتهديد خط رجعتهم الغربى الى نهر " الرين" . غير أن "هايج" عارض فى هذه الحركة بحجة أنهـا مشتتة عن هجمات الحلفاء الأخرى بدلا من أن تكون متجمعة عليها . وبناء على ذلك غير "فوش" خطته مهملا اقتراح "بيرشنج" وعلى ذلك اضطر الجيش الأميركى لأن يحول مجهوده نحو الغرب ويستعد للهجوم على قطاع "الموز" و "الأرجون" دون أن يترك له وقت للاستعداد أكثر من أسبوع واحد . وهنا كانت نتيجة الضغط المتواصل على طول الخط الذى تزداد فيه المقاومة صلابة ، عظم التكاليف والفوضى . فضلا عن أنه قد تبين أن هذه الحركة لم تكن ضرورية لتسهيل زحف " هايج " من خلال خط " هندنبورج " فان مجرى الحوادث كان فيه ما يدل على أن الاقتراب المباشر اذا توافر معه تفوق عظيم فى النيران وكانت قوة العدو المعنوية منحطة فانه يستطيع النفوذ الى موقع العدو ولكنه لا يستطيع تشتيته .

وفى ١١ نوفمبر وهو تاريخ الهدنة ، كانت القوات الألمـانية ، بتضحية مخافرها الخلفية ، قد خرجت بسلام من الزاوية الخـارجة ورجعت الى خط مستقيم أقصر من خطها الأصلى وكان زحف الحلفاء قد توقف فعلا وكان توقفه بسبب صعوبات اعاشة الجنود وتموينها فى الجهات التى أتلفها العدو أكثر ممـا كان بسبب المقاومة الألمـانية . ففى هذه الظروف كان الاقتراب المباشر مساعدا للألمـان على التسلل أكثر ممـا كان فى الامكان تعقبهم .

ولحسن الحظ لم يكن للطور الأخير من الحركات التعرضية العسكرية أهمية تذكر . فان الضربة الأدبيـة التى أنزلتها المفاجأة الأصلية فى ٨ أغسطس بالقيادة الألمـانية أكملها اقتراب غير مباشر فى مسرح آخر بعيد كل البعد وجعلها ضربة مميتة . وتلك هى الحركات التعرضية التى قام بها الحلفاء فى جبهة سلانيك . فلما كانت موجهة الى قطاع أراضيه وعرة بدرجة أن كان المدافعون قليلى العدد نفذت منه بسرعة . وبمجرد ما حصل ذلك صارت البلاد الجبلية الصعبة عائقا يعوق المدافعين عن تحويل جنودهم الاحتياطية تحويلا جانبيا لاعاقة سير الزحف

على خط أقل مقاومة . ولما انشطر جيش البلغاريين الذين ملوا الحرب الى شطرين تمنوا عقد الهدنة . وهذا العمل المجيد لم يهدم أول دعامة لدول الوسط فحسب ، بل فتح أيضا الطريق للزحف على مؤخرة النمسا . ثم التهديد زاد قربا عند ما نزلت الحركات التعرضية الايطالية على الجبهة النمساوية التى كانت تزعزعت أدبيا واضمحلت ماديا ونفذت منها . إذ بمجرد تسليم النمسا على أثر ذلك أصبحت أراضيها وسككها الحديدية تحت تصرف الحلفاء بصفتها قاعدة للعمليات ضد الباب الخلفى لألمانيا . وقد قال الجنرال فون "غالويتس" لكبير الوزراء فى شهر سبتمبر أنه لو حصل ذلك ، ولم يكن إذ ذاك قد تحقق ، فانه يكون "حاسما" .

وهذا التهديد مع التأثير الأدبى الذى أحدثه الحصر البحرى — ذلك الاقتراب غير المباشر الآخر القائم على الاستراتيجية العظمى — كان لهما وقع شديد على شعب جائع فاقد الأمل ، دفع الحكومة الألمانية فى الأيام الأخيرة نحو التسليم إذ كانا بمثابة مهمازين ينخسان فى جنبى جواد جامح . على أن الذى جعل الجواد يجمح هو فرقعة السوط . وفرقعة السوط هى انهيار بلغاريا وقد عززتها أول الأخبار المنبئة بتجديد الهجوم الجبهى فى فرنسا .

فأسقط فى يد القيادة العليا — بضع أيام فقط . فكانت كافية . وفات أوان الاستفاقة . وفى ٢٩ سبتمبر عجلوا بقرار طلب الهدنة بحجة أن انهيار الجبهة البلغارية قد قلب الأوضاع رأسا على عقب "فان الجنود المقرر ارسالها الى الجبهة الغربية أرسلت الى بلغاريا بحكم الضرورة" وأن ذلك قد غير الموقف "تغييرا كليا" بالنسبة للهجمات التى كانت تقع آنئذ على الجبهة الغربية . لأنها "وان كانت قد صدّت حتى الآن الا أنه لا بد أن يحسب حسابها" .

وهذه العبارة تشير الى التعرض العام الذى قام به "فوش" وكان الهجوم على جبهة "الموز" و"الأرجون" قد بدأ فى ٢٦ سبتمبر ولكنه فى ٢٨ منه كان قد توقف فعلا . وابتدأ هجوم فرنسى ، بلجيكى ، بريطانى فى فلاندرز فى ٢٨ ولكنه وان كان مقلقا كان يظهر عليه أنه ليس مهددا تهديدا حقيقيا . غير أن فى يوم ٢٩ كانت الضربة الرئيسية التى قام بها "هايج" تنزل بخط "هندنبورج" وكانت أخبارها الأولى مقلقة .

وفى ذلك الوقت العصيب استدعى البرنس "ماكس" ليكون كبير الوزراء ليفاوض فى أمر الصلح بحجة ما له من سمعة الاعتدال والشرف بين الدول . ولكى يساوم مساومة مثمرة دون الاعتراف بالهزيمة كان يحتاج الى فرصة يتنفس فيها قدرها "عشرة ، أو ثمانية أيام ، بل وحتى أربعة أيام ، قبل أن يعرض الطلب على العدو" وطلب هذه المهلة . غير أن "هندنبورج" لم يزد على أن أجاب بقوله "ان وخامة الموقف العسكرى لا تسمح بالتأخير" وأصر على "عرض طلب الصلح على أعدائنا فى الحال" .

وعلى ذلك عرض على الرئيس "ولسون" فى ٣ أكتوبر طلب لعقد هدنة فى الحال . وكان هـذا الطلب اعترافا صريحا للعالم بالهزيمة . وحتى قبل ذلك — فى أول أكتوبر — كانت القيادة العليا قد نخرت فى أساس جبهتها الوطنية بأن أعلنت هـذه الفكرة الى قادة الأحزاب السياسية فى اجتماع عقدوه .

وهذا التنوير الفجائى أعمى عيون الرجال الذين قضوا هذا الوقت الطويل وهم فى ظلام حالك . واستمدت منه عوامل الشقاق والسلام حافزا قويا يدفعها .

وفى ظرف بضـعة أيام ازداد سرور القيادة العليا ، بل وتفاءلت خيرا ، حينما رأت أن النفوذ الى خط "هندنبورج" لم يعقبه اختراق فعلى لكل جبهة القتال والنفوذ منها . ثم جاءت أخبار أخرى مشجعة وهى أن قوة هجمات الحلفاء أخذت فى التراخى ، وخصوصا فى انتهـاز الفرص . أما "لودندورف" فكان ما يزال يرغب فى الهـدنة . ولكن لا لشىء الا ليريح جنوده قبـل استئناف المقاومة ولكى يضمن سلامة انسحابهم الى خط دفاعى على الحـدود أقصر من خطهم الحالى . وفى ١٧ أكتوبر بلغت به الحالة أن شعر بأنه يستطيع ذلك حتى من غير استراحة . وكان الباعث له على هذا الشعور طروء شىء من التنقيح والتعديل على فكره فى الحالة الراهنة . لا لأن الموقف قد تغير . فالموقف لم يكن فى حالة سيئة فى وقت ما مثـل ما كان حينما وصفه فى ٢٩ سبتمبر . غير أن فكره الأول كان الآن قد سرى بين الدوائر السياسية والجمهور فى ألمـانيا — وانتشر كما تنتشر تموجات المـاء حينما يلقى فيه حجر . وشرعت "الجبهة الوطنية" تنهار بعد ذلك ولكن انهيارها كان أسرع من انهيار جبهة المعارك .

وفى ٢٣ أكتوبر أجاب الرئيس ولسون على مطالب الألمـان بمذكرة طلب فيها ما هو بمثابة التسليم بغير قيد ولا شرط . أما "لودندورف" فانه أراد أن يستمر فى النضال بأمل أن الدفاع عن الحـدود الألمـانية دفاعا مثمرا قد يثبط من عزيمة الحلفاء . ولكن الموقف كان قد خرج عن حدود سيطرته لأن قوة ارادة الأمة كانت انهدمت وعاب الناس عليه نصيحته . وفى ٢٦ أكتوبر اضطر الى اعتزال الخدمة .

أما كبير الوزراء فقد بقى فى سـنة من النوم لمدة ٣٦ ساعة من تأثير جرعة منومة تجاوزت الحد . ولمـا عاد الى ديوانه فى صباح ٣ نوفمبر لم تكن تركيا فقط قد أسلمت ، بل النمسا أيضا . فأصبح البـاب الخلفى مفتوحا . وفى اليوم التالى قامت الثورة فى ألمـانيا وانتشرت فى البلاد بسرعة ، وكان يؤجج نارها ابطاء مفاوضات الصلح بسبب امتناع القيصر عن التنزل عن العرش . وصارت الفرصة الوحيدة فى الاتفاق مع الثوار . وفى ٩ نوفمبر تنحى الأمير "ماكس" عن أعماله "لايبرت" الاشتراكى . وكان اذ ذاك مفوضو الألمـان يتفاوضون مع "فوش" لعقد الهدنة وفى الساعة الخامسة من صباح ١١ نوفمبر أمضوا الشروط ، وفى الساعة الحادية عشر صـباحا وضعت الحرب أوزارها .

أما نتيجة الحرب فقد بت فيها نهائيا فى ٢٩ سبتمبر، فى رأى القيادة الألمانية . فقد انكسر كل من "لودندورف" وزملاؤه ، وكان لانكسارهم دوى تجاوبت أصداءه جميع أنحاء ألمانيا . وهذا الدوى سرى فى البلاد لايلحقه شىء ولا يوقفه . فالقيادة قد تسترد هدوء أعصابها واعتدالها . والموقف العسكرى ذاته قد يتحسن . ولكن التأثير الأدبى قد أصبح حاسما كما فى أى حرب وقعت .

فمن بين الأسباب الأساسية لتسليم ألمانيا يرى، حينما تنجلى السحب التى كانت مغيمة على الحرب وينكشف الجو فى هذه الأيام التى أعقبتها ويظهر صفاؤه للعيان ، ان الحصر البحرى كان له شأن أعظم من غيره بكثير .

ففى وجود الحصر البحرى أصدق رد على التساؤل عما اذا لم يكن فى امكان الجيوش الألمانية الثبات والصمود فى حدود بلادهم لولا نشوب الثورة فيها . لأنه حتى لو أن الشعب الألمانى نشط لبذل أسمى مجهود له فى سبيل الدفاع عن أراضيه ، واستطاع أن يوقف زحف جيوش الحلفاء فان ذلك ما كان ليجدى شيئا سوى تأجيل النتيجة الأخيرة — بسبب تضييق القوة البحرية التى هى سلاح بريطانيا التاريخى .

على أن الفضل الأول فى تعجيل التسليم والحيلولة دون استمرار الحرب فى سنة ١٩١٩ يرجع للأعمال العسكرية . وهذا الرأى ليس من الضرورى، ولا من الطبيعى، أن يفهم منه أن فى اللحظة التى عقدت فيها الهدنة كانت قوة ألمانيا العسكرية قد كسرت، أو أن جيوشها قهرت قهرا حاسما . ولا أن منحة الهدنة كانت منحة خاطئة . بل ان تاريخ « المائة يوم » الأخيرة اذا غربل غثه من سمينه فانه يؤكد الدرس العريق فى القدم، وهو أن الغاية الحقيقية المقصودة من الحرب هى عقلية العاهلين المتخاصمين لا أجسام جنودهما . وأن الموازنة بين النصر والهزيمة تدور على مايتأثر به العقل ، ولا تدور على الضربات المادية الا بصفة غير مباشرة . فان الذى هز أعصاب "لودندورف" ، أكثر من خسائره فى الأسرى والمدافع والأراضى ، انما هى صدمة المفاجأة وشعوره بعجزه عن مقابلة الحركات الاستراتيجية المحتملة الوقوع بما ينقضها ويبطل عملها .

(المطبعة الأميرية ١١٢٧٨ — ١٩٣٠ — ٢٠٠٠)